سقوط عصر الجواسيس



طلعت المرصفي

سقوط عصر الجواسيس

مقدمة

كما الأشجار تموت واقفة... كذلك ينتهي الجواسيس والعملاء برصاصات صامتة في أفضل الأحوال أو بالانتحار في أسوئها وفي كلتا الحالتين لا يأتي الموت طبيعياً في ذروة أعمار الرجال والنساء الذين اختاروا الصمت واحات يضيعون داخلها المثير والغامض من الأحداث في مجتمعاتهم أو خارجها... يتركون بها بصماتهم على صفحات ملفات اجهزة المخابرات...

وعندما تطوى الملفات... وتحتل مواقعها في خزائن تحيطها جدران دور الوثائق السرية تنقطع آخر خيوط المعرفة بأصحابها... من هم؟... وكيف صنعوها؟؟ ومن هم القلة المحدودة من ضباط تلك الأجهزة الذين اشرفوا على عملياتهم منذ تجنيدهم وحتى رحيلهم؟؟ و... الأهم من هم الكتاب والصحفيين أو الباحثين الذين سيتقدموا لإزاحة النقاب عنهم.. وكشف بعض من الأسرار التي صنعها هؤلاء الجواسيس والعملاء... سواء في كتب السيرة الذاتية أو أعمال روائية يذهب فيها الخيال بعيداً أو أعمال فنية سينمائية وتليفزيونية تجذب إليها الملايين وتطمس فيها الحقائق والأسرار وعلى حساب مفردات لغة تلك الأعمال المقطوعة الصلة بكل ما روج عن اسماء وأعمال اصحابها الحقيقيين.

ورفعت الجمال أو رأفت الهجان، وعمرو طلبة أو موسى زكي رافع في مصر لا يختلفان عن نماذج الجواسيس والعملاء الذين احتلوا مواقع الصدارة في أعمال جراهام جرين وسومرست موم وجون لوكاريه في بريطانيا.

في صباح أحد أيام شهر فبراير عام ١٩٩٤ بدأ أعضاء مجلس التحرير في إحدى الصحف العربية الكبرى التي تصدر في لندن اجتماعهم باستعراض ابرز الأحداث العالمية والمحلية والتي تعنى بالطريف والمثير من هذه الأحداث لتغذية صفحات الجريدة واعمدتها في اليوم التالي.

أذكر أنني طرحت اسم وحادثة انتحار الكاتب والصحفي البريطاني جيمس روزبريدج James Rosbridge كنبأ ساخن احتل صدر نشرات الأخبار في الإذاعات ومحطات التليفزيون البريطانية المحلية هذا الصباح ليكون قصة طريفة تقدم احداثها الشيقة الى القارئ

العربي خاصة وان الكاتب المنتحر وكما أوردت الأنباء قد اختار اسلوباً اكثر اثارة وغموضاً لنهايته في سقف مسكنه المتواضع بإحدى القرى الواقعة على اطراف مدينة كورنول جنوب إنجلترا. وفي الصباح السابق الذي غطى فيه الجليد بغلالاته البيضاء الكثيفة جميع انحاء الجزيرة البريطانية...

ولم يهمل نبأ انتحار جيمس روزبريدج صفته السابقة كضابط مخابرات سابق في جهاز الأم/أي 6 ابرز أجهزة المخابرات البريطانية العاملة خارج الحدود.

غير أن إعادتي لنبأ انتحار روزبريدج داخل اجتماع مجلس التحرير للصحيفة العربية الكبرى في لندن أثار عاصفة من الضحك واختلاف الآراء حول جدوى الكتابة عن صحفي بريطاني منتحر لقارئ عربي قد لا يعنيه أمر الحادثة في كثير حتى ولو كان اسمه في حجم وشهرة جيمس روزبريدج الكاتب الروائي وضابط المخابرات السابق.

ولعل سبب ضحك الزملاء كان مصدره تسرعي في اقتراح عنوان «سقوط عصر الجواسيس» لأعمدة القصة التي اقترحت كتابتها عن جيمس روزبريدج واختزلت به فكرة ومضمون القصة قبل كتابتها...

المهم أن القصة لم تنشر أو يكتب لها الصدور في الصحيفة العربية في اليوم التالي ولكنها ظلت هاجساً مسيطراً طوال عدة أشهر تبلورت خلالها فكرة إصدار كتاب عن «نهاية عصر الجواسيس» واختيار ابرز نماذجهم في الساحة الغربية مادة للحديث عنهم وإعادة تقديمهم للقارئ العربي ودون إضفاء مزيد من رتوش الخيال على حياتهم واعمالهم... و... طرح التساؤلات من حولهم... من هم؟ ماذا يفعلون الآن... أو كيف انتهى كل منهم؟ وما هو مستقبل الأحياء؟؟ في عصر اختفت فيه أجهزة المخابرات السوفيتية السابقة «كي جي بي» KGB وشتاسي الألمانية الشرقية السابقة والعديد من أجهزة مخابرات بلدان أوروبا الشرقية... ومع اختفائها وإعادة تنظيمها من جديد في بلدان نفضت عنها جدران وقيود النظم الشيوعية تم تسريح مئات الآلاف من الجواسيس والعملاء الذين عملوا داخلها ومن أجل اهدافها لأكثر من أربعين عاماً...

في نفس الوقت الذي سرحت فيه أجهزة المخابرات البريطانية والأمريكية والفرنسية والألمانية والهولندية والايطالية الأعداد المماثلة وفي بداية مرحلة يتشكل فيها نظام عالمي جديد بكل ما يحمله من انظمة حكم وأجهزة مخابرات وارهاصات جديدة لم يعد للجواسيس والعملاء القدامى مكان فيه.

وعودة أخرى إلى حادثة انتحار جيمس روزبريدج الكاتب وضابط المخابرات السابق في الجهاز البريطاني أم/أي/6 داخل مسكنه في إحدى قرى كورنول جنوب غرب انجلترا تكشف حجم الضياع الذي كان يعيش فيه ويواجهه أمثاله من الجواسيس والعملاء السابقين في عصر لم يعد بحاجة اليهم، وكيف أنه اختار النهاية المثيرة لحياته. يختتم بها ثقل المعاناة التي واجهها في سنواته الأخيرة واسلمته الى الضياع والافلاس والتعيش على كتابة ونشر أعمدة القصص الجنسية في صحف التابلويد الشعبية ودون أن يهتم به أحد والى أن جاء نبأ انتحاره خاتمة شبيهة لمقتل البريطانية هيلدا موريل Hilda Murrell مالكة احدى مزارع الزهور في قرية اخرى جنوب انجلترا والعضوة النشطة السابقة في حركة نزع الأسلحة النووية سابقاً قبل سنوات قليلة وظل سيف الاتهام ـ منذ ذلك الحين وحتى الآن ـ معلق فوق رؤوس عملاء أجهزة المخابرات البريطانية خاصة وأن الضحية (هيلدا موريل) لم تكن بعيدة بأنشطتها السرية والعلنية عن مساحات الخطر وظلال الأرضية التي تدور عليها انشطة العملاء والجواسيس من مختلف الجنسيات... البريطانية وغيرها وفي حقبة تصاعدت فيها هذه الأنشطة الى ذروتها.

وفيما يحلق ضباب العدم الكثيف على رؤوس عملاء المخابرات البريطانية في حادثة مقتل هيلدا موريل، يأتي انتحار جيمس روزبريدج أكثر غموضاً ومع عميل سابق عصف به الضياع سنواته الأخيرة واضطر الى التعيش على عائدات مقالات متفرقة في الصحف الشعبية والانخراط بالرأي والخبرة السابقة في نفي قصص التصنت الهاتفية واساليبه على المكالمات السرية لأعضاء الأسرة الملكية البريطانية التي ذاعت في أشهر صيف 92 و 93 واستدرجت فيها اسماء الأمير شارلز وعشيقته كاميليا باولز وزوجته الأميرة ديانا وصديقها جيمس جيلبي واكتشاف رسائل غرامية ساخنة تم تبادلها بين الأميرة آن وعشيقها السابق (وزوجها الحالي) الكابتن تيم.

وكان جيمس روزبريدج في كل ذلك يتحايل على قيود الأسر التي التفت حول ايامه وبمختلف الوسائل ودون أن يغير كثيراً من مسلكه السابق وعندما كان يحلق بأجنحته في عوالم الجواسيس والعملاء، والتنقل بين الفنادق الفاخرة في لندن أو عواصم الدول الأوروبية والى ان كشفت حادثة انتحاره عن حجم الضياع الذي كان يعانيه وإفلاسه وعدم قدرته على سداد المتأخر عليه من ايجار مسكنه المتواضع في كورنول ودون تفسير ولو في قصاصة ورق كما يفعل أمثاله من المنتحرين لجوئه الى هذه النهاية الأليمة التي اختارها معلق من رقبته في سقف مسكنه...

طلعت المرصفي

انفيلد ـ ميدلسكس ـ انجلترا

مارس 1994

روزبريدج آخر عميل بلا قيمة في غابة الجواسيس

وُلد جيمس إرنست ستيوارت روزبريدج James Ernest Steuart Rusbridge في عام 1928، ابنا للفريق ستيوارت روزبريدج قائد فرقة دوق ويلنجتون المرابطة في جامايكا آنذاك.

وفي أعوام صباه تلقى تعليماً متنوعاً في كل من مدرسة تينبوري Tenbury الثانوية ثم كلية دوفر Dover College قبل التحاقه بالخدمة العسكرية لعدة سنوات، وما أن انهاها حتى عمل مدرباً إدارياً في مصانع فيكرز ارمسترونج Vicker Armstrong .

وطبقاً لمزاعمه التي واصل تكرارها ـ فيما بعد ـ فقد قادته صدفة الاطلاع على اعلان في صحيفة الديلي تلجراف الى العمل في تأسيس أحد معامل السكر الأمر الذي أدى به الى تحقيق النجاح في تسويق مبيعاته الى بلدان الشرق الأقصى ابان ازمة السويس عام 1956 مما ادى الى ترفيعه الى منصب المدير التنفيذي لمبيعات المعمل بعد امتداد نجاحه الى فتح اسواق في عدة بلدان أوروبية شرقية وانتزاع الثناء من كبار المسئولين في وكالة المخابرات المركزية الأمريكية CIA على مساهماته في تضييق الحصار على المبيعات الكوبية من السكر في الأسواق الخارجية وإضافة الأزمات الخانقة الى نظام حكم الزعيم فيديل كاسترو...

غير أن مزاعمه الأخرى حول قرابته (ابن عم) للنائب السابق لجهاز المخابرات البريطانية الشهير بيتر رايت (مؤلف كتاب صياد الجواسيس) وعمله في احد فروع أجهزة التخابر البريطانية الخارجية لعدة سنوات كعميل متجول في بلدان اوروبا الشرقية ـ خاصة عقب إلقاء القبض عليه في بلغاريا اثناء التقاطه بعض الصور في احدى قرى الصيادين ثم الافراج عنه لم تجد مصداقيتها أو تأكيداً من مسئولي أجهزة التخابر البريطانية فيما بعد. ولكن جيمس روزبريدج ظل يواصل تكرار هذه المزاعم ونسج القصص الخيالية عن التحقيق معه في العاصمة البلغارية والمحاولات التي قام بها ضباط المخابرات هناك لإرغامه على التوقيع في محاضر التحقيق بعمالته للمخابرات البريطانية والتجسس لحسابها اثناء زيارة الزعيم السوفييتي الراحل نيكيتا خروتشوف لبلغاريا. واضطرار روزبريدج الى تقديم اعتذار رسمي أمام محققيه البلغار في مقابل الإفراج عنه.

هذه الروايات الوهمية التي واصل إذاعتها ونشرها في اعمدة صحيفة الديلي تلغراف عقب عودته رغم أنها لم تجد سندها في الواقع أو تجد من يدعمها ولو بطريقة غير مباشرة،

اكسبته شعبية لدى قرائه ومنحته هالة من الصفات التي حلق عليها في عالم نشر قصص الجاسوسية وكتب أدب المخابرات بعد أن احيل الى التقاعد من عمله في احد مصانع إنتاج المشغولات الفضية في مطلع السبعينيات والتفرغ للكتابة في الصحف اليومية واشتراكه في اعداد مسلسل تليفزيوني عرضته محطة تليفزيون BBC بعنوان Encounter استوحى مادته من بعض كتب وروايات الجاسوسية. واكتسب بهذا المسلسل شهرة في أوساط الرأي العام البريطاني، أصبح يسلك في حياته الخاصة بما يوحي للآخرين بالأهمية الخاصة كرجل مخابرات سابق يتخذ أماكنه الأثيرة في قاعات الفنادق الكبرى ودعوات الأصدقاء الى حفلات الغداء والعشاء في مطعم ميرابيل Mirabelle بحي الماي فير (وسط لندن) أحد الأماكن المفضلة للعاملين في أجهزة المخابرات البريطانية.

ولكن جيمس روزبريدج وبهذا المظهر الخادع، وتطوعه لاكساب ذاته صفة العليم ببواطن الأمور واسرافه الشديد الذي كان يفوق حدود السفه وتعاونه بلا مقابل مع عشرات الباحثين والصحفيين الذين يعدون موضوعاتهم عن الشئون الأمنية وأجهزة المخابرات في بلاده لم يكن اكثر من كاتب وصحفي هاو اختار ساحة المخابرات ليكتب عنها ويحيط نفسه بهالات مزيفة لا تعدو الحقيقة فيها أن تكون غير فتات من المعرفة التي يلتقط معلوماتها من سطور الكتب والمقالات القديمة التي كتبها غيره في مطلع القرن الحالي ويعيد صياغتها بأسلوب رشيق لم يفتقد مفرداته.

وعندما احتل نبأ انتحاره في مسكنه المتواضع بإحدى قرى كورنول طغت حقيقة افلاسه وضياعه وعجزه عن سداد ستة آلاف جنية تأخرت عليه من ايجار مسكنه لعدة أشهر على صفة الشهرة التي صبغ بها حياته.

مستقبل غامض يحيط بعالم المخابرات

قد يكون من الأفضل في البداية تحديد ذلك المعنى المقصود «بالمخابرات» قبل الدخول في تحليل الأحداث والاصلاحات التي طرأت على عمل معظم الأجهزة والوكالات العاملة في هذا المجال خلال الأعوام الأربعة الماضية.

تشير كلمة المخابرات «Intelligence» في قـامـوس راندوم The Random House Dictionary إلى أنها تعني «جمع وتبادل المعلومات خصوصاً السرية منها عن الأعداء أو الأعداء المحتملين». فيما تفسر الموسوعة العسكرية للولايات المتحدة الأمريكية Encyclopedia of US Military وظيفة رؤساء الأركان المشتركة joint chiefs of staff بأنها: «محصورة في تحليل واستخلاص النتائج التي توفرها عمليات جمع المعلومات وتبادلها، وتصنيفها، وتقييم كل منها، والترجمة الصحيحة للمتاح منها حول أوضاع الدول الأجنبية أو المناطق الجغرافية».

ومع أن تلك التفسيرات العامة قد تكون مفيدة في توضيح معنى كلمة «المخابرات» في القواميس العادية إلا أنها تبدو أكثر تحديداً في «الموسوعة الأمريكية للمخابرات» «The United States intelligence Encyclopedia» والتي تؤكد الفارق بين «كلمة المعلومات» و«المعلومات التي يتم جمعها لتوظيفها في مهام التخابر» فالمعلومات لا تحدد بدقة قيمة المواد التي يتم جمعها حول أي موضوع بقدر تحديد قيمة المواد والعناصر التي يتم جمعها وبهدف توظيفها في عمليات التخابر.

وفي النهاية فإن مفهوم «التخابر» محصلة تسفر عنها النتائج أو المعرفة الناجمة عن تدوير العناصر التي تتشكل منها المعلومات. فعملية التخابر ـ intelligence تقوم على ثلاثة عناصر اساسية هي:

«المعرفة» Knowledge ويقصد بها هنا المعرفة الدقيقة التي تساهم في المساعدة على صنع القرار».

و«المؤسسة» Institution وتعني الهيكل التنظيمي أو المنظمة البشرية التي ستتلقى هذه المعلومات وتقوم بتصنيفها وتحليلها وتقييمها.

و«الأنشطة» Activity وتعني ممارسة عمليات جمع المعلومات، والتقييم، والبحث، والتحليل والدراسة والعرض وغيرها من الممارسات التي تتطلبها عمليات جمع المعلومات.

على أن ما تتجاهله هذه التحديدات، وغالباً ما يتجاهلها مجتمع المخابرات هو أن عملية جمع المعلومات لا تتم في فراغ أو بمعزل عن استجابتها للحاجات العملية لصناع القرار td الحكومات المختلفة. ولذا فإن مفهوما رابعاً لعملية التخابر ـ وكما تقول جينيفر سمز -Jenni fer Sims عضوة اللجنة المختارة للمخابرات في مجلس الشيوخ الأمريكي ـ تعتمد فضلاً عن جمع المعلومات وتصنيفها وتحليلها وتقييمها وقبل عرضها امام صناع القرار على الأسلوب الفني والعوامل الطارئة، والشائعات وقراءة وتحليل الصور وبرمجة المختزن من هذه المعلومات والطرق الصحيحة لإعادة الاطلاع عليها وسهولة استخدامها عند الحاجة.

ومن هنا فإن الفهم الموسع لمعنى التخابر يرتكز على رؤية مجتمع المخابرات لنفسه أولاً، وفي المقابل رؤية واضعي السياسات في تحديدهم لمصادر المعلومات وكيفية الإفادة منها.

وفي الماضي كان مجتمع المخابرات غالباً ما يعمل في عزلة، وتنشط عناصره في جمع المعلومات وبغض النظر عن من كان سيستفيد منها أو يستثمرها. في نفس الوقت سيطر على معظم اجهزة ووكالات المخابرات في العالم هاجس السرية والغموض انطلاقاً من ضرورة حماية انفسهم وكذلك مصادر جمع معلوماتهم وبأي ثمن. الأمر الذي أدى الى انغلاقها على نفسها وتحديد رقعة عوالمهم والنظر الى الآخرين خارجها كمصادر خطر يتوجب تجنبهم والاكتفاء بما يتوفر لديهم من معلومات عنهم وبغض النظر عن مدى فائدتها لصناع القرار في بلادهم.

الآن سقطت كل هذه القواعد التقليدية في عالم المخابرات ولم تعد السرية المحكمة والغموض المبالغ فيه الوسيلة الفعالة لحماية انشطة العاملين فيه او مصداقية المعلومات التي يجمعونها بهدف توظيفها في التخابر، فقد أصبحت التقارير الدبلوماسية التي يعدها العاملون في السفارات والبعثات الأجنبية تشكل 90 في المائة من المعلومات المطلوب عرضها على صناع القرارات في الحكومة المختلفة. أما الـ 10 في المائة الأخرى فقد تركت مسؤوليتها ملقاة على عاتق العملاء، وجمعة المعلومات بالأساليب العلنية والتي يكفي الحصول عليها ثمناً هزيلاً لا يتجاوز بطاقة مواصلات في قطار أو حافلة عامة أو دعوة غداء مع أحد رجال الأعمال الكثيرو الاسفار.

فيما وفرت السماوات المفتوحة سباحة مأمونة لعشرات أقمار التجسس والتقاط الصور الحافلة بأدق التفاصيل وبحور المعلومات.

وهذه المتغيرات الطارئة خلال الأعوام الأربعة الماضية، وابرزها حل اجهزة مخابرات القطاع الشرقي السابق من المانيا (شتاسي) ووكالات وتنظيمات المخابرات التشيكية وإعادة صياغة اجهزة أمن الدولة السوفييتية KGB، بعد انهيار امبراطوريتها بقدر ما اضفت السعادة والراحة على أجهزة المخابرات الغربية انعكست تأثيراتها ومخاطرها بقدر اكبر من مجرد حلها والغائها وتسريح الوجوه التقليدية لقياداتها والعاملين فيها سابقاً.

ولعل اكثر من تأثر بتلك التغييرات هي وكالة المخابرات المركزية الأمريكية CIA. فقد كانت عمليات التخابر دائماً في نظر واضعي سياساتها تعتمد على جمع المعلومات الواسعة وبالوسائل العلنية وأيضاً من المصادر السرية. الآن وبعد أن أصبحت هذه المصادر لا حاجة بها الى انتهاج اساليب السرية سقط عشرات الآلاف من العملاء وجمعة المعلومات في فوضى التخلي عن خدماتهم وتحويلهم الى جيوش عاطلة عن العمل ويشكل وجودها والخبرات الهائلة التي يتمتع بها عناصرها مصادر خطر يصعب التكهن بنتائجها ما لم يتم استيعابهم في أعمال أخرى تفيد من مهاراتهم.

أما في عالم المخابرات البريطانية فإن الوضع مختلف تماماً ولم تنعكس فيه آثار التغييرات بتلك الوطأة التي تشهدها الآن منظمات المخابرات الأمريكية. فعامل السرية وأنشطة جمع المعلومات الدقيقة الغير متوفرة لأي أجهزة مخابرات أجنبية أخرى كان ولازال المعيار الذي تعتمده الأجهزة البريطانية في عملها واسهمت في الإبقاء عليه دونما تغيير يذكر.

حقيقة ليس هناك ثمة من شكوك في أن العالم قد تغير دراميا في الأعوام الأربعة الماضية، الأمر الذي يطرح خللاً في الرؤية ومحاولات فهم طبيعة ومردودات تلك المتغيرات وانعكاساتها على أجهزة المخابرات والعالم من حولها، وهل تبشر هذه المتغيرات بمستقبل آخر اكثر أمناً ومدعاة لعدم الشعور بالقلق أم أنها تلقى بمجهول الأحداث المقبلة والتي يصعب التكهن بطبيعتها ونتائجها؟؟

هذه التساؤلات وغيرها قد أصبحت مطروحة الآن وبلا إجابات محددة عليها داخل جميع اجهزة ووكالات المخابرات في العالم. بعضها ساعده على التكييف مع المعطيات الجديدة وما طرأ على مجتمعاتها من متغيرات مثلما حدث داخل الاتحاد السوفييتي السابق وإعادة صياغة أجهزة المخابرات الروسية وبما يتواءم مع حجم الدولة الروسية والإفادة من تراث جهاز مخابرات الـ KGB في تشكيلات اجهزة التخابر الجديدة. والبعض الآخر مثل الوكالة المركزية للمخابرات الأمريكية CIA وأجهزة المخابرات البريطانية SIS لم تحدث جديداً من التغيير أو إعادة

صياغة هياكل العمل السابقة وفي محاولة لتذليل المصاعب الطارئة والعمل بنفس السياسات والنهج القديم في مجالات التخابر.

أما المتشائمون خارج هذه الأجهزة ووكالات المخابرات فلم يعد لديهم ادنى شك بأن الادوار المنوطة اليها في السابق قد اسدلت عليها ستائر النهاية مع انحسار موجة الحرب الباردة ولم يعد هناك من ادوار يمكن لهذه الأجهزة والوكالات القيام به بعد الآن سوى التعاون المشترك وتبادل المعلومات فيما بينها بدلاً من اساليب المواجهة التقليدية التي مارستها طوال الأعوام الخمسين الماضية والاهتمام بقضايا البيئة ومكافحة التجسس الصناعي، وتحجيم عمليات الإرهاب ومطاردة شبكات تهريب المخدرات.

وأياً كان ما يقوله المتفائلون أو يؤكده المتشائمون الآن حول مستقبل عمل أجهزة ووكالات المخابرات الشرقية منها أو الغربية، فالحقيقة التي يستند اليها كلاهما تقوم على ما وفرته مرحلة الحرب الباردة من مناخ نشطت فيه وكالات المخابرات الغربية واجهزة الحلف الاطلسي (الناتو) وفي المقابل أجهزة ووكالات البلدان الأوروبية الشرقية وحلف وارسو في جمع المعلومات واستخدامها لصالح صناع القرار في كلا الكتلتين والقوتان العظميان.

غير أن التحولات الجذرية التي شهدتها الساحة الدولية في الأعوام الأربعة الماضية وانهاء الحرب الباردة حملت معها دعوات صريحة من مختلف الحكومات في كلا الجبهتين لخفض الانفاق العسكري وتقليص احجام القوات المسلحة وإعادة النظر في طبيعة عمل أجهزة المخابرات وبعد أن تغيرت مفاهيم السلام وانحسرت المخاطر التي كانت تطرحها الأوضاع القديمة.

وبالنتيجة تأثرت معظم ميزانيات وكالات المخابرات وبلا استثناء، فعلى سبيل المثال قامت أجهزة المخابرات البريطانية بتسريح أعداد من العاملين فيها وبنسبة 50 في الألف. وفيما اختلفت هذه النسب داخل الوكالات الأمريكية والروسية وبالقدر الذي لا يعكس ضرراً كبيراً في طبيعة عملها. والمثير أن اللغة التي تناول بها رؤساء أجهزة المخابرات في جميع هذه البلدان إزاء تصوراتهم لمخاطر المستقبل كانت شبه موحدة وتصنف أولويات العمل في قائمة تحتل فيها موضوعات التهديد العسكري لأمن دولهم، واستخدام سلاح التفتيش، ومواصلة أنشطة مكافحة الجاسوسية، والمخدرات والإرهاب وشبكات تمويل الجريمة المنظمة اهتمام هذه الأجهزة في المرحلة الجديدة.

على أن انهيار هياكل المواجهة داخل انظمة الحكم الشمولية في بلدان أوروبا الشرقية

وزوال أنظمتها الشيوعية أسهم في تحرير قوى التوتر العرقية التي يعود تاريخها الى مئات السنين الماضية، وسمح لزعماء هذه القوى التعبير العلني عن تطلعاتهم بعد أن كانت هذه التطلعات قد تم قمعها في مطلع القرن الحالي، وفرض عليها الستار الحديدي قيوداً مشددة حجبت معالمها أو حجم انتقاضاتها الداخلية في مجتمعاتها عن أعين الرأي العام العالمي.

الآن وبعد مضي أربعة أعوام على نهاية الحرب الباردة وانهيار انظمة الحكم الشمولية وزوال أجهزة القمع التي استخدمتها طوال أكثر من نصف قرن، وظهور الأسواق المفتوحة للأسلحة الحديثة عادت القوى والحركات العرقية للانطلاق مرة أخرى تخوض حروبها الصغيرة من أجل التعبير عن أنفسها كما نشهد الآن في الصومال والبوسنة والهرسك وجنوب السودان وغيرها من مناطق الالتهاب وبؤره الساخنة على الساحة الدولية.

وأصبح واضحاً لجميع الحكومات وأجهزة مخابراتها أن قوى وحركات التحرر العرقية لم تعد بالعوامل التي يمكن تجاهلها أو اخمادها بنفس الأساليب القمعية القديمة بقدر إعادة النظر فيما تطرحه من تهديدات ومخاطر على الأمن والسلام العالمي الأمر الذي يفرض على اجهزة المخابرات استحداث الوسائل البديلة لجمع المعلومات واستخلاص النتائج التي تتيح لصناع القرار التحرك مبكراً واتخاذ الإجراءات التي تحول دون هذه المخاطر قبل استفحالها.

وعلى صعيد حركات الإرهاب العالمي، وانفلات قيود الحظر على بيع السلاح، والنشاط المتصاعد لشبكات تهريب المخدرات أصبح التحدي المطروح على أجهزة ووكالات المخابرات اكبر بكثير مما كان عليه الوضع خلال سنوات الحرب الباردة. يضاف الى ذلك تلك التطلعات التي تسعى الى تحقيقها العديد من البلدان النامية بالحصول على ما يساعدها في انتاج اسلحتها النووية.

فحتى نهاية القرن الحالي سيتمكن عدد من بلدان الشرق الأوسط من حيازة ترسانات ضخمة من الصواريخ العابرة البعيدة المدى وتحميلها بالرؤوس النووية والكيماوية وإمكانية وصولها بسهولة الى بلدان أوروبا الغربية والمثال على ذلك الخطر العاجل كشفه اخفاق وكالات المخابرات الغربية في حالة العراق وترساناتها من اسلحة الدمار الشامل قبل اندلاع حرب الخليج والمحاولات التي تبذلها هذه الوكالات والأجهزة الشبيهة التابعة للأمم المتحدة في جمع معلوماتها عن الترسانة العراقية طوال الأعوام الأربعة الماضية.

أما عاملي حركات الإرهاب وتجارة وتهريب المخدرات وان كانت أكثر خبثاً ودهاءً في المواجهات التي تطرحها على المجتمع الدولي إلا أنها ليست بذلك الخطر الذي يستحيل تحجيمه والاقلال من مضاره.

وقد بلغت تكاليف عمليات مكافحة المخدرات داخل الولايات المتحدة الأمريكية وحدها في عام واحد 13 بليون دولار ودون أن يخفف ذلك من حدة تفشيها أو يقلص بلايين الدولارات التي تدرها على زعماء شبكاتها. ولعل ذلك يعود الى ما طرأ على تجارة وتهريب المخدرات من عوامل وفرتها مصادرها الجديدة من بلدان شرق آسيا وتلك الخاضعة في السابق الى الامبراطورية السوفييتية المنهارة.

الأمر الذي بلور نظرياً امكانية تشكيل جبهة مشتركة من منظمات المخابرات الغربية والشرقية للعمل على مكافحتها في منابعها وان كان من المستبعد النجاح في هذا المجال في المدى القصير.

أما في مجال حركات الإرهاب العالمية فإن معدلات التصعيد في أنشطتها وطبيعة الأهداف التي تسعى الى تحقيقها قد طرحت على اجهزة المخابرات الغبية عوامل عديدة لم تكن في حسبانها من قبل وتتطلب مضي فترات طويلة قبل استيعابها وفهم دوافعها المحلية التي تنطلق منها وخاصة حركات التطرف الاسلامي التي تشن موجات من الارهاب وبلا هوادة وتختلف في طبيعتها عن الحركات الإرهابية الماركسية اللينينية التي كانت تشن هجماتها في حقبة السبعينات وتمولها وتحركها اصابع موسكو.

اليوم تحول ذلك العامل من موسكو الى طهران كمصدر من مصادر شن حركات الإرهاب وتمويل وتسليح عناصرها وفي ساحة تمتد من جبهات الحرب الأهلية في الجزائر الى تفجير مركز التجارة العالمية في نيويورك.

وقد تكون إيران وبالفعل الشريك الفاعل في تمويل وتسليح وتدريب العناصر الإرهابية التي تشن هجماتها المتلاحقة في أكثر من بقعة على الساحة الدولية ولكنها وبالإمكانيات المتاحة لها ليست المصدر الوحيد الذي يدير أنشطة الإرهاب برمتها على تلك الساحة الشاسعة.

وفيما يبدو من أن مجتمع المخابرات الغربية يمتلك المصادر الهائلة لجمع معلوماته عن حركات الإرهاب العالمية والعوامل التي تشكل أنشطتها على الساحة الدولية إلا أن المتغيرات الطارئة طوال الأعوام الأربعة الماضية دفعت أجهزة المخابرات الغربية الى تكثيف اعتمادها في تلقي المعلومات على العناصر البشرية كأكثر العوامل لمكافحة الأنشطة الإرهابية ومطاردة الخلايا السرية والكشف عن معسكرات تدريب أعضائها ومعرفة اسواق تزويدها بالسلاح

ومصادر تمويلها ومعرفة الأساليب التي يتم بها الاتصال بين عناصرها. فالإرهابيون الآن قد أصبحوا اكثر مكراً ودهاءً، لا يعتمدون في اتصالاتهم على المكالمات الهاتفية (كما فعلت الخلايا التي فجرت مركز التجارة العالمية في نيويورك). كما أن زعماء شبكات تهريب المخدرات لا يستخدمون أجهزة الفاكس أو عقد صفقات السلاح عن طريق التليكس.

وعلى الرغم من تلك المتغيرات في اساليب حركات الإرهاب وشبكات تهريب المخدرات وممارستها لأنشطتها المتصاعدة فإن أجهزة المخابرات الغربية لازالت لم تدرك بعد الكيفية التي تدير بها عمليات المواجهة معها وبنفس الفعالية التي ادارت بها معاركها خلال سنوات الحرب الباردة مع الكتلة الشيوعية واجهزة مخابراتها وجيوش العملاء والجواسيس.

وقد كان الاهتمام الأكبر لأجهزة المخابرات الغربية خلال سنوات الحرب الباردة محصور في عمليات جمع المعلومات وبغض النظر عن الازدواجية التي مارست بها تلك العمليات وكالة المخابرات المركزية الأمريكية CIA ووكالة المخابرات الحربية DIA (Defence Intelli- gence Agency-) أو كالة الأمن القومي NSA (National Security Agency-) وغيرها من المنظمات ووكالات التخابر. فقد كانت جميعها تتنافس على جمع المعلومات عن أهداف واحدة قد تكون عسكرية أو إرهابية أو أنشطة تهريب المخدرات ولم تكن في مجموعها تفيد من هذا التنافس بالقدر الصحيح الذي تفرضه تلك الازدواجية وقواعد السرية المحكمة في التعامل مع ما يتوفر منها بين أيدي هذه الأجهزة.

ومع التغيرات الجذرية التي طرأت على عوالم الصمت ومجتمع المخابرات الغربية وما التزمت به طوال الأعوام الأربعين الماضية من فرض ستائر السرية، لم تعد لهذه الالتزامات مكان بعد الآن سوى ما يتعلق بعمليات مكافحة الجاسوسية العسكرية التي لازالت تشكل مخاطرها الأجهزة الروسية والصينية على الأمن القومي للولايات المتحدة الأمريكية. إلا أن المجالات الأخرى التي يطل منها الخطر على الأمن القومي الأمريكي وابرزها تهريب المخدرات وحركات الإرهاب، لا تلقى نفس الاهتمام من اجهزة المخابرات الغربية بسبب الجهل الفاضح بطبيعة اهدافها وانعكاسات مخاطرها المدمرة على المجتمع الامريكي برمته.

والمثير - وفي هذه الآونة - أن معظم المعلومات التي تنشط في جمعها منظمات ووكالات المخابرات الأمريكية لازالت تعتمد على المصادر العلنية (الصحافة - والاصدارات من المطبوعات الحكومية وغيرها) أو عبر العناصر البشرية - (المسؤولين في الحكومات الأجنبية - الصحافة الصادرة في بلادهم - مجموعات الضغط أو اللوبي المعارض) وتبقى نسبة محدودة من

المعلومات يتم جمعها عبر الوسائل التقنية الحديثة (الأقمار الصناعية - مراكز التصنت) و... العملاء والجواسيس.

في الوقت الذي طرح فيه جهاز المخابرات الروسية SVR (Shuzhba Vneshnei Razvedakii) والذي تشكل عقب حل جهاز أمن الدولة السوفييتية السابق KGB أسلوباً جديداً من اساليب العلاقات العامة التي سمحت بافتتاح مكاتب علنية للرد على أسئلة الصحفيين وفتح أرشيف الـ KGB السابق أمام الباحثين ومن يدفعهم حب الاستطلاع الى التردد على قاعاته. ولكن هذا الاسلوب لا يعدو ان يكون ذر الرماد في العيون وكشف ما لا يستأهل الكشف عنه من معلومات قديمة لا قيمة لها.

نفس الأسلوب احجمت عن تطبيقه المخابرات العسكرية الروسية GRU وتشبثت بعدم إجراء أي خفض في اعداد العاملين بها أو تقليص انشطتهم، فلازالت GRU (المخابرات العسكرية)تواصل تجنيدها للعملاء وادارة الشبكات الواسعة للجواسيس داخل المجتمعات الغربية لسرقة الأسرار العسكرية والتكنولوجيا الغربية وبهدف تقديم الدعم الكافي للصناعات العسكرية الروسية ولصناع القرار الجدد في حكومة موسكو.

ومن جانبه حاول رئيس الدولة الروسية بوريس يلتسين أن يحدث بعض المتغيرات داخل أجهزة المخابرات العسكرية في بلاده كي تتلاءم ومعطيات المرحلة الراهنة واطر التعايش السلمي والوفاق مع العالم الغربي إلا أن محاولاته قوبلت بالرفض وطرح استحالة تصديقه لأجهزة المخابرات العسكرية الروسية وبما يخدم سياساته.

كذلك رفض الروس وبإصرار شديد تبادل أي معلومات مع اجهزة المخابرات الغربية حول أنشطة الجماعات الإرهابية أو صفقات السلاح المعقودة بينهم وبين حكومات كل من العراق وليبيا، وتفسير ذلك مرده الى أن مجمل التحولات التي حدثت في بلادهم لم تنجح في تغيير طبيعة نظرتهم الى العالم الخارجي او مصداقية التفاعل والمشاركة مع اجهزة المخابرات الغربية. وكل الذي حدث هو أن رجال الحرس القديم في النظام الشيوعي المنهار واجهزة مخابرات أمن الدولة السوفييتية السابقة KGB استطاعت بعد أن خلعت عن نفسها اقنعة الماضي أن تختفي تحت اقنعة الديمقراطية الجديدة وأن ظلت نفس الوجوه القديمة باقية تحت السطح تمارس انشطتها بالمفاهيم والعقلية الشيوعية التي نشأت وترعرعت خلال 70 عاماً من سيطرة الحزب الشيوعي وكبته لأنفاس 320 مليون مواطن داخل الامبراطورية السوفييتية السابقة.

وفيما سعت كل من الولايات المتحدة الأمريكية، والمانيا، وفرنسا الى محاولات احتواء

زعماء النظام الروسي الجديد الحاكم وإحراج مديرو اجهزة ومنظمات المخابرات بتبادل زيارات الوفود الرسمية معهم والكشف عن قوائم عملائهم السابقين في العواصم الغربية، ظلت بريطانيا الدولة الغربية الوحيدة التي يسيطر عليها هاجس الشك في طبيعة المتغيرات التي حدثت داخل بلدان الكتلة الشرقية وعلى رأسها الاتحاد السوفييتي السابق.

وقد كانت عمليات الكشف الموسع عن برامج انتاج الأسلحة البيولوجية الروسية في الصحافة الغربية تأكيد لسلامة الموقف البريطاني الذي اتخذته من مجمل التغيرات التي وقعت داخل الاتحاد السوفييتي السابق، وحقيقة اقنعة الديمقراطية التي اسرع الزعماء السياسيون في موسكو الى التخفي من ورائها.

على أنه وبعيداً عن تلك الهواجس والشكوك التي اصطبغ بها الموقف البريطاني خلال الأعوام الأربعة الماضية منذ نهاية الحرب الباردة، فقد شهدت بريطانيا وكانعكاس للأحداث الدرامية التي وقعت على الساحة الدولية تغيرات يستحيل تجاهلها في الأجهزة الثلاثة الرئيسية لمخابراتها (جهاز خدمة المخابرات السرية Secret Intelligene Service أو المعروف باسم الـ MI6 والمسؤول عن عمليات الجاسوسية وجمع المعلومات من الخارج ـ وجهاز المخابرات الداخلية Security Service والمعروف باسم الـ MI5 والمسؤول عن مكافحة العمليات الإرهابية وانشطة التجسس في الداخل ـ وجهاز مركز الاتصالات الحكومية Government Communications HQ ـ والمعروف باسم GCHQ في مدينة شلتنهام شمال مقاطعة انجلترا، وبعد صدور تشريعين يضعان أجهزة المخابرات البريطانية ومنذ ديسمبر عام 1992 ولأول مرة في تاريخ اجهزة حروب الصمت في بريطانيا تحت أعين الرقابة البرلمانية، وإتاحة الفرصة النادرة لأجهزة الإعلام والرأي العام البريطاني التعرف عن قرب على اسماء وصور رؤساء أجهزة المخابرات في بلادهم أو الاثنان الرئيسيان على الأقل ستيللا رمنجتون المدير الجديدة لجهاز المخابرات الداخلية MI5 ثم ديفيد سبيدنج (51 عاماً) اصغر من كلف برئاسة جهاز الخدمات السرية الخارجية MI6 وطرحهما كأبرز الشخصيات التي ستتعامل مع المعطيات الجديدة التي افرزتها نهاية الحرب الباردة على الساحتين الداخلية والخارجية.

ويطرح المدير الجديد لجهاز المخابرات البريطانية الخارجية MI6 ديفيد سبيدنج نموذجاً جديداً لرؤساء أجهزة التخابر في بلاده، فهو ينتمي الى الطبقة الوسطى التي وفرت له تعليماً في المدارس الابتدائية والثانوية بمدينة شيربورن Sherborn ثم في جامعة اكسفورد. وعقب التحاقه بالعمل في أجهزة المخابرات ارسل الى معهد شملان في بيروت (مركز دراسات اللغة العربية الذي كان يعد ابرز المراكز التي يتم داخلها تدريب الكوادر الجديدة من الجواسيس

البريطانيين حتى سنوات قريبة عندما تم اغلاقه واستبدل بمركز آخر شبيه في القاهرة).

وتبدو شخصية ديفيد سبيدنج اكثر اهمية عن غيرها من الشخصيات التي تولت رئاسة اخطر أجهزة المخابرات البريطانية من قبل لسببين:

أولهما أنه وهو في الواحدة والخمسين من عمره يعد اصغر من تولى رئاسة هذا الجهاز منذ انشائه في عام 1909 وحمل الحرف الرمزي "C" داخل الهيكل التنظيمي لأجهزة التخابر آنذاك واسندت رئاسته الى اول رئيس تمتع بمكانة اسطورية هو الكوماندور سمث كمنج "Commander Smith Comming" وظلت طبيعة عمل هذا الجهاز وشخصيات العاملين به محاطة بالسرية المحكمة الى ان اعيدت هيكلته وتطعيمه بعناصر شابة تعاملت مع معطيات الأعوام الأخيرة في الحرب الباردة، حيث صعد خلالها ديفيد سبيدنج الى رئاسة القسم "C" بكل ما لهذا القسم (أو الجهاز) من مسؤوليات ومهام وان كانت خلفيته التي تميز بها هي درايته الواسعة وتخصصه في شؤون منطقة الشرق الأوسط وعلى النقيض من رؤساء هذا الجهاز السابقين الذين كانت خلفياتهم إما عسكرية أو تخصص في الشؤون الداخلية للاتحاد السوفييتي.

ومع هذا التغيير الذي حدث داخل جهاز الخدمة السرية MI6 ولم يسبق الإعلان عنه قسم العمل داخله وبنسبة وأوليات انصب الاهتمام فيها على الشئون الداخلية للاتحاد السوفيتي السابق (في الأعوام الأربعة الماضية) وبنسبة 15 في المائة للأوضاع في منطقة الشرق الأوسط، و5 في المائة لكل من الصين وهونج كونج، و4 في المائة للأرجنتين، وتخصيص نسبة 10 ف المائة من اهتمام وأنشطة جهاز المخابرات الخارجية لمكافحة حركات الإهاب، و10في المائة للأوضاع في منطقة يوغوسلافيا القديمة (صربيا وكرواتيا، والبوسنة والهرسك ومونتينجرو ومقدونيا) و5 في المائة لجنوب افريقيا و2 في المائة لليابان و5 في المائة لعمليات مكافحة المخدرات و5 في المائة لغسيل اموال شبكات المخدرات في البنوك الكبرى الغربية.

ويرأس ديفيد سبيدنج حوالي 1850 موظف (يعمل منهم 400 موظف فقط في السفارات البريطانية في الخارج) سوف ينتقلون للعمل في موقعهم الجديد بمنطقة فوكسهول المطل على نهر التايمز (صممه المهندس تيري فاريل وتكلفت عمليات إنشائه 230 مليون جنيه استرليني).

أخطر الجواسيس داخل المخابرات البريطانية

عندما يفتضح أمر العميل... ويطل شبح المطاردة وتحاصره عيون الآخرين، تصبح عملية الهروب قدر ومصير على الجاسوس ان يواجهها ويرتب لها بحذر ومهارة... يرتكبها بنفسه أو ينفذها عنه رؤساؤه، وكلتاهما معاً أقصر المساحات الزمنية التي تشكل آخر مراحل عمله في مسرح الأحداث... وفي أي بقعة من العالم.

وفي بريطانيا حيث تحكم الساحة اقدر وابرع عيون رجال أجهزة المخابرات في العالم، والتي توصف عادة بأنها إحدى أقوى السلطات الستة المتحكمة في مصير احداث التاريخ المعاصر... وهي الملكية البريطانية... والبيت الأبيض... وبنك أوف انجلند... وبنك الاحتياط الفيدرالي الأمريكي... والفاتيكان... ثم جهازي MI5 وM16... فإن هذه الأجهزة البريطانية العريقة السمعة ما كان لها أن تفلت من تحت أعين رجالها عملية هروب كبيرة لاثنين من كبار الدبلوماسيين في وزارة الخارجية... وفي حجم دونالد ماكلين وجاي بيرجيس بالبساطة والسهولة التي تمت بها، وفي ظل وجود شخصية من أقدر رجال المخابرات في تلك الفترة مثل ديك هوايت Dick White رئيس جهاز الخدمة السرية والذي حمل واحد من القاب النبالة فيما بعد تقديراً لكفاءته في العمل الناجح بجهاز المخابرات البريطانية MI5 فيما عدا خطأ تجاهله الفاضح، الاهتمام بتفاصيل ما حدث من وقائع في الليلة السابقة على هروب الدبلوماسي دونالد ماكلين.

وإذا استعرنا من الكاميرا عدسة العرض البطيء للماضي فإن ابرز المشاهد التي يمكن التوقف امامها وتأملها بالتفصيل سنلاحظ فيها كما لاحظ أحد رجال دائرة الهجرة البريطانية ليلة الخامس والعشرين من مايو عام 1951... ليلة الهروب الكبير... الدبلوماسي دونالد ماكلين يتجول في مدينة ساوث هامبتون الساحلية (جنوب انجلترا).

لم تخطئ عيون الرجل المدربة شخصية من يتابعه، كما لم يهمل الاسراع بإبلاغ المسؤولين في الادارة العامة للمخابرات في لندن تليفونيا بملاحظته... وترك اتخاذ القرار لهم.

وعلى الفور صدرت الأوامر لـ «ديك هوايت» رئيس جهاز الخدمة السرية SIS (Secret Intelligence Service) بالطيران الى باريس، وفي محاولة لسباق الزمن يعترض فيها اتمام عملية هروب دونالد ماكلين على الأراضي الفرنسية بعد أن يكون قد نجح جزئياً في عبور الشواطئ الانجليزية اليها وكما كان متوقعاً

... ...

في الطريق الى المطار اكتشف «ديك هوايت» نفاذ مفعول جواز سفره، فهرول مسرعاً الى وزارة الخارجية البريطانية في منطقة الهوايتهول وسط لندن، للحصول على وثيقة سفر بريطانية جديدة. كان عليه أن يوقظ من أجلها الموظفين المسئولين عن استخراج الجوازات، واستدعائهم في عجالة لإنجاز مطلبه ودون ابطاء. ولكن ومع ما استغرقته تلك العملية من وقت كانت ملاحظة رجل دائرة الهجرة التي ابلغ عنها قد تبخرت. وتمكن دونالد ماكلين بالفعل من الاختفاء في مكان ما داخل فرنسا، وقبل مضي 72 ساعة على ما كان مقرر من استدعائه امام رجال المخابرات البريطانية MI5 لاستجوابه.

فقد صعد في تلك الليلة (25 مايو عام 1951) بصحبة رفيقه وزميله في العمل الدبلوماسي الى ظهر احدى العابرات البحرية بقطعان القنال الانجليزي بعيداً عن شطآن ارض الوطن لآخر مرة... والى الأبد!

... ...

في لندن... كان أول ما انعكس من آثار عملية الهروب... وقرارها المفاجئ... والبراعة والبساطة التي تمت بها... وسيل الأخطاء الفادحة التي ارتكبها اكبر مسئول في جهاز الخدمة السرية... وإن لم تكن متعمدة من جانب رجل مثل ديك هوايت. وضياع الوقت في استخراج وثيقة سفر جديدة، إستصداره لقرار آخر... بفصل اقرب اصدقاء الهاربين من منصبه... «كيم فيلبي» كضابط اتصال المخابرات البريطانية في واشنطن... بل وطرده تماماً من اروقة الخدمة السرية البريطانية... وعلى الرغم من عدم توفر اية ادلة لدى اجهزة المخابرات ضد «كيم فيلبي». ولكنه كان قرار احترازي... يستهدف كسب الوقت... وجمع المعلومات... و... اتاحة الفرصة امام رجال المخابرات للقيام بعمليات التصنيف والتحليل... واستخراج ادلة الاتهام المطلوبة للكشف عن الابعاد الحقيقية لعملية الهروب الكبيرة... بسرعة وسرية.

لكن... والمثير أن هذه السرعة والسرية استغرقت من رجال المخابرات البريطانية خمسة أعوام بكاملها. ومنذ اتمام عملية الهروب الكبير، كان فيها اسم كيم فيلبي قد تردد اكثر من مرة كرجل ثالث محتمل في شبكة الجواسيس البريطانية الذين يعملون لحساب المخابرات

السوفييتية (كي جي بي) آنذاك ومن داخل اروقة أعتى اجهزة المخابرات البريطانية.

غير أن وزير الخارجية البريطانية ـ آنذاك ـ السير هارولد ماكميلان في حكومته أنتوني ايدن عام 1956، وبعد اطلاعه على تقارير المخابرات التي تطرح مثل هذه الاحتمالات حول شخصية «كيم فيلبي»، توفرت لديه قناعة ببراءته من أي اتهام اخلى صفحته منه، واكّد لرئيس وزرائه ـ وطبقاً لوثائق وزارة الخارجية السرية ـ بطلان الدعاوى وما تردد من شائعات حول واحد من «اكفأ واخلص رجال اجهزة أمننا!!»

... ...

... ...

المثير ايضاً أنه وقبل ذهاب الحكومة الى البرلمان، والرد على اسئلة وإلحاح اعضائه بكشف فضيحة عمالة كل من دونالد ماكلين وجاي بيرجيس... أمام الرأي العام، ومحاصرة ابعادها والمطالبة بتحقيقات واسعة تستهدف بتر جذور شبكات الجاسوسية برمتها من اروقة اعرق اجهزة الأمن البريطانية، بعث هارولد ماكميلان (وزير الخارجية» بطلب أستشارة رئيس تلك الأجهزة ـ آنذاك ـ سير روجر هوليس Sir Roger Hollis لاعداد تفاصيل الردود المقنعة التي سيواجه بها ماكميلان الحاح اسئلة اعضاء البرلمان.

في المقابل وعقب أن تسلم سير هوليس خطاب وزير الخارجية قام باستدعاء نائبه الجديد جراهام راسل ميتشيل "Graham Russell Michell" وكلّفه بإعداد مثل هذه الردود. خاصة وان «ميتشيل» وقبل ان يتسلم حديثاً منصب نائب رئيس جهاز المخابرات البريطانية MI5 كان يتولى رئاسة اكثرها حساسية... دائرة مكافحة الجاسوسية.... ومن خبرته ودراسته الواسعة لكل ما توفر داخلها من معلومات طوال سنوات عمله بها يعد أقدر من يمكنه احاطة رئيسه ووزير الخارجية والحكومة واعضاء مجلس العموم... و... الأمة البريطانية كلها بالردود العملية المقنعة حول شبكة التجسس السوفييتية وعناصرها، ومن ثم لململة الفضيحة بتصميم جوهر ما عرف واذيع في تلك الفترة باسم الكتاب الأبيض (رقم 9577) لفضيحة دونالد ماكلين وجاي بيرجيس...»

... ...

... ...

في هذا الكتاب وعبر ما تضمنه من معلومات صممها جراهام ميتشيل اكّدت الحكومة (أو ميتشيل في الواقع): «أنه لا يوجد لأي سبب مقنع اشتراك السيد كيم فيلبي في خيانة المصالح الأمنية العليا لهذا البلد!! أو شبهة اتهامه بما تردد من تسميته واطلاق اسم الرجل الثالث عليه! ولسبب واحد، هو انه لا يوجد في هذه القضية (الفضيحة) رجل ثالث!!!

... ...

غير أن هذا الباب الذي أغلق في عام 1956 واستمر احكامه حتى عام 1962 ما لبث أن تسربت من تحت اعقابه الفرصة التي انتظرتها أجهزة المخابرات البريطانية بشغف طوال تلك السنوات. وعندما جمع اللقاء في إحدى حفلات الكوكتيل بمدينة تل أبيب بين اللورد روتشيلد Lord Rothschild (رجل المخابرات السابق في جهاز MI5 اثناء الحرب العالمية الثانية وبين السيدة فلورا سولومون Flora Solomon المدير التنفيذي للمؤسسة المالكة لمحلات ماركس اند سبنسر، والتي سبق لها ان وظفت السيدة «ايلين» الزوجة الثانية لـ «كيم فيلبي» في أحد فروع مؤسستها.

في هذا اللقاء وعبر احاديث الثرثرة بين روتشيلد وفلورا سولومون وفي اطار احدى حفلات الكوكتيل الصهيونية كان من الطبيعي ان يتناول الاثنان بعض وقائع الماضي القريب لأحداث الحرب العالمية الثانية، والتي عرجت بهما على ما أصبح ينشره كيم فيلبي من مقالات معادية لاسرائيل في صحيفة الأوبزرفر البريطانية ومجلة الايكونومست. حيث راحت فلورا سولومون تربط بينها وبين ما تتضمنه ومن محاولات قام بها «فيلبي» معها قبل الحرب للعمل في احدى المنظمات الداعية للسلام؟.

ولأنها قد رفضت تلك المحاولات، ولم تستجب للالحاح الذي واصله فيلبي لفترة طويلة معها، وكف في النهاية فإنها لم تهتم كثيراً واحتفظت بأمر تلك المحاولات طي الكتمان.

وخلصت احاديث الثرثرة بين فلورا ولورد روتشيلد الى القاء شبهة الشك في نوايا كيم فيلبي، بل والى حد وصفه «بالعميل السوفيتي».

وما كانت هذه الشبهات وحتى خلال احاديث تبدو عابرة بين صهيونية عريقة مثلا السيدة فلورا سولومون وبين رجل مخابرات سابق مثل لورد روتشيلد لتمر دون أن يتوقف عندها روتشيلد... يتأمل... ويحلل ما ذكر فيها.

ويسرع حال عودته الى لندن لإبلاغ «ديك هوايت» (رئيس جهاز الخدمة السرية) بتفاصيل ما دار من حيث بينه وبين السيدة سولومون. وكإجراء عادي يقوم به رجال المخابرات

السابقين مع رؤسائهم القدامى حتى وان كان «وايت» في تلك الآونة قد بدأ ترشيحه لشغل منصب رئاسة الفرقة الجوية الملكية الخاصة SAS ولمدة 6 سنوات.

لم يكف لورد روتشيلد عن شكوكه، فقد عادت تتصعد هذه الشكوك مرة اخرى حول فيلبي وعمالته المزدوجة واثناء لقاء دعا اليه لورد روتشيلد من مسكنه بحي الماي فير (وسط لندن) جمع فيه بين سير ديك وايت وفلورا سولومون (التي كانت قد عادت هي الأخرى الى لندن). وبدا مثل هذا اللقاء «كاجتماع» مدبر يكرر فيه لورد روتشيلد على اسماع هوايت وعلى لسان فلورا سولومون مرة أخرى ما سبق وان اسرت به اليه في حفل كوكتيل تل ابيب.

بل الأكثر من هذا... ان مثل هذا الاجتماع قد انتهى بإقناع السيدة فلورا سولومون بالتوقيع على اعتراف سردت فيه «بخط يدها» محاولات كيم فيلبي معها لتجنيدها لإحدى المنظمات الهامة الداعية للسلام»، وقبل الحرب العالمية الثانية، واستعدادها للشهادة ضده في المحكمة اذا تطلب الأمر ذلك. و... عندما يحين الوقت.

ولكن الوقت كان قد حان بالفعل لهؤلاء الساعين الى مواجهة مع «كيم فيلبي» طال انتظارها. كما اسرع سير ديك وايت الى ابلاغ سير روجر ويلس مدير عام جهاز المخابرات البريطانية MI5 بما لديه من معلومات وادلة دامغة كافية لدفع المتهم الى ساحة المحاكمة كجاسوس بريطاني لحساب السوفييت، خاصة في تلك الآونة التي كانت تشهد انعقاد مسلسل من الجلسات السرية لاستعراض انشطة واوضاع جهازي المخابرات (الداخلية) MI5 والفرقة الجوية الملكية الخاصة SAS.

وعلى صعيد آخر كان «كيم فيلبي» في تلك الآونة فيما لو تم اتهامه وتقديمه للمحاكمة يستطيع أن ينفي مزاعم «فلورا سولومون» حول محاولات تجنيدها «لمنظمة السلام» وهو الدليل القوي الذي يمكن أن يقدم به الى المحاكمة، ولكنه ايضاً ورغم فرصته الواسعة في تلك المحاولة الجديدة للايقاع به، كان يدرك ان دوره كعميل سوفييتي قد اسدل عليه الستار، ولم يعد لديه الكثير من المساحة التي يتحرك عليها لمواصلة عمالته.

فضلاً عن ان محاكمة علنية «لكيم فيلبي» في تلك الآونة ما كان لها ان تحقق اغراضها« تقلب مائدة البحث عن اصول الشبكة السوفييتية داخل اروقة المخابرات البريطانية رأساً على عقب، خاصة وانها فيما لو تمت فإنها لن تخدم اغراض رئاسات أجهزة المخابرات الذين سبق لهم اخلاء ساحة كيم فيلبي من شبكة الاتهام قبل سنوات قليلة، وتمت تبرئته من تهمة العمالة كما جاء في الكتاب الأبيض للحكومة البريطانية، رغم فصله من اجهزة المخابرات

البريطانية!

وإزاء صعوبة أجراء مثل هذه المحاكمة وعدم جدوى تحقيقها لأي أغراض، طرح رأى آخر يرى إمكانية حث «كيم فيلبي» على الاعتراف وكشف أعضاء الشبكة السوفيتية داخل المخابرات البريطانية في مقابل وعده بعدم تقديمه للمحاكمة والحصول على نص صريح بهذا من وزير الداخلية ... آنذاك سير هربرت موريسون أو المدعي العام البريطاني، وبهذا تمكن الحكومة وأجهزتها الأمنية من أغلاق ملف فضيحة عمالة وهروب الديبلوماسيين دونالد ماكلين وجاي بيرجيس و... الى الابد. وكذلك اي مزاعم اخرى عن تسلل عملاء المخابرات السوفييتية الى دوائر الهوايتهول واجهزة الأمن البريطانية!!

في تلك الأثناء التي طرحت فيها هذه المقترحات وبينما محاولات الحصول على حصانة تعفي كيم فيلبي من التقديم الى المحاكمة، يتم في سرية مطلقة تكليف احد ضباط الفرقة الجوية الملكية الخاصة SAS ويدعى نيكولاس اليوت Nicholas Elliott بالتوجه الى بيروت ولقاء صديقه القديم كيم فيلبي، ومحاولة الحصول منه على اعتراف صريح بعمالته لحساب السوفييت... و... كشف بقية اسماء زملائه.

ولشدة ما يثير الغرابة أن «نيكولاس إليوت» عندما التقى مع «كيم فيلبي» في بيروت وجد منه ترحيباً شديداً، وبدا كمن كان يتوقع زيارته، الأمر الذي شجع نيكولاس اليوت على شرح تفاصيل مهمته في بيروت. وبينما هو يفعل ذلك يلقي كيم فيلبي بقنبلة التحول عن مواقفه السابقة قبل أعوام، ونفيه العنيد لأي صلة بعمليات التجسس لحساب السوفييت عند استجوابه عنها في اعقاب هروب دونالد ماكلين وجاي بيرجس في أواخر عام 1951 وينهار أمام صديقه القديم «نيكولاس اليوت» ويبدأ في تقديم اعتراف تفصيلي بكافة الأدوار التي لعبها في ساحات حروب الصمت من داخل اروقة المخابرات البريطانية، وفي صيغة اعترافات دامغة انتظرتها الأجهزة البريطانية وكبار المسؤولين في الحكومة وان لم يشر فيها فيلبي الى حلقة هامة، بل من اخطر حلقات الاعتراف المفقود عن اسماء زملائه العملاء السابقين لجهاز المخابرات السوفيتية اثناء دراسته في جامعة كمبردج.

على أن «كيم فيلبي» أخطر جاسوس عرفته الساحة البريطانية قبل ثلاثين عاماً لم ينتهي عند حدود الاعتراف وتسليم الصيد الثمين والسمكة الضخمة لشباك أجهزة المخابرات البريطانية التي احكمت خيوطها لسنوات طويلة.

فالواقع ـ اكد فيما بعد ـ ان المخابرات السوفيتية (كي. جي. بي) كانت تعلم ادق

تفاصيل تلك المحاولات البريطانية مع رجلهم كيم فيلبي، بل كان السوفييت يحكمون السيطرة عليها بحصولهم على معلومات سفر نيكولاس اليوت الى بيروت بهدف الحصول على اعتراف «فيليبي» واعدّت في مقابلها «غطاء مقنع» يقوم بدوره فيه بالشخصية النقيضة الجاهزة للانهيار امام صديقه القديم... وتقديم الاعترافات التي تشبع اهتمام رجال المخابرات البريطانية. ولكنه في نفس الوقت لا يكشف عن اي تفاصيل حول هويات زملائه اعضاء شبكات التجسس السوفيتية داخل اروقة المخابرات البريطانية. كل ذلك كان المستهدف منه اتاحة مساحة كافية من الوقت امام المسؤولين في اجهزة المخابرات السوفيتية لترتيب عملية هروب كيم فيلبي نفسه وبكل حرص، والافلات من الوقوع في شباك «صيادي العملاء» وقبضة المخابرات البريطانية.

... ...

... ...

وإذا كان ذلك صحيحاً... فما هو الدليل على صحته؟؟ ومن أين أمكن لرجال المخابرات السوفيتية الالمام بكل هذه التفاصيل والى حد قياس انفاس المسئولين البريطانيين الذين خططوا للإيقاع بكيم فيلبي؟! ورسم معالم وتفاصيل خطة «نيكولاس اليوت» في بيروت.

يقول المؤرخ العسكري البريطاني وعضو مجلس العموم (المحافظ) روبرت اليسون (نايجل ويست) في كتابه ManHunt (صيد العميل) الصادر عام 1985 عن دار وايدنفيلد ونيكلسون: «كل الأبحاث التي قمت بها لمعرفة الرد على هذه التساؤلات قد أوصلتني في النهاية الى شخصية العميل السوفيتي داخل اروقة المخابرات البريطانية والذي واصل القيام بإحاطة الـ «كي جي بي» KGB أولاً بأول بأدق التفاصيل التي تدور في جهازه وفي مختلف الاجهزة الحكومية البريطانية ولسنوات طويلة. ولم يكن هذا الجاسوس سوى جراهام راسل ميتشيل Graham Russel Michell نائب رئيس جهاز المخابرات البريطانية ـ آنذاك ـ والمدير السابق لدائرة مكافحة الجاسوسية أو الدائرة "C" من جهاز مخابرات MI5.واستناداً إلى حقيقة الصداقة الوطيدة التي ارتبط بها مع كل من الجاسوسين جاي بيرجس، ودونالد ماكلين... والتي ترجمها في ترتيب عملية هروبهما الكبير عندما حلقت ظلال الشبهة حولهما، واقتراب مواجهتهما للاستجواب في عام 1951. بل وكان «ميتشيل» هو نفسه الذي اعد بيان الحكومة البريطانية أمام اعضاء مجلس العموم (البرلمان) في نفس العام، واعد مشروع الكتاب الأبيض حول فضيحة اختفاء ماكلين وبيرجس... وفي النهاية تبرئة صفحة كيم فيلبي من شبهة العمالة.»

ولم يكن غير جراهام ميتشيل ـ كما يقول مؤلف كتاب «صيد العميل»، الذي يمكنه أن يفعل كل هذا ويظل في مأمن من الشك، والاستمتاع بحرية الاقتراب من كبار المسئولين الحكوميين وداخل وزارة الخارجية وحساب ادق انفاس رجالها...

... ...

وفي مرحلة اخرى لاحقة وبعد قرار جراهام ميتشيل المفاجئ التقاعد مبكراً في عام 1963، واستدعائه للاستجواب بعد ذلك بأربعة أعوام في عام 1967، بدا في اجاباته على كافة الاسئلة التي وجهت إليه حول فضيحة هروب الديبلوماسيين دونالد ماكلين وجاي بيرجيس... وبعدها بـ 12 عاماً كيم فيلبي كمن لا يستطيع تذكر أي من التفاصيل. فقد ادعى المرض، وضعف الذاكرة، وطرح الحجج غير المقبولة للتهرب من الإجابات الصحيحة من رجل مخابرات عريق سابق.

... ...

بل لعل اكثر ما يكشف ابعاد شبكة العملاء السوفييت داخل اروقة المخابرات البريطانية أن كثيراً من العناصر التي ضاقت من حولها شبهات العمالة لحساب السوفييت طوال فترة تولي جراهام راسل ميتشيل لنيابة رئاسة جهاز المخابرات MI5 قد أمكن لملمة قضاياها وإسدال ستار من التعتيم المتعمد عليها كذيول حقيقية لفضيحة دونالد ماكلين وجاي بيرجيس الهاربين من اروقة الديبلوماسية البريطانية وداخل اكبر معاقلها في وزارة الخارجية.

والأمثلة على ذلك عديدة منها حالات مثل جورج بليك George Blake الضابط السابق في الفرقة الملكية البريطانية الخاصة SAS وعقب اتهامه بالعمالة لحساب السوفييت، وكذلك الزملاء القدامى لجاي بيرجيس،، ودونالد ماكلين في جامعة كمبردج أثناء سنوات الدراسة جون كيرن كروس وانتوني بلنت... وكلاهما وغيرهما كانوا جزءاً من نسيج شبكة الجاسوسية السوفيتية التي احكم طرحها في الساحة البريطانية بداية من فصول الدراسة بجامعة كمبردج وانتهاء باختراق ارفع المناصب في اجهزة المخابرات البريطانية كالفرقة الجوية الملكية الخاصة ومستشارية الفنون للقصور الملكية.

ولكن كيف تسلل العملاء والجواسيس الى هذه المواقع؟؟ وكيف نشطت جهود رجال المخابرات البريطانية لمكافحتهم وخاصة اثناء سنوات الحرب العالمية الثانية؟؟

... ...

يشير الواقع الى ان هناك العديد من الاسباب التي يعتقد معها ان اجهزة المخابرات البريطانية قد تم اختراقها خلال سنوات الحرب العالمية الثانية. تلك الحقبة التي تم فيها تجنيد الآلاف للعمل كعملاء مزدوجين وبما يخدم الاهداف الاستراتيجية العليا للدولة البريطانية... وفي اكبر عملية تم فيها حشد الجهود والطاقات تحت الاسم الرمزي لهذه العملية «موجات اللهب».

وقد كان معظم الذين تم تجنيدهم من رجال الأعمال الدائمي التردد على موسكو، حيث كانت تنتظرهم عيون رجال الكي جي بي (المخابرات السوفيتية) والتي لم تكن تعوزهم الخبرة أو التدريب، وشباكهم المنصوبة للوافدين الأجانب وفيما يعرف باسم «مصايد العسل».

ويمضي السيناريو التقليدي مع (رجال الأعمال البريطانيين) موجات اللهب بمفاجأة تصوير أياً منهم في اللحظات التي يمارس فيها الجنس مع إحدى العاهرات داخل غرفة فندقه بموسكو. وعقب ان تنتهي عملية التصوير السريعة يبدأ المهاجمون في تهدأة خاطر الضيف البريطاني... وطرد العاهرة ومصحوبة بأقذع الشتائم بدلاً من توجيه الشكر لها على اداء دورها بإتقان متفق عليه مسبقاً مع رؤسائها في وحدة «مصائد العسل» وتشويه السمعة داخل جهاز المخابرات السوفيتية. ثم يتلو ذلك مرحلة مساومة «الزبون» على كتمان الموضوع برمته ولملمة الفضيحة في مقابل خيار تزويدهم بالمعلومات المفيدة التي تتوفر لديه حين عودته الى الغرب او التي تطلب منه والا واجه سيف التهديد بتوزيع عشرات النسخ المصورة التي تجمعه مع العاهرة على افراد عائلته واصدقائه ومعارفه ودور الصحف البريطانية المختلفة... و... قبل عودته!

في مثل تلك المواقف المخجلة عادة، يوافق رجل الأعمال البريطاني على ما يطرحه رجال المخابرات السوفيتية من مطلب وخيار وحيد لا غيره. ويعدهم بتنفيذ كل ما يطلب منه... و«المهم لملمة الفضيحة وإسدال الستار على حكاية اختلاسه بعض الوقت للمتعة مع احدى العاهرات».

غير أنه ما يلبث حين يعود الى لندن حتى يسرع بإبلاغ المخابرات البريطانية وعن طريق الافضاء بكل ما حدث امام احد ضباط مراكز الشرطة المحلية... ولينتظر عدة ايام حتى يتصل به احد رجال المخابرات ويبدأ معه سلسلة من اللقاءات التي تنتهي بتزويده بمعلومات مفصلة داخل مكاتب جهاز المخابرات وحيث يقوم بإرسالها الى موسكو كما وعد.

وقد كان معظم رجال الأعمال يوافقون... بل ويسعدون بما يبدو لهم من جاذبية لعبة الخداع

المحكمة التي لا يعلمها احد غيرهم ورجال المخابرات الذين يلتقون بهم ويعتقدون بعد فترة أنهم قد ارتبطوا معهم بعرى الصداقة الوطيدة.

وإذا كان الكثير من ضحايا «مصائد العسل» يقومون بالإبلاغ عما وقع لهم، فقد كانت هناك عناصر أخرى من «موجات اللهب» لا يقومون بالإبلاغ بما تم معهم في موسكو ويغلقون على السر أبواب الذات. ويبدأ الواحد منهم بالفعل في جمع المعلومات التي تتوفر لديه او يسعى للحصول عليها ليعيد تصديرها الى موسكو وبالوسائل التي حددت له، ويشعر بالفخر تحت وهْم أنه يمثل كياناً مستقلاً داخل وطنه يجهل الآخرون معرفة اسراره، وأنه يتعامل مع دولة كبرى ينتظر رجالها والمسؤولون فيها كل حرف يكتبه أو سطر يخطه!

هذه المجموعة، كانت المخابرات السوفيتية تطلق عليها تسمية «النخبة المختارة» داخل اجهزة مكافحة الجاسوسية في بريطانيا. كما توليهم رعاية خاصة ومتابعة دقيقة لا ينقصها الصبر الطويل والانتظار بما يهمسون به بلا ملل.

أما على جبهة المخابرات البريطانية فقد كانت متابعة العملاء المزدوجين تبدو غير بارعة أو دقيقة... والا كيف امكن للسوفييت زراعة عملائهم ليس داخل انسجة المجتمع البريطاني فحسب... بل وفي ادق مواقع اجهزة تخابره... وأعلى المناصب الـ MI5.

الأمر الذي اعتبر فشلاً ذريعاً من رجالها أو تمكينهم من القاء شباك الجاذبية لأي هاربين من المخابرات السوفيتية نفسها. ودفعهم الى التحول الى بلدان غربية اخرى فيما عدا بريطانية ولسنوات طويلة مضت في اعقاب الحرب العالمية الثانية.

ولم يكن ذلك مجرد تحليل اواستنتاج بقدر ما كان اعترافات قدمها الهاربون السوفييت الى العواصم الغربية للرد على اسباب اختيارهم لها وليس لبريطانيا مثلاً.

كانت اجابات أيا منهم لا تخرج عن علمهم المسبق كما تعرف دوائر أعمالهم السابقة في موسكو بأن اجهزة المخابرات البريطانية مخترقة بالفعل من عملاء السوفييت. وبمعنى آخر لم تكن بريطانيا لهؤلاء الهاربين سوى الجنة المفتقدة لأي أمان.

وبدأت الشكوك في بريطانيا تتصاعد منذ عام 1962 وعندما قام «آرثر مارتن» Arther Martin مدير جهاز مكافحة الجاسوسية بزيارة لواشنطن وإجراء مقابلة مع الهارب السوفييتي «أناتولي جوليتسين» وفي حضور جيفري هنتون Geoffrey Hinton مندوباً عن جهاز الخدمات السرية SIS. اقتنعا في نهايتها وبعد تأمل في التفاصيل العديدة التي

ذكرها «جوليتسين» أن جهاز المخابرات MI5 مخترق من السوفييت ومن الرأس الى أخمص القدم. خاصة وازاء تلك المزاعم التي ذكرها جوليتسين بأنه تمكن مرة واحدة من القاء نظرة داخ القيادة العامة لجهاز المخابرات السوفيتية (كي. جي. بي) في موسكو على بعض «بطاقا التصنيف» المسجلة تحت عنوان «مواد من داخل المخابرات البريطانية».

....

وقاد هذا الزعم الى تقرير كتبه في عام 1957 «بيتر رايت» Peter wright حو احدث الوسائل في ميدان التصنت والكتابة بالحبر السري، وفتح الأقفال، وحل رموز الشفر والتقاط المكالمات الهاتفية دون استخدام اجهزة التسجيل.

وكان من الصعب القاء الشبهة في نقل مثل هذا التقرير من عميل بريطاني آخر مث «سير انتوني بلنت» Sir Anthony Blent ـ لأنه كان قد ترك الخدمة في جهاز المخابرا MI5 منذ فترة طويلة، وكذلك كيم فيلبي الذي كان قد أقصى عن المخابرات في منتصف الخمسينات ولا ايضاً الجاسوس جورج بليك George Blake الذي كـان قـد تم اعـاد استجوابه في سجن وورم وود سكراب Worm Wood Scrub بعد الحكم عليه بالسجن.

وفضلاً عن ما امتلأ به تقرير بيتر رايت من معلومات فنية فقد تضمن كذلك مصاد الأموال التي توفرها الحكومة كميزانية ينفق منها على تكاليف التحاليل، وجمع المعلومات وخلافها... والتي حددت آنذاك بـ 50 ميلون جنيه استرليني في العام، الى جانب مصادر تموي اخرى لتغطية نفقات جهاز المخابرات البريطانية MI5 وحتى تكاليف أعمال صيانة السيارا التابعة للجهاز.

وفضحت بقية أجزاء التقرير ـ الدراسة ـ والتي كان مجرد وقوعها بين ايدي السوفييت ادق اسرار جهاز MI5 والخدمات السرية.

في البداية تم ارسال هذا التقرير بعد الانتهاء من اعداده الى اثنين من كبار المسئولين في جهاز المخابرات البريطانية. ولم يكن هؤلاء غير مدير عام الجهاز سير روجر ويلس Roger Hollis ونائبه جراهام راسل ميتشيل Graham Mitchell. وكأنما لم تكن تلك شبهة كافية لأي من الرجلين يمكنه ان يتسلل التقرير من بين يديه الى السوفييت.

وكلما تأمل ارثر مارتن في مزاعم الهارب السوفييتي الى واشنطن اناتولي جوليستين كلما تأكدت لديه الشكوك باختراق جهاز المخابرات في بلاده ببراعة ودقة من عملاء

السوفييت... داخله وليس من خارجه. بل انه عندما استعاد وقائع عملية القاء القبض على جوردون لونسديل Gordon Lonsdale أحد افراد شبكة جواسيس بورتلاند، فإن اول رد فعل للمقبوض عليه عقب ايداعه الاعتقال رهن الاستجواب كان تساؤله عن اسباب تأخر رجال الشرطة في القاء القبض عليه حتى ذلك الوقت. رغم أنه كان يتوقع القاء القبض عليه منذ فترة طويلة!

وهناك عامل آخر كان اكثر اثارة هو تغير الشفرة السرية التي يبث بها السوفييت عقب القاء القبض عليه وتفتيش مسكنه بأيام؟؟ فهل كان يعلم السوفييت بأن رموز شفرتهم قد تم حلها؟؟ ـ بالتأكيد كانوا يعلمون ذلك. ويعلمون أيضاً عن ساعات العمل الطويلة المضنية التي استغرقها عمل رجل مركز الاتصالات الحكومية GCHQ (Government Communi-cation Head Quarter) في شيلتنهام حتى تمكنوا من حلها.

غير أنه كانت هناك وفي حالة جاسوس بريطاني آخر عرفت قضيته باسم فاسال Vas-sall وجهة نظر اخرى ترى ان المعلومات التي سربها عن الاسرار الذرية لم تكن بذات القيمة التي تقابل جهد السوفييت في تجنيده واستغلال نقطة ضعفه واصابته بالشذوذ الجنسي. اولاً: لأنه لم يكن من بين الأشخاص الذين يستطيعون الاطلاع على هذه الأسرار، وثانياً وهو الأهم هو ان السوفييت كانوا يعتمدون في تدفق المعلومات عليهم من عميل آخر يعمل بالتوازي مع «فاسال». وهذا ما أمكن لرجال المخابرات البريطانية الشك فيه عقب قيامهم بجلسات استجواب طويلة مع فاسال في سجنه عام 1962. ومن خلفية المعلومات التي أدلي بها الهارب السوفيتي «جولستين» في واشنطن وتأكيده الاطلاع على بطاقات سرية داخل مقر القيادة العامة للمخابرات السوفيتية في موسكو وتحتوي على معلومات دقيقة عن البحرية الملكية البريطانية وغواصاتها النووية!

....

وقد كانت أكثر عمليات الاثارة في حمى الحرب الباردة التي دارت بين السوفييت والمعسكر الغربي في مطلع الخمسينات، هي عملية هروب رجل موسكو «بيتروف» والتي وقعت احداثها في استراليا في شهر إبريل عام 1954 بعد أن أغراه رجال المخابرات الاسترالية على اللجوء الى الغرب.

وعندما وافق أصرّت زوجته «ايفيدوكيا» على اصطحابه، وكان كلا الزوجان يعملان كضباط بالمخابرات السوفيتية. وعملية اصطيادهما من جانب الغرب كانت تمثل قيمة ثمينة

ليس للاستراليين فحسب بل للغرب كله. وان كانت عملية هروبهما اقتربت من نهايتها بما يشبه الكارثة.

فقد وصل فجأة الى مدينة سيدني باستراليا اثنان من رجال المخابرات السوفيتية مكلفين بمهمة محددة... تبدأ وتنتهي باصطحاب «فلاديمير بتروف» وزوجته «ايفيدوكيا» في طريق العودة الى موسكو...

...

مرة أخرى... ومن حدث كهذا ما كان لرجال المخابرات السوفييت التعجيل بإرسال رجليهم وراء بتروف وزوجته لولا أن انباء اعتزامهما اللجوء الى الغرب كانت قد تسربت اليهم من أعلى المصادر في اجهزة المخابرات الغربية نفسها!

وطبقاً للتحريات التي قام بها «آرثر مارتن» فقد كانت كل هذه المعلومات تصب بين يدي روجر ويلس ونائبه جراهام ميتشيل في لندن... ولا أحد غيرهما بعيداً عن رجال المخابرات الاسترالية كان يعلم بعزم بتروف وزوجته اللجوء الى الغرب.

... ...

مرة ثالثة، عندما قام «آرثر مارتن» بمراجعة اسباب اخفاق المخابرات البريطانية في التوصل الى اهدافها من زرع ميكروفونات التنصت داخل جدران القنصلية السوفيتية في لندن، وفي واحدة من العمليات التي اطلق عليها عملية «كويار» Choir وفي بداية مرحلة تعميم استخدام أحدث المعدات الفنية في مثل تلك العمليات وعلى ضوء الترجمة العملية للدراسة التي اعدها ضابط المخابرات البريطانية (السابق) بيتر رايت.

اكتشف «مارتن» الغاء القنصلية السوفيتية استعمال الغرفة التي جهزت جدرانها بميكوفونات التنصت بعد زرعها مباشرة. وكأنما كان السوفييت يعلمون ـ وهم بالفعل كذلك ـ بحقيقة ما حدث لجدران قنصليتهم، والآذان المرهفة السمع التي تسللت داخلها.

ويتوالى توجيه لطمات الاخفاق للمخابرات البريطانية، ويفلح ذكاء رجال الـ كي جي بي في أوتاوا بكندا. فبعد تنفيذ عملية شبيهة تجهز فيها السفارة السوفيتية وجدرانها بأحدث المعدات الفنية التي أشرف على تركيبها ضابط المخابرات البريطاني بيتر رايت يفاجئ الجميع ذات صباح باندلاع حريق في المباني الرئيسية للسفارة ويحولها الى حطام ورماد خلال ساعات.

وقضي عدة اسابيع يتم فيها اختيار الموقع الجديد لإنشاء مبان أخرى للسفارة السوفيتية، وتتمكن مرة اخرى المخابرات الكندية وايضاً بالتعاون مع بيتر رايت من زرع جدرانها بالميكروفونات الفائقة الحساسية. وما أن يتمّ افتتاح السفارة للعمل، واستقبال موظفيها حتى يُكتشف انتقال مجموعة رجال المخابرات السوفييت من داخلها الى العمل في موقع آخر بعيد تماماً عن المنشآت الجديدة وكأنهم ـ وكانوا بالفعل ـ يعلمون تماماً عن مواقع الجدران التي تمت زراعتها بأحدث ميكروفونات التنصت.

وقد كان المنطق الوحيد الذي يقيِّم مثل تلك الأحداث لا يخرج عن كونها ترجمة صادقة تعلن عن تسرب العملاء داخل اروقة أجهزة المخابرات البريطانية والكندية ويقومون بإحاطة اجهزة السوفييت اولاً بأول بما يتم اتخاذه من اجراءات في حرب الصمت الدائرة بين أجهزة مكافحة الجاسوسية البريطانية وبين السوفييت.

ولا تخرج هذه «الإحاطة» او «الإبلاغ» أو أي تسمية اخرى عن مفهوم «الخيانة» من الرجال الذين يحتلون ارفع المناصب داخل اروقة المخابرات البريطانية.

ومن هذا التفسير المنطقي الذي توصل اليه «ارثر مارتن» (رئيس دائرة مكافحة الجاسوسية) وشكه الذي يكاد أن يصل الى مرتبة اليقين بوجود العملاء السوفييت داخل المخابرات البريطانية ترد اليهم مسئولية اخفاق رجالها في جميع عملياتهم، بدأ «مارتن» في الإعداد لواحدة من ادق العمليات التي اطلق عليها الاسم الرمزي «عملية صيد العميل» "Mollhunt".

وحصر مارتن مجال شكه في اربعة من كبار المسئولين في اجهزة المخابرات البريطانية وحددهم بمدير الفرع D في هذه الأجهزة وهم مالكولم كمنج (Malcalm Comming) وجراهام ميتشيل Graham Michell نائب مدير عام جهاز المخابرات MI5، بل ومدير عام الجهاز نفسه روجر ويلس Roger Hollis... ومساعدة آرثر مارتن «ايفلين ماك بارنت Evellen Mc Barnet». واكد في تحليله انه اذا كان هناك من ساعد العميل الثالث «كيم فيلبي» في الانضمام الى فضيحة هرب الديبلوماسيين دونالد ماكلين وجاي بيرجيس، فلا بد وان يكون واحد من هؤلاء الأربعة داخل رئاسة المخابرات البريطانية.

غير أن آرثر مارتن سرعان ما استبعد من قائمة الشك اسم «مالكولم كمنج» لبعده عن الاطلاع على اي اسرار ذات قيمة تتوفر لرئاسة اجهزة المخابرات، بالاضافة الى ان شخصيته الرصينة وانطوائه على نفسه بعيداً عن اي صداقات سواء مع العاملين داخل المخابرات او

خارجها كانت كلها عوامل اكدت «لمارتن» انه ليس من ذلك النوع الذي يهتم بالسعي الى معرفة ما لا يتاح له من العمل فضلاً عن انه كان بعيداً كذلك عن كافة العمليات التي قام بها رجال المخابرات البريطانية وحالفهم فيها الاخفاق.

ولم يبق امام «مارتن» سوى الرأسين الكبيرين... سير روجر ويليس مدير عام الجهاز، ونائبه جراهام ميتشيل، وان كان الأخير يتمتع بنسب ذكاء اعلى دفعته ومنذ سنوات طويلة الى الانضمام لعضوية مركز ابحاث حزب المحافظين الذي كان تحت رئاسة السير جوزيف بول Sir Joseph Ball. الأمر الذي اتاح له الاطلاع على ما يتوفر داخل هذا المركز من معلومات والاقتراب من المواد الخام لصناع القرار على مستوى الدولة البريطانية وفي مقابل منح «السير بول» نفسه منصباً رفيعاً داخل اجهزة المخابرات.

... ...

... ...

وكان ميتشيل قد التحق بأجهزة المخابرات البريطانية في شهر نوفمبر عام 1939، ضابطاً صغيراً ينحصر عمله في التركيز على متابعة انشطة المتطرفين الفاشيست، وعبر الوحدة "F". وقد كان لنشاطه وجهوده الملحوظة في هذا المجال فضل اكتسابه للسمعة الجيدة، وان تناثرت الهمسات عنه كصاحب ميول يسارية!!

وظل طوال سنوات الحرب العالمية الثانية وحتى عام 1956 يتولى رئاسة الفرع "D" الذي اتاح له الاطلاع على ادق المعلومات واكثرها حساسية عن «العمليات المضادة للسوفييت».

ومن هذا الموقع وطبيعة عمله به، وعوامل اخرى في شخصيته لم يكن هناك مفر امام «آرثر مارتن» من وضعه موضع الشك.

أما روجر ويلس Roger Hollis فقد كان قد انضم الى العمل بالمخابرات البريطانية MI5 في عام 1938 حيث التحق مباشرة بالفرع "F" وركز جهوده على مراقبة ومتابعة انشطة المتطرفين اليساريين بما في ذلك اعضاء الحزب الشيوعي البريطاني "British Communist Party".

وعلى الرغم من أن «ويلس» >«ميتشيل» كان كل منهما يتابع ويراقب انشطة اجنحة متعارضة الا ان الرجلين عملا معاً في تعاون وثيقة طوال سنوات الحرب العالمية الثانية، والتي

ما ان انتهت حتى تم ترقية «ويلس» الى منصب نائب المدير العام والمسئول عن الفرع "F" داخل جهاز المخابرات MI5 في الوقت الذي اسند الى ميتشيل منصب نائبه.

غير انهما بعد ذلك ما لبثا ان ابتعدا في العمل عقب انتقال ويلس الى الفرع "C" او الجهاز الاستشاري داخل المخابرات. في الوقت الذي اصبح فيه ميتشيل يتولى رئاسة الفرع "D" أو فرع النخبة بالمخابرات، والى ان وقعت نقطة التحول في مستقبل «ويلس» في شهر نوفمبر عام 1952، عندما أحيل الى التقاعد «جاي ليدل» "Guy Liddell" نائب مدير عام اجهزة الخدمة السرية SIS.

كان روجر ويلس في ذلك الوقت يناهز الستين من عمره ويدرك جيداً انه لا امل لديه في خلافة «السير بيرسي سيليتو Sir Percy Sillitoe في منصب المدير العام.

في تلك الاثناء تم انتداب «ويلس» ليرأس جاز الأمن في وكالة الطاقة النووية البريطانية، كما تمت ترقية «ديك وايت» الذي كان يدير فرع مكافحة الجاسوسية داخل جهاز المخابرات منذ عام 1946 الى الحلول محل «جاي ليدل» في منصبه كنائب مدير عام أجهزة الخدمة السرية، ثم مديراً عاماً في عام 1953، وليعين روجر ويلس نائباً له.

وقد كان اختيار «ديك وايت» اختياراً غير عادياً «لويلس»، نظراً لافتقاده للخبرة العملية الكافية في ادق فروع المخابرات واهمها، بل واكثرها حساسية «فرع مكافحة الجاسوسية». فقد كان قد تخصص ومن واقع تجربته العملية في مراقبة ومتابعة انشطة اعضاء اجنحة اليسار السياسي خلال الحرب العالميةالثانية. وعندما انتهت وانتقل الى الفرع "C" لم يكن ذا فعالية كافية خاصة وعندما غاب عن انتباهه الالتفاتة الى ما جاء في التقارير الكندية الخاصة بـ «جويزينكو» Gouzenko عام 1945 (احد اللاجئين السوفييت) واشار فيها بطرق غير مباشرة الى ما اسماهم بالعملاء داخل اجهزة المخابرات البريطانية.

بالاضافة الى دوره المحدود في الجهاز الاستشاري ومتابعة عمله به كضابط اتصال مع اجهزة الأمن الاسترالية ومنظمة مخابراتها AS10 في عام 1948.

اما «جويزينكو» اللاجئ السوفيتي الى كندا فقد فجر قنبلة اعترافات رغم ما فيها من تفاصيل الا انها لم تلفت انتباه «ويلس» سوى ما ورد فيها عن اثنين من البريطانيين يحتلان مواقع بارزة في قائمة الجواسيس. واشار اليها «تقرير جويزينكو» النهائي باسمي «اليك» Alek و«ايلي» Ellis. ولم يكن اولهما سوى الدكتور الن نان Dr. Alan Nunn أحد

اشهر علماء الطبيعة من خريجي جامعة كمبردج. هاجر الى كندا واستطاع في مونتريال ان يتسلل الى موقع حساس في وكالة الطاقة النووية، سهل له الحصول على مجموعة من الاسرار الهامة.

اما «أيلي» فقد كان كاي ويلشر Key Willsher سكرتير المندوب السامي البريطاني في كندا مالكولم ماكدونالد Malcolm McDonald. وعقب اتهامهما بالجاسوسية لحساب السوفييت في عام 1945 ثم القاء القبض عليهما في شهر مارس من نفس العام وصدر الحكم باعدامهما بتهمة الخيانة العظمى، وافشاء الاسرار النووية الكندية لمخابرات الاعداء (السوفييت).

هل كان يكفي لهذه المعلومات الواردة في التقرير الخاص باللاجئ السوفيتي «جويزينكو» أن تلفت مزيداً من انتباه روجر ويلس؟ وهل كانت توقظه فيه دوافع الشك في وجود زملاء آخرين لأليك وايلي لازالوا لم يكشف عنهم بعد؟؟

الواقع ان ذلك مر امام عينيه، وانتهى بانتهاء قراءة سطور الملف وحفظه. اما عن طبيعة عمله كضابط اتصال مع المخابرات الاسترالية فقد كانت ممارسته له مصطبغة بالروتينية وتقارير الاحاطة حول العمليات النشطة التي تقوم بها وكالتها الوليدة في سيدني.

وكان قرار انشاء منظمة للمخابرات في استراليا قد اتخذه رئيس وزرائها (العمالي) جوزيف شيفلي Joseph Shieffly سراً وبعد أن تأكد لعلمه أن السوفييت قد بدأوا يمارسون جهوداً مكثفة في مجال الجاسوسية داخل استراليا وعن طريق رجال الـ «كي جي بي» KGB داخل مكاتب البعثة السوفيتية في مدينة كانبيرا.

... ...

... ...

في مواجهة هذا الخطر الداهم اتخذ رئيس الوزراء الاسترالي قراره بتنفيذ عمليات اطلق عليها في البداية الاسم الرمزي «فينونا» Venona - كي تتبلور وتصبح نموذجاً شبيهاً بمنظمة المخابرات البريطانية MI5 - وعلى ايدي الرجال المعاونين لـ «روجر ويلس» والذي ما لبث ان قفز في لندن الى واحد من المناصب الستة القيادية للادارة العامة لجهاز المخابرات في بلاده «كخبير في مكافحة اعمال التجسس السوفيتي» وعقب ذلك بأربعة أعوام.

في تلك الاثناء كانت شكوك «آرثر مارتن» رئيس جهاز الخدمة السرية SIS تتصاعد

وتؤكد احتمال واحد لا يرقى اليه الشك في وجود «عملاء عتاة» داخل المخابرات البريطانية، وبعد أن تولدت لديه قناعة كافية ومن خلال الأدلة التي قدمها اللاجئ السوفيتي لكندا «جويزينكو». وكذلك الحدث الذي شهده مطار سيدني وكشفت وقائعه ذلك التحرك السريع من رجال المخابرات السوفيتية لإحباط عملية هروب ضابط المخابرات «بتروف وزوجته»... وما كان لهم ان يقدموا على ذلك لولا درايتهم الدقيقة والتفصيلية من احد المصادر في اجهزة المخابرات الغربية والتي لا يرقى اليها الشك. وان تلك المصادر لا تخرج عن واحد من اثنين «روجر ويلس» أو «جراهام ميتشيل»!. أ و هما معاً.

غير أن «آرثر مارتن» عندما ذهب ليلقي بشكوكه امام رئيسه «ديك وايت» انتهى الاثنان الى تضييق الخناق ودوائر الشك حول «جراهام ميتشيل» وكانت لديهما الأسباب المقنعة لذلك. كما وجدا من «روجر ويلس» عندما علم بشكوكهما تأييداً للتحليل المقدم من مارتن. وطلب منه تأجيل مناقشة الموضوع برمته لعدة أيام... عادا بعدها الى عقد اجتماع سري في مسكن روجر ويلس في كامدن هيل سكوير Camden Hill Square (غرب لندن) حضره آرثر ماتن، ومارتن فيرنيفال جونز - Martin Fernival Jones. حيث كرر فيه آرثر تحليله السابق عن شكوكه في جراهام ميتشيل. واتفق المجتمعون الثلاثة في نهاية مؤتمرهم السري على بدء ارثر ماتن عملية مكثفة وسرية للتحري عن ميتشيل وتقديم تقاريره الى مارتن فيرنيفال جونز (والذي خلف مالكولم كمنع في منصب مدير عام احدى الادارات الستة للمخابرات البريطانية فيما بعد) وعلى ان تحمل عملية التحري اسماً رمزياً يشار فيه الى اسم جراهام ميتشيل باسم بيتر Peter.

وفي نهاية شهر مايو عام 1963 ضمّن ارثر مارتن واحداً من تقاريره الى «فيرنيفال جونز» عدة ملاحظات هامة عن سلوك جراهام ميتشيل والتي اثارت مزيداً من الشكوك.

فقد كان ميتشيل يقيم في منزل بقرية كوبهام كومون Cobham Common ويرحل اليها من محطة قطارات «ووترلو» في لندن كل مساء. ولا يهتم طوال الطريق من مكتبه الى محطة القطارات بالتزام الحرص في متابعة او التقاء اي من الاشخاص المحتمل لقائهم. كما كان يميل حال وصوله الى منزله للاغراق في الشراب وحده.

وتساءل مارتن امام هاتين الملاحظتين عن اين؟ ومتى؟ يمكن لرجل بارع الذكاء مثل جراهام ميتشيل أن يلتقي بهمزة الوصل التي تحمل تقاريره الى المخابرات السوفيتية؟؟ وازاء هذا السؤال طلب مارتن من «فيرنيفال جونز» ان يزوده بالمساعدة وتخصيص مجموعة من

المراقبين الذين استخدمهم من الفرع "D" وتحت قيادة احد الضباط الشبان ويدعى «رونالد سيموندس» Ronald Symonds لاحكام الرقابة والمتابعة لكافة تحركات جراهام ميتشيل.

و... تدعيم جهد هذه المجموعة بالخبرة الفنية لاثنين آخرين من ضباط الجهاز هما «هيو وينتربورن Hugh Winterborn وبيتر رايت Peter Wright... وتحت اشراف رئيس فرع العمليات الفنية دكتور هيكتور والاس ومشاركة الجميع في وضع جراهام ميتشيل تحت المراقبة طوال الأربعة والعشرين ساعة يومياً.

... ...

... ...

ولأن «بيتر رايت» كان احد الفنيين الذين انتدبوا للانضمام لهذه المجموعة من فرع الاليكترونيات بشركة «ماركوني» في «شيلمسفورد» فقد أبدى «روجر ويلس» عدم ارتياحه من استخدام عناصر من خارج اجهزة المخابرات. كما كان كذلك حريصاً على عدم الاتصال بأياً من وزير الداخلية ـ آنذاك ـ هنري بروك Henry Brook أو رئيس الوزراء «هارولد ماكميلان» للتصريح له بتسجيل المكالمات الهاتفية في منزل جراهام ميتشيل، وكما كان يصر على ذلك «بيتر رايت».

بالإضافة الى ان الدائرة الهندسية في هيئة البريد كانت ترفض زرع اجهزة التسجيل في اي مسكن وبناء على طلب المخابرات دون حصولها مسبقاً على اذن من وزير الداخلية بذلك.

... ...

وازاء هذه العوامل اخطرت المجموعة المشكلة لصيد العميل الى زرع اجهزتها ومعداتها الفنية داخل مكتب «جراهام ميتشيل» مع تثبيت دائرة تليفزيونية مغلقة خلف احدى المرايا المعلقة على الجانب الداخلي لباب مكتب ميتشيل وحتى تحكم الرقابة الصوتية والمرئية عليه طوال بقائه داخل مكتبه في الطابق السادس من مبنى الادارة العامة لمخابرات MI5.

ولم تكن عيون جراهام ميتشيل وخبرته العريقة وذكائه البارع لتخطئ الانتباه الى كل ذلك. فقد اكتشف الرجل مبكراً تفاصيل ما كان يدبر من اجله. وان لم يفقد ثباته. كل الذي قاوم به عملية «بيتر» ومجموعة «صيد العميل» ومعداتهم الفنية هو تقديم طلبه بالتقاعد المبكر!!

وقد أثار ذلك عديد من علامات الاستفهام والتساؤل حول سعيه الى التقاعد وقبل ان

يبلغ سن الستين في شهر نوفمبر عام 1965، ولكن ميتشيل لم يقدم في طلبه اي تفسيرات.

وازاء افتقاد «روجر ويلس» لاي خيار امام رغبة نائبه جراهام ميتشيل، وافق على طلب احالته الى التقاعد في 6 سبتمبر عام 1963، وعقب مضي 24 عاماً على عمله داخل اروقة المخابرات. وان كان ذلك الخيار من «ويلس» قد احدث ما يشبه الشلل لعملية «صيد العميل» او عملية «بيتر» كلها. الأمر الذي لم يخالج الشك ايا من جميع اعضاء شبكة مراقبة «العميل» في ان مدير الجهاز «روجر ويلس» سعد في قرارة نفسه لاتخاذه هذا القرار وحتى يتجنب تفجير موقف داخل جهازه لا يرغب له ان يقع بأي حال من الاحوال.

بل إن رائحة الشبهات قد بدأت تحيط بروجر ويلس (مدير المخابرات) نفسه بأنه قد قام باحاطة نائبه ميتشيل وفي فترة مبكرة بطبيعة وابعاد ما يدبر له داخل جاز مخابرات الـ MI5.

وبدأت المجموعة المشكلة لاصطياد العميل «مجموعة بيتر» تدرك ضيق المسافة الزمنية التي تتحرك عليها وصولاً الى الرأس التي طال انتظارهم اقتناصها (جراهام ميتشيل) وانه لم يعد لديهم كثيراً من الوقت لاعداد خطة سريعة لاستجوابه، والتحقيق معه كعضو في جهاز المخابرات وقبل مغادرته له... ولآخر مرة.

في الوقت الذي لم تكن فيه لـ «روجر ويلس» مدير عام الجهاز اي رغبة في التعجيل بمثل ذلك التحقيق او ابلاغ كل من وزير الداخلية ـ آنذاك ـ هربرت بروك او رئيس الوزراء هارولد ماكميلان بوقائع وتفاصيل خطة «صيد العميل» الدائرة على قدم وساق داخل اروقة جهازه وكان له من الأسباب الخاصة والعامة في رفضه احداث اي نوع من انواع الفرقعة التي لا يحسب حسابها بدقة.

وقد كانت بريطانيا في شهر مارس عام 1962 قد شهدت بداية سقوط اول العملاء «جورج بليك» George Blake ومحاكمته والحكم عليه بالسجن سنوات طويلة لاتهامه بخيانة وتهريب اسرار اجهزة المخابرات البريطانية الى المخابرات السوفيتية كي جي بي KGB.

وما ان حل شهر سبتمبر من نفس العام (1962) حتى كان الجاسوس البريطاني جون فاسال John Vassall قد سقط هو الآخر في قبضة رجال المخابرات، والقي القبض عليه قبل ثلاثة اشهر من سقوط عميلة ثالثة هي «باربارة فيل» Barbara Fell في شهر ديسمبر من نفس العام، والحكم عليها بالسجن ايضاً سنوات طويلة بتهمة إفشائها لمجموعة من الاسرار الخطيرة ومن داخل المخابرات الى عشيقها اليوغوسلافي.

... ...

... ...

في ابريل عام 1963 تتوقف أعين الكاميرات عن عرضها البطيء للأحداث على الساحة البريطانية لتشهد نشر سطور ملف قضية جون فاسال والأحكام الصادرة فيها من «اللورد رادكليف».

كما سجل مطلع شهر يونيو تشكيل لجنة برئاسة لورد دانج لتقص الحقائق في احداث الفضائح التي انفجرت في تلك الفترة وعرفت ابرزها بفضيحة ,بروفيميو Profumo (وزير الدفاع) وعلاقته بالعاهرة كريستين كيلر!.

وبدت الساحة البريطانية وكأنما قد اجتاحتها رياح الجاسوسية وتفجر قضايا الجواسيس، بالإضافة الى المتاعب الداخلية التي كان يواجهها مدير عام جهاز المخابرات MI5 عقب هروب كيم فيلبي في نفس الفترة (آخر يناير عام 1963)، وتمثيلية تطوعه للاعتراف في بيروت بأدوار عمالته في مقابل اعفائه من التقديم الى المحاكمة.

الى جانب محاولة سير روجر ويلس (مدير عام المخابرات) اسدال ستار من التعتيم على الدور الذي قام به احد ضباط جهازه (كيث واجستاف Keith Wagstaffe) في تجنيد احد العملاء، ستيفن وارد (Stephen Word) لجمع المعلومات طوال ثلاثة سنوات عن وزير الدفاع صاحب الفضيحة «جون بروفيميو» وكيف قام هذا العميل بلعب الدور الرئيسي في ملمة الفضيحة وتفاصيل ممارسات العهر والتجسس طوال هذه الفترة والى ان اقدم فجأة على الانتحار في الثالث من اغسطس عام 1963.

في ذلك الوقت كان «اللورد دانج» قد بدأ بالفعل في جمع معلوماته، والاستماع الى شهادات عديدة، والقيام بزيارتين الى ليكونفيلد هاوس - Leconfield House للقاء كل من سير روجر ويلس وجراهام ميتشيل وضابط المخابرات كيث واجستاف.

في تلك الآونة ايضاً شهد جهاز المخابرات البريطانية MI5 صيغة من صيغ التمرد الذي قامت به مجموعة صيد العميل (المجموعة بيتر Peter) ضد رئيسهم سير روجر ويلس، بسبب الاحباط الذي استشعروه من تصديه لفرملة اندفاعهم نحو رأس الأفعى جراهام ميتشيل.

وما ان تسربت معلومات ذلك الاستياء الى آرثر مارتن حتى قام بإبلاغ مارتن فيرنفال جونز، وهدده بإنه ما لم يمنح الصلاحيات الكافية لتهدئة خواطر أعضاء «مجموعة صيد العميل»

والسماح لهم بزرع اجهزتهم داخل مسكن جراهام ميتشيل وتسجيل مكالماته الهاتفية فإنه لن يتورع عن تخليه عن قيادة وتنفيذ العملية برمتها.

وعقب ان تشاور «فيرنيفال جونز» مع سير روجر ويلس، قام الأخير بإبلاغ رئيس الوزراء، واضطراره الى طلب الحصول على الموافقة لتسجيل المكالمات الهاتفية في مسكن جراهام ميتشيل واستكمال لبقية تفاصيل عمليات المتابعة الدقيقة التي تقوم بها مجموعة صيد العميل.

ومع مطلع شهر اغسطس من نفس العام كانت مراحل تنفيذ عملية صيد العميل قد قطعت اشواطاً بعيدة في تضييق الخناق على جراهام ميتشيل، الأمر الذي وصفه احد الرجال الذين شاركوا فيها بقوله: «لم يعد لأي منا ادنى شك في ان جراهام ميشيل هو رأس الأفعى، واكبر جواسيس الشبكة السوفيتية داخل اجهزة المخابرات البريطانية!!. وعبر كافة الأدلة والمعلومات التي امتلأ بها ملف مراقبته، سواء من دفاعه الحار عن تبرئه «كيم فيلبي» من شبهة اتهامه بالرجل الثالث في عام 1951 وعقب هروب الدبيلوماسيين دونالد ماكلين وجاي بيرجيس، ثم عودته لاخلاء ساحته من الاتهام مرة اخرى في عام 1955، وتعميمه مشروع الكتاب الأبيض المليء بحشد من الأكاذيب البارعة.. واسداله الستار الكثيف على شبهات احاطت بالعديد من العملاء، الذين كانت تكفي عمليات تقديمهم الى المحاكمة في فترات مبكرة للكشف عن ابعاد شبكة التجسس السوفيتية في مهدها».

بل ان السكرتير السابق لجراهام ميتشيل عندما تم استجوابه قدم مجموعة من الاعترافات المذهلة، عن كيفية قيامه بتنفيذ اوامر ميشيل وتزييف التقارير الخاصة بعدد من الذين احاطتهم شبهات العمالة لحساب السوفييت، وبالطريقة التي تبدو بها وكأنها «تقارير محايدة لا تستهدف سوى كشف الحقائق والبعد عن مهاترات التهويل او دفع الأبرياء الى غياهب الاتهام!!

... ...

كل هذه الصفحات من تضييق الخناق على «جراهام ميتشيل» لم تدع له من خيار سوى مواجهتها بالدفاع عن نفسه وتقديم الأدلة المقنعة على بطلان التفسيرات التي اخذت على قراراته السابقة ومسلكه، او الإذعان الى قبول الاعتراف التفصيلي بخيانته وعمالته طوال سنوات الخدمة الـ 24 داخل اروقة المخابرات البريطانية ولصالح السوفييت!

على أن المسألة لم تكن بهذه البساطة فـ «جراهام ميتشيل» لم يكن بالعميل العادي الذي تنحصر مهمته في تهريب حجم محدود من المعلومات الي سادته في موسكو لقاء اجر موعود، او الاغراق في الهدايا الفاخرة او رحلات الاسترخاء على شواطئ المتعة. تلك المغريات التي يتطلع اليها صغار العملاء ويسحقون عظامهم من اجل الحصول عليها ولو كلفهم ذلك اعمارهم.

كما لم يكن جراهام ميتشيل نائب رئيس جهاز المخابرات البريطانية في حجم كيم فيلبي المحدود بالقياس الى ما يمثله ميتشيل من ابرز مواقع مراكز القوى داخل المجتمع البريطاني. ولا يدانيه مواقع اخرى احتلها في السابق عملاء من عينات دونالد ماكلين في قسم الشئون الأمريكية بوزارة الخارجية البريطانية، أو مركز الطاقة الذرية، أو دائرة الأبحاث في حزب المحافظين... أو داخل أي مؤسسة دستورية أو ملكية احتلها رجاله وعيونه في السابق!.

بل لم يكن في ذلك الحجم الذي احتله رئيسه روجر ويلس نفسه في رئاسة جهاز المخابرات.

كان جراهام ميتشيل كل هؤلاء واكثر، بل كان هو صانع القرار والمهيمن على الخيوط التي تلتقي عندها وتتقاطع مواقع كبار المسؤولين في اجهزة الخدمة المدنية ووزارات الحكومة. وأي محاولة للإيقاع برأسه تتطلب محاولات اخرى مسبقة للإيقاع بكثير من الرؤوس، ولا يهم ان يكون اصحابها ابرياء من اي ذنب.

ولذا فقد كان المأزق الحقيقي والعقبة التي يستحيل اجتيازها من رجال مجموعة «صيد العميل» هي كيفية الإيقاع بـ «بيتر» وجز رأس الأفعى، ومن ثم تقديمها على طبق من الفضة هدية للأمة البريطانية التي ارتكب في حقها الخيانة الكبرى.

وما كان أسهل من تقديم واحد من الأدلة الدامغة ضده... وتحويل الشبهات والشكوك الى صيغة من صيغ الاتهام حتى يدفع ميتشيل الى المحاكمة ويسدل الستار على رأس الأفعى... وحرق نسيج شبكة العمالة السوفيتية كلها والى الأبد.

ولكن ذلك الحلم الذي طال انتظاره من جميع العاملين في مجموعة صيد العميل لم يكتب لم أن يتحقق ولعدة سنوات طويلة. بل ليس من المبالغة وصفه بالحلم المستحيل الذي مرت وفاة جراهام راسل ميتشيل في التاسع عشر من نوفمبر عام 1984 حاملاً مع جثته الى قبره اسراره واسرار حقبة طويلة من الزمن ربما لن يكشف النقاب عن أي منها مع غيرها من

علامات الاستفهام والتساؤلات التي ظلت مطروحة حتى الآن.

... ...

... ...

مع حلول الربع الأخير من عام 1963 كان الجميع في بريطانيا قد أصبحوا يدركون ان اخطر أجهزة امنهم قد اخترقت منذ زمن طويل، وان رؤوس الأفاعي قد أصبحت حرة طليقة تعمل في اسرارها وتسرع بنقلها الى موسكو وتلقي بزبالة السموم في الشارع البريطاني يتلهى بها قراء الصحف، وينشط عبر سطورها كتاب الأعمدة... ويزداد مأزق «صيادي العملاء» في اجهزة الـ MI5 مع احباط بيتر رايت ـ احد ابرز ضباطها الفنيين ـ في احراز اي تقدم واحد يوصله الى رؤوس الأفاعي في نسيج الشبكة السوفيتية... وفي مقدمتها جراهام ميتشيل نائب مدير الجهاز.

كما كشفت الفضائح التي اغرقت الساحة البريطانية طوال عام 1963 عن واحد من الوجوه المتعددة «للعبة حرب الصمت» متمثلة في روح التشفي واطباق الشفاه على أي تعليم يمكن ان يصدر من موسكو!

في الوقت الذي يتصعد فيه نشاط عملائهم المزدوجين داخل جهاز الـ MI5 ويسهلون لموظفي السفارة السوفيتية في لندن احباط عملية «بيتر رايت» في زرع جدارن السفارة بالميكروفونات الحساسة بعد مضي ايام معدودة على تثبيتها!

ويفاجئ بيتر رايت بنفس الأصابع الخفية وقد احرقت جهداً تكلف عليه اشهرا طويلة وجمع خلالها محتويات 38 ملف عن من ارتقت الشبهات فيهم من العاملين داخل جهاز المخابرات حيث قام خلالها بتسجيل كل سلوك ولفتة لأي منهم بالصوت والصورة الفوتوغرافية والتحليل الدقيق.

فجأة اختفت كل هذه الملفات من خزانته المحكمة الإغلاق وبالأقفال الرقمية التي لا يعرف اسرارها غيره و... مدير اجهزة المخابرات روجر ويلس ونائبه جراهام ميتشيل.

والمثير ان بيتر رايت لم يهتز كثيراً لاختفاء الملفات، بل لم يتناول المسألة بالتعليق او السؤال، فقط اطبق الصمت شكوكه وازداد قناعة بأن احد الرجلين هو رأس الأفعى الطليقة التي تعمل بكل حرية!

غير أنه وعندما كتب تقريره الى «مارتن فيرنيفال جونز» باسم اللجنة التي شكلت برئاسته وحملت اسم FLUENCY رفض جونز التحقيق في الشبهات التي احاطت بسير روجر ويلس وان وافق في نفس الوقت على استجواب جراهام ميتشيل.

... ...

وعندما تمت دعوة ميتشيل الى بيكونفيلد هاوس للقاء سير فيرنيفال جونز، رغم أنه لم يكن يدرك اسباب الدعوة، الا ان اجتماعها لم يستغرق طويلاً، احيط خلاله بالأسباب التي لم تترك لديه أي آثار للانفعال. وكرجل مخابرات مدرب ابدى طاعته لما يطلبه منه رؤساؤه... ورحب بالاستجواب حيث تم اصطحابه الى احد المساكن في حي الماي فير في وسط لندن، وترك لبعض الوقت قبل ان يعاد اصطحابه مرة اخرى الى مكتب الاستجواب على بعد خطوات من نفس المسكن الآمن.

ورغم فخامة الديكور الذي بدت به قاعة الاستجواب الا ان جدرانها واسقفها كانت تخفي احدث معدات واجهزة التصنت التي يمكنها ان تنقل ادق نبضات قلب جراهام ميتشيل نفسه في تلك اللحظات. وليصب ذلك كله في احدى الغرف الملحقة بالمكان حيث كان بيتر رايت غارق بين اجهزة التسجيل وقياس النبض ورسم خفقات القلب وكشف الكذب... وعديد من الأجهزة والمعدات التي جهزت بها القاعة لمتابعة استجواب رجل في حجم نائب مدير عام المخابرات البريطانية MI5.

وعندما حلت فترة الاستجواب، بدت جميع الأسئلة التي وجهت اليه مما يسهل عليه تقديم اجوبة مقنعة عنها. ولم يتنابه الارتباك لحظة واحدة او يتردد عقب سماعه لأي سؤال، بل كانت إجاباته كما لو كانت معدة سلفاً وتمت دراستها وصياغتها بحذق شديد. حتى تلك الأسئلة التي تناول فيها محققوه سلوكه الشخصي، وعدم اهتمامه بإعطاء مسلكه نوعاً من الحرص والحذر أو التحوط ضد احتمالات مطاردته او متابعته وحدث ثالث تعلق برسمه احدى الخرائط داخل مكتبه تم تمزيقه للورقة التي امتلأت بخطوط قلمه... قبل مغادرته المكان.

وأمام خريطة... أو اي خطوط متقاطعة يرسمها رجل مخابرات على ورقة خالية... وداخل غرفة مكتبه كان يجب ان تتوقف عيون كاميرا العرض البطيء للأحداث خاصة اذا كانت بقلم وكف جراهام ميتشيل.

تكشف الكاميرا... أو عملية متابعة الأحداث البطيئة عن أن جراهام ميتشيل في احد ايام صيف عام 1963 لوحظ عليه واثناء جلوسه وحده داخل مكتبه قيامه بقطع الورق، ورسم خطوط متقاطعة على ورقة بيضاء، ما أن اتمها حتى مزقها إلى قطع صغيرة، القى بها في سلة المهملات، وهب فجأة ينظر الى ساعة يده، ويخرج مسرعاً مغادراً المكتب، والمبنى في طريقه المعتاد الى مسكنه في كوبهام كومون من محطة قطارات ووترلو.

ولأنه كان تحت المراقبة الدقيقة من رجال مجموعة «صيد العميل» داخل الجهاز فإنهم حلما غادر مكتبه اسرع بعضهم الى سلة المهملات وجمعوا قطع الورقة الممزقة وعكفوا على اعادتها قطعة قطعة.. وحتى اكتملت امامهم تلك الخطوط المتقاطعة التي رسمها منذ لحظات قبل تمزيق الورقة... ومغادرة المكتب.

كانت الخطوط تبدأ وتنتهي في عدة اتجاهات... لا تعني الكثير لأول وهلة. وان كانت في احد اركانها تنتهي بالحرفين اللاتينيين "RV".

وعقب ان خلصت مجموعة صيد العميل من اعادة بناء الورقة وابراز ما عليها واعداد نسخ منها مصورة، تلقفها رجال التحليل وفي محاولة اخرى لترجمتها الى لغة مقروءة، ضمها سطور تقريرهم الذي القى شبهة احتمال انشغاله في لحظات رسم خطوط خريطته بمكان وموقع رجل اتصالاته مع السوفييت، وان الاحرف اللاتينية RV لا تخرج عند رموز اسمه الحركي او اسم المكان.

وبالعودة الى وقائع الساعات التي أعقبت خروجه من مكتبه الى محطة قطارات ووترلو في هذا المساء البعيد من عام 1963، لم يتمكن مراقبوه من العثور على ملاحظة واحدة يقتحم منها احد الوجوه الغريبة مشاهد السيناريو المعتاد لرحيل الرجل كل مساء.

فقط وعندما وجه اليه السؤال حول تلك الواقعة تظاهر قبل الرد بصعوبة تذكرها، وان خلص الى ترجمتها... «بأنها لم تكن تعدو انشغال لحظي بأطفاله في كوبهام كومون وحين عودته لرؤيتهم!. واضاف بأنه وبسبب هذه المشاعر الانسانية تجاه اطفاله ليلتها تأخر عدة ثوان عن اللحاق بقطاره المعتاد... واضطر الى الانتظار بعض الوقت قبل ان يستقل القطار التالي.

... ...

... ...

وعلى الرغم من أن ردوده كانت تبدو مقنعة، ولا تتحمل التشكيك المباشر من مستجوبيه، خاصة وانهم وراء صورة الخريطة وخطوطها المتقاطعة واحرفها اللاتينية، لم يكن

لديهم دليل آخر يمكنهم به اسقاط الحجج التي ساقها بعد تردد. وان كانوا في قرارة نفوسهم لم يقتنعوا بها تماماً. وتركوا في هذا الاستجواب علامات استفهام عن «الورقة والخريطة» وتجنبه اللحاق بقطاره المعتاد. وكلها كانت تؤكد بصورة تدعم الشك بأنها «مسلك واضح من رجل مخابرات يتجنب عمليات مطاردة محتملة، استخدم فيها خبرته وذكاءه ببراعة، وحرص الرجل الذي يدرك اهمية اتباعها بدقة وإحكام.

على ان الاشارات المبطنة التي اوردها جراهام ميتشيل خلال استجوابه حول علاقته برئيسه (مدير عام جهاز المخابرات) روجر هوليس كانت تلمح الى مشاعره الحقيقية تجاهه، وكيف أنه ظل طوال سنوات عمله يضمر الكراهية لروجر هوليس، بالرغم من أنه يدين بترفيعه داخل اروقة المخابرات اليه. بالاضافة الى مشاركتهما معاً للعمل سنوات طويلة وداخل مكتب واحد اثناء فترة الحرب العالمية الثانية وانتقالهما معاً الى قصر بلنهايم Blenhiem Palace في عام 1940 والعمل لسبعة أعوام لا يفترقان طوال ايامها الا عند عودة كل منهما الى منزله.

مع هذا كان عرض «ميتشيل» لهذه العلاقة التي تبدو اكثر من وثيقة يتخلله تعليقات يؤكد بها أن روجر هوليس لم يكن يشعر تجاهه بالثقة المطلقة أو أنه «لم يكلفه بالتحمل الكامل لكافة مسئوليات الأعمال التي قاما بها معاً!».

... ...

وفيما عدا تلك الإشارات كانت ردود ميتشيل على اسئلة الاستجواب منطقية ولا تمنح مستجوبيه أي فرصة لتضييق مزيد من الخناق عليه وإسقاطه في بؤرة الاتهام، الأمر الذي كان متوقعاً من كبار المسئولين في اجهزة المخابرات البريطانية، ومع رجل في حجم جراهام ميتشيل وخبرته داخل اروقتهم طوال 24 عاماً.

وان كان رأي رجال مجموعة «صيد العميل» الذين طال انتظارهم لإتمام عملية الاستجواب قد اختلف بل اكد ابرزهم «بيتر رايت» وعندما اعاد عدة مرات الاستماع الى تسجيلات ردود ميتشيل على اسئلة محققيه أن: «صوته قد اختلف، وامتلأت عباراته بمسحة الارتباك في كافة ردوده عن علاقته برئيسه روجر هوليس، وكان بذلك يبدو كمن يتوقع شيء مجهول قد يفاجئ بالسؤال عنه، وقد لا تسعفه البديهة باستحضار الرد المناسب».

... ...

ورغم ذلك التفسير الذي قدمه بيتر رايت، ووافق عليه زملاؤه من مجموعة «صيد العميل» الى رؤسائهم، وفي محاولة أخيرة لترك ابواب الاتهام مفتوحة... تتلمظ عيونهم على اعتابها على رأس الأفعى. إلا أن ملفات الشك في جراهام ميتشيل كانت قد استنفذت أوراقها الأخيرة، وآن الأوان لاغلاقها منذ عام 1963 مع طلبه وقرار احالته الى التقاعد... وحتى رحيله الأبدي عن عالم الصمت المادي داخل أجهزة المخابرات البريطانية الى عوالم الذهاب بلا عودة... الموت... في ١٩ نوفمبر عام 1984.

وقد ظل متشيل خلال هذه السنوات «حالة اتهام قائمة» يسعى بيتر رايت ضابط المخابرات السابق الى اعادة ازاحة الستار عنها مرة اخرى. وكذلك فعل المؤرخ العسكري البريطاني نايجل ويست (روبرت اليسون) في واحد من كتبه التي اصدرها باسم «صيد العميل» في معرض تناوله لأبرز أعضاء شبكات التجسس السوفيتية داخل المخابرات البريطانية MI5 ورؤوسها الخمسة دونالد ماكلين، وجاي بيرجيس وكيم فيلبي وانتوني بلنت... وجراهام ميتشيل (نائب مدير عام الجهاز).

... ...

بقي من العملاء الكبار الخمسة، اكثر هذه الشخصيات اثارة، وعلامة استفهام رحلت من الساحة البريطانية في أواخر الثمانينات محملة بالعار... وان ظلت التساؤلات مطروحة حوله كشخصية عامة حملت ارفع القاب النبالة في بلاده، وتربع لسنوات طويلة في منصب مستشار الفنون بالقصور الملكية... وحتى اللحظة التي اقتحم فيها شاشات التليفزيون البريطانية في احدى الأمسيات بعد ان تفجرت فضيحته ليقدم اعتراف بارد بأبرز تفاصيل عمالته لجهاز المخابرات السوفيتية (كي. جي. بي) لسنوات عديدة... سير انتوني بلنت!

وقد ظل بلنت طوال السنوات السابقة على اعترافه يقاوم محاولات الايقاع به من أمهر رجال المخابرات البريطانية امثال سير ديك وايت (مدير المخابرات السرية) وجيم سكاردون Jim Scardon (اشهر من انتزعوا الاعترافات من كلاوس فوش Klaus Fuchs جاسوس اسرار الطاقة النووية) ولسبب بسيط... هو عدم كفاية الأدلة... وتطبيقاً لقاعدة أن ... المشتبه فيهم أو المتهم بريء الى ان تكفي وتتأكد إدانته!».

غير أن كل ذلك انقلب رأساً على عقب عندما تحطمت جدران الاحتماء من حول انتوني بلنت بالرحلة التي قام بها ارثر مارتن (احد ابرز رجال مجموعة صيد العميل) الى الولايات المتحدة الأمريكية، في مهمة عمل سرية سنحت له خلالها فرصة لقاء البريطاني جون كيرنكروس John Cairncross العضو السابق بجهاز المخابرات البريطانية وجهاز

الاتصالات الحكومية جي سي اتش كيو ـ GCHQ ـ (Government Communica-tions Head Quarter) والمثقف اللامع خريج جامعة كمبردج و... المتقلد لمنصب التدريس في جامعة كليفلاند ـ Cleveland و... ايضاً والمهم الوطيد الصداقة بالديبلوماسي البريطاني الهارب جاي بيرجيس.

وكان رجال المخابرات البريطانية وفي حمى انفجار فضيحة هرب الديبلوماسيين (بيرجيس وماكلين) عام 1951 قد عثروا في مسكن «كيرنكروس» على احد دفاتر المذكرات الخاصة بـ «جاي بيرجيس». وعندما قاموا باستجواب كيرنكروس عنه وعن علاقته ببيرجيس، نفى نفياً قاطعاً ان تكون له اي شبهة به، أو انه قد اتاح له فرصة الاطلاع على ما يتوفر لديه من معلومات سرية تحصل عليها من عمله في اجهزة المخابرات.

وفي محاولة لتأكيد النفي وإغلاق الابواب وراء ذلك العالم الذي سيجلب عليه المتاعب قدم استقالته ورحل الى الولايات المتحدة ليبدأ صفحة جديدة في حقل التدريس بإحدى الجامعات.

... ...

ورغم مضي سنوات عديدة على رحيل جون كيرنكروس من لندن واستمتاعه بالأمان في الولايات المتحدة، إلا أن فرصة لقاء آرثر مارتن رجل المخابرات الماهر لم تفلت دون ذلك الرجل المدرب بـ «الدردشة» في الماضي ونبش قبوره البريطانية المحكمة الإغلاق.

ومع تراكم كؤوس الشراب، وثقل الرؤوس انطلق لسان جون كيرنكروس في سرد اعترافات مذهلة عن تجنيده في شبكة شيوعية على يدي جي بيرجيس أثناء دراستهما في جامعة كمبردج عام 1935. وحافظ على عضويته بها ودوائرها الأوسع بعد تخرجه والتحاقه بالعمل في اجهزة المخابرات البريطانية.

غير أن رجال المخابرات السوفيتية (كي جي بي KGB) ـ آنذاك ـ تخلوا عنه عند طلب مساعدتهم في اعقاب انفجار فضيحة هروب جاي بيرجيس ودونان ماكلين، وتركوه يواجه الحيرة والرعب خشية افتضاح علاقته بالأول وكشف خلفياته داخل التنظيم الشيوعي السري منذ ان كان طالباً في الجامعة. وفي تلك الأثناء التي واجه فيها كيرنكروس حيرته وفي دقة سعى الى الالحاح في مقابلة مسئوله في جهاز المخابرات السوفيتية بإحدى محطات قطار الانفاق اللندنية. ولسبب لم يدركه وقتها لم يفي الذئب السوفيتي بموعده وتركه يتخبط في اروقة المحطة

... ...

وفي اليوم التالي لسهرة الاعترافات، توجه آرثر مارتن مباشرة الى مكتب المباحث الفيدرالية الأمريكية في واشنطن حيث قدم تقريره عن اعترافات « جون كيرنكروس» بعمالته العريقة للسوفييت الى مايكل ستريت ـ Micheal Straight (الخريج السابق من كلية ترنيتي كوليج ـ Trinity College في جامعة كمبردج وابرز كتاب التقارير السرية عن خلايا الشيوعيين في كليته السابقة.

وكان لقاء ارثر مارتن مع مايكل ستريت اكثر من فرصة ذهبية تدفقت فيه معلوماته الثرية عن مرحلة ما قبل الحرب العالمية الثانية بين أوساط طلبة جامعة كمبردج، حيث ارتبط خلالها بالصداقة الوطيدة مع كل من جي بيرجيس وانتوني بلنت (اللذان التحقا عقب التخرج بالعمل في اجهزة المخابرات البريطانية!) وحيث طلب منه انتوني بلنت ان يقطع علاقته بالخلايا الشيوعية في كمبردج ويسعى للحصول على احدى الوظائف في الولايات المتحدة كستار للعمل في خدمة ... «اصدقاؤنا في الحركة الشيوعية الدولية».

... ...

وما أن وصل مايكل ستريت الى امريكا حتى تطوع بتقديم اعتراف رسمي عن تجنيد انتوني بلنت له. واعتبر الاعتراف مدخلاً لتعيينه في احد المناصب بوزارة الخارجية الأمريكية أولاً ومنها انتقل للعمل بالمباحث الفيدرالية وبهدف استغلال معرفته بتفاصيل الخلايا الشيوعية داخل جامعة كمبردج ابان سنوات الحرب العالمية الثانية.

... ...

عاد آرثر مارتن الى لندن مسلح بهذه المعلومات الغزيرة ليقدم تقريره مباشرة الى روجر ويلس (مدير جهاز المخابرات البريطانية MI5) وكأول الدلائل الدامغة على عمالة انتوني بلنت للمخابرات السوفيتية ومنذ سنوات بعيدة.

اما كيف تحولت الأدلة الى اعتراف تفصيلي من انتوني بلنت، وكشف لدوره في شبكة المخابرات السوفيتية داخل الساحة البريطانية لسنوات طويلة... ولماذا لم يتحول هذا الاعتراف الى اتهام، وادعاء رسمي يقدم به الى المحاكمة فهذا ما كشفته عيون كاميرا تتابع الأحداث البطيئة فيما بعد... تضع بعض النقاط على الحروف في ملف واحد من امهر العملاء

البريطانيين.

... ...

في مساء 23 ابريل عام 1964 طرق ضابط المخابرات البريطاني ارثر مارتن باب مسكن سير انتوني بلنت (مستشار الفنون بالقصور الملكية آنذاك) أعلى معهد كورتولد -Cour tauld، المطل على ميدان بورتمان سكوير Portman Square بوسط لندن مسلح بجهاز تسجيل دقيق الحجم، وإبلاغ شفهي بإعفاء بلنت « من التقديم الى المحاكمة اذا ما تطوع بالاعتراف التفصيلي بعمالته للسوفييت قبل وأثناء الحرب العالمية الثانية.

وبعد أن دخل مارتن قاعة المكتب التي تمت فيها المقابلة، وقبل ان يجيب «السير» الوقور على طلقات ذلك المدفع البشري الذي اقتحم عليه هدوء مسكنه، واصل مارتن حصار احد الثعالب الخمسة في كتيبة العمالة السوفيتية، وابلغ مستقبله: «لقد عدت تواً من رحلة التقيت فيها بـ «مايكل ستريت» في واشنطن، تعرفه بالطبع... ولدي الآن من الأدلة الدامغة ما يكفي لملأ ملف الاتهام لحالتك. ولكنني وقبل ان استمع الى ردك احب ان تعلم بأنني قد كلفت بإبلاغك منحكم الحصانة من التقدم للمحاكمة اذا ما تطوعت بالاعتراف... وبهدوء و... دون اغفال ادق التفاصيل!».

حالما انتهى مارتن من حديثه نهض السير من خلف مكتبه صامتاً الى منضدة بجوار النافذة، وبدأ يعد كأساً من شراب «الجن» تجرعها دفعة واحدة. وعاد مرة أخرى يتأمل ارضية الحجرة بينما عيون آرثر مارتن تتابع كل خلجة من خلجات وجهه وقبل ان يهمس السير انتوني بلنت ببطئ وهدوء: «كل ما استمعت اليه من مايكل ستريت في واشنطن صحيح. نعم عملت لحساب السوفييت قبل وأثناء الحرب العالمية الثانية». ثم اطبق الصمت للحظات، كان فيها جهاز التسجيل الدقيق في أحد الجيوب الداخلية لسترة ارثر مارتن لا يكف عن الدوران والتقاط كل همسة نطق بها انتوني بلنت... واستعداده لمزيد من الاعترافات!..

عقب نصف ساعة استغرقتها المقابلة امتلأ فيها الجهاز بما لم يكن يخطر على بال رجل المخابرات الماهر «آرثر مارتن» خرج سعيداً بنجاح التكتيك الذي استخدمه مع انتوني بلنت لانتزاع اعترافاته. تماماً كما نجح في السابق مع فلورا سولومون (المدير التنفيذي لمؤسسة ماركس وسبنسر) عندما احضرها اللورد روتشيلد الى مسكنه في حي الماي فير وسط لندن، وقدمت له اعترافاً بخط اليد حول محاولات «كيم فيلبي» العميل الثالث لشبكة الجاسوسية السوفيتية تجنيدها للعمل لحساب «منظمة السلام» واستعدادها للشهادة ضده في المحكمة اذا ما طلب منها ذلك.

كان ارثر مارتن في كلا الحالتين وفي عديد من الحالات التي تولى فيها اصطياد العملاء يعزف على نقاط الضعف في نفوسهم، ويترك للرعب ان يتسلل بهدوء الى رؤوسهم. يحفر داخلها قنوات عميقة تسرب على السنتهم جمل الاعتراف وكأنها كانت تنتظر طرقات العازف الماهر، رجل المخابرات ومن عينة ارثر مارتن... الذي لم يتنظر طويلاً بعد انتزاع اعتراف «بلنت» حتى توجه الى مكتب مدير عام المخابرات البريطانية MI5 سير روجر ويلس ليضع امامه شريط التسجيل بكل ما احتواه من محادثة الاعتراف. والح على «ويلس» تزويده بوثيقة يتمكن بها اعفاء العميل من التقدم الى المحاكمة وفي مقابل تقديمه لوثيقة اعتراف بخط اليد يوقعها بلنت. الأمر الذي حصل عليه بالفعل بعد يومين من لقاء المسكن المطل على ميدان بورتمان وسط لندن.

... ...

عادت وثيقة الاعتراف بذكريات العميل انتوني بلنت الى مطلع عام 1936 وعندما قام بتجنيده لحساب السوفييت زميله في جامعة كمبردج والديبلوماسي الهارب فيما بعد «جاي بيرجيس» ومروراً بسنوات عمالته المزدوجة خلال سنوات الحرب العالمية الثانية واثناء عمله في احد اجهزة المخابرات البريطانية MI5. ولم ينسى بلنت ان يكشف في سطور اعترافاته كيف كان ينتابه القلق والخوف من مسلك زميله الجاسوس «كيم فيلبي» حيث قام في سنوات ما بعد الحرب بتكرار ارسال التحذيرات الشفوية اليه عن طريق ضابط الاتصال السوفيتي.

بالاضافة الى دوره المباشر والمحكم في تسهيل عملية هروب زميليه جاي بيرجيس ودونالد ماكلين في عام 1951.

أما الكشف الدرامي الذي ابرزته اعترافات انتوني بلنت، فقد كان سرده لسطور من محادثته التي سبق ان اجراها مع جاي بيرجيس (الديلوماسي الهارب) قبل نهاية الحرب العالمية الثانية بعدة أشهر، وطلب فيها بلنت أن يحث رجال المخابرات السوفيتيين على السماح له بترك عمله في المخابرات البريطانية MI5 كي يتفرغ لعمله الأكاديمي. الأمر الذي كان يلح عليه باستمرار، ولا يكف عن تناوله حتى مع رؤسائه داخل المخابرات البريطانية الذين كانوا ينظرون اليه بكل تقدير ويرفضون في نفس الوقت طلبه باعتباره «من أكفأ العقول النادرة الذكاء» الذين عملوا في اجهزة المخابرات البريطانية في حقبة الأربعينات».

والأكثر من ذلك فإن المسؤولين في جهاز المخابرات البريطانية وسعوا من اختصاصاته في العمل ليصبح عضواً عاملاً كل الوقت، بينما هو لا يكف عن التذمر وإبداء الرغبة في ترك الجهاز برمته.

ولشد ما كانت دهشة بلنت ـ كما جاء في اعترافاته ـ أن يأتي جاي بيرجس يوماً اليه ويبلغه بموافقة المسئولين الكبار في المخابرات السوفيتية (كي جي بي) على رغبته في ترك الخدمة بالمخابرات البريطانية. الأمر الذي واجه معه مأزق الخيار الصعب بين العمل الدائم داخل المخابرات وبين تلك الموافقة غير المتوقعة من رؤسائه في المخابرات السوفيتية. ولكنه في نفس الوقت لم يستبعد مشاعر القلق التي انتابته وتفسير موافقة السوفييت بأنها ترجمة لمعنى آخر لعثورهم على بديل له داخل المخابرات البريطانية... قد يكافؤه في الحجم ان لم يكن افضل منه.

... ...

وإذا جاز تقييم العملاء الخمسة لشبكة التجسس السوفيتية داخل المخابرات البريطانية فإن انتوني بلنت يأتي في مرتبة أعلى من كيم فيلبي (الرجل الثالث في شبكة العملاء) فقد اعتمد السوفييت عليه من موقعه ال متميز سواء داخل المخابرات البريطانية التي وصفه فيها رؤساؤه «بالقلة النادرة الذكاء» أو من موقع آخر احتله كمستشار للفنون داخل القصور الملكية.

وقد يتساءل المرء امام حالات العملاء البريطانيين الخمسة... اين كان سيجد السوفييت رجالاً بهذه الأحجام، وفي مثل تلك المناصب التي شغلها دونالد ماكلين وجاي بيرجس داخل وزارة الخارجية البريطانية أو كيم فيلبي الصحفي المتمرس ورجل العلاقات المتعددة مع كبار المسئولين وداخل اوساط صناع القرار، أو انتوني بلنت بذكائه النادر ومواقعه المتميزة... واخيراً جراهام راسل ميتشيل نائب مدير عام المخابرات البريطانية MI5؟؟

وقبل أن يتساءل المرء عن أين وجد السوفييت مثل تلك النماذج البريطانية، الغير عادية وبكل المقاييس، لا بد وان يتساءل ايضاً و... كيف تم العثور عليهم؟؟ وكيف نسجوا بهم واحدة من أقوى شبكات التجسس داخل الساحة البريطانية والتي برزوا فيها قبل غيرهم مع عشرات العملاء الذين تساقطوا واحداً اثر الآخر في اقل من عشرين عاماً؟

وحول كيف هذه، لا بد من الرجوع الى الوراء سنوات طويلة للتعرف على اعضاء الحلقات الماركسية الشيوعية داخل جامعة كمبردج... وجميعهم انحدروا من اوساط اجتماعية تتربع على

قمة المجتمع الانجليزي وفي مختلف الأصعدة والمناصب الرفيعة، وان خروج جيل الابناء الى الحياة العامة يمر عادة عبر بوابات تلك الجامعة العريقة.

في نفس الوقت الذي يتلقف أمثال الذين تم تجنيدهم حزباً شيوعياً قوياً ازدهرت انشطته في بريطانيا منذ حقبة الثلاثينات والأربعينات من القرن الحالي. واكتفى المتميزون منهم باحكام اغطية التمويه الثقيلة حول عمالتهم المزدوجة بمختلف الأقنعة التي حافظت على بقائهم داخل مناصبهم لسنوات طويلة وخداع كبار المسئولين واعرق اجهزة الدولة ومعهم الرأي العام البريطاني برمته.

... ...

... ...

وفي مواجهة الحقائق التي بدأت تتدفق في اعترافات «انتوني بلنت» المتأخرة وركز فيها تعليقاته واهتماماته على زميله كيم فيلبي، رغم ان الأخير وعندما قام بتمثيلية الاعتراف المتقن في عام 1963 في بيروت، اشبع اهتمام زميله القديم والساعي اليه لانتزاع الاعتراف، لم يشير من قريب او بعيد الى اسم انتوني بلنت على الاطلاق، بل اسقط وعن عمد ذكر أي دور قام به ومنذ تجنيده داخل جامعة كمبردج في عام 1936 وحتى يمنحه مزيداً من اغطية التمويه والاحكام كي يواصل استمرار عمالته، وادواره المتعددة مع غيره من بقية العملاء، وبعد أن ادرك «فيلبي» نفسه ومن خلال مسئوليته السابقة في جهاز المخابرات السوفيتية افتضاح امره، ورسم خطة لكسب الوقت حتى تم عملية تهريبه من مسرح الأحداث تماماً. لم تتبين حقيقة معالمها الا عبر سطور اعترافات «انتوني بلنت» وفي نفس الوقت وبعد أن نشط رجال مجموعة «صيد العميل» وفي محاولته الكبيرة للإيقاع بأكبر رؤوس الشبكة السوفيتية داخل أعلى المناصب في اجهزة المخابرات البريطانية وابرزهم «جراهام راسل ميتشيل» رغم ما بدا من مصاعب تحول بينهم وبين بلوغ ذلك الهدف والحلم المستحيل.

... ...

... ...

ونتيجة لهذا، ولعدم اشارة انتوني بلنت في اعترافاته ـ رغم ما حوته من تفاصيل ـ الى شركاء آخرين، مستخدماً نفس اسلوب الاعترافات التي قد لا تضيف جديداً الى ما افتضح امره من ادوار قام بها الهاربين الثلاثة دونالد ماكلين وجاي بيرجيس وكيم فيلبي، تجنب

«بلنت» الاقتراب من كشف الغطاء عن جراهام ميتشيل. واكد بذلك صفته التي عينته بها رؤسائه في اجهزة المخابرات البريطانية وانه : «احد رجال القلة النادرة الذكاء».

وعلى ضوء الاعترافات تأجلت عمليات الخطة «بيتر» التي صممها واشرف على تنفيذها مجموعة «صيد العميل» ضابط المخابرات الماهر «بيتر رايت» ولبعض الوقت، ولحين اتخاذ روجر ويلس قراره فيما أصبح مطروحاً امامه من حقائق قفزت في سطور اعترافات «انتوني بلنت».

والواقع في تلك الفترة هو ان روجر ويلس مدير عام المخابرات البريطانية MI5 لم يتعجل اصدار القرار، او يقدم ردوداً شافية على الضغوط التي يمارسها عليه «رجال مجموعة صيد العميل» والتي بلغت الى حد التهديد بتقديم استقالاتهم من تنفيذ عملية «بيتر» كلها. وما يمكن ان يعكسه ذلك من آثار، خاصة وان روجر ويلس كان قد بدأ سلسلة من الاستشارات واللقاءات مع «ديك وايت» وغيره من المسؤولين في اجهزة المخابرات، واسفرت عن ضرورة احاطة رئيس الوزراء - آنذاك - هارولد ماكميلان، واستطلاع رأيه فيما يجب اتخاذه من اجراءات يتوقف عليها مصير نائبه «جراهام ميتشيل» وبعد تجميع الملاحظات الواردة الى «ويلس» في تقارير المخابرات المركزية الأمريكية CIA والمباحث الفيدرالية FBI و... الشكوك المتصاعدة التي ترقى الى حدود الاتهام من رجال مجموعة صيد العميل «بيتر» في لندن.

في النهاية خلص روجر ويلس من كل ذلك الى ما اشار به رئيس الوزراء (هارولد ماكميلان) وتأجيل استدعاء جراهام ميتشيل للاستجواب حتى مطلع شهر سبتمبر عام 1963 وحتى يكون «ميتشيل» قد انقطعت صلته بالعمل في اجهزة المخابرات البريطانية بعد احالته الى التقاعد.

وما ان بلغت هذه الأنباء «صيادي العملاء» حتى اعربوا عن استيائهم وتذمرهم، وتأكد لدى بعضهم الاعتقاد بأن محاولات المماطلة والتسويف التي بدأت تواجههم من مدير عام الجهاز ليست لها من تفسير سوى شبهة حماية نائبه جراهام ميتشيل في اسوأ الأحوال، او عجز الجهاز ومن خلال مجموعتهم عن تقديم المشتبه فيهم من العاملين بالمخابرات البريطانية الى التحقيق في افضلها! ومن ثم «الضياع» في حالة العجز أو محاولات رأب الصدع الذي الم بهذا الجهاز منذ مطلع الخمسينات.

وكان ابرز المتزعمين لهذا الاتجاه «بيتر رايت» ضابط المخابرات الذي تولى قيادة «مجموعة صيد العميل». وحتى يتم التخفيف من حدة التوتر والقلق الذي الم بأعضاء مجموعته واخماد تيارهم المتصاعد والضغوط التي يمارسونها، تم التعجيل بإصدار قرار ترفيع «رونالد سيموندس» الى رئاسة الفرع "D" المكلف بعمليات الاستجواب والتحقيق والطلب منه اعداد تقرير شامل عن مسلسل الجهود التي قامت بها «مجموعة صيد العميل».

وما أن اتم سيموندس تقريره حتى اسرع ديك وايت وروجر ويلس بالتصديق عليه، والطيران به الى واشنطن لمناقشة تفاصيله مع مدير المخابرات المركزية الأمريكية - آنذاك - جون ماكون، John McCone، ومدير المباحث الفيدرالية FBI ادجار هوفر Edgare Hoo-ver.

وكأن «ويلس» بذلك يؤكد سواء امام رجال أعضاء مجموعة «صيد العميل» أو المسؤولين الأمريكيين ثقته بإحكام سيطرته على جهاز المخابرات البريطانية MI5، والى حد قناعته بالشبهات التي احاطت بنائبه جراهام ميتشيل، ومن ثم حيازة ثقة الأمريكيين.

... ...

غير أنه منذ ان عاد روجر ويلس من واشنطن الى لندن فإن اياً من عمليات الاستجواب أو التحقيق لم تتخذ مع جراهام ميتشيل. بل ان هذه تأخرت طويلاً بعد أن بدأ الرئيس الجديد للقسم "D" (الاستجواب والتحقيق) رونالد سيموندس في ديسمبر عام 1963 يراجع وجهة نظره ازاء الأدلة المقدمة من «مجموعة بيتر» (صيد العميل) ضد جراهام ميتشيل، ويزداد قناعة بعدم كفايتها لتقديمه الى المحاكمة، الأمر الذي وافق عليه مدير الجهاز «روجر ويلس» رغم آرائه السابقة، وكشف عنه عندما سئل في تلك الآونة عن اسباب تأخير استجواب جراهام ميتشيل ولكنه ارجع أسباب تأخير عملية الاستجواب الى قناعته برأي رئيس الوزراء (هارولد ماكميلان) و: «بأن أي مواجهة مع رجل في حجم ميتشيل وبالمناصب التي شغلها في اجهزة المخابرات البريطانية يعد مخاطرة كبيرة ابسط ما تؤدي اليه هو لجوئه الى الهرب ومن ثم مواجهة فضيحة كبرى يصعب التكهن بعواقبها وآثارها على الساحة السياسية البريطانية.

...

ومع حلول عام 1964 بدأت كافة عمليات صيد العملاء وتقاريرهم بعد عرضها على مدير عام المخابرات البريطانية روجر ويلس تدخل في سياق العمليات الروتينية التي يكتفي فيها بالاطلاع والحفظ ودون اتخاذ أي قرارات بشأن ما فيها أو ما تتضمنه من جديد في عمليات المتابعة.

كما بدا «سير روجر ويلس» اكثر ميلاً الى الرغبة في دفن اية تفاصيل واسدال ستار من التعتيم على ما فيها من شبهات. ووافق في النهاية على اقتراح «بيتر رايت» تجميد نشاط مجموعة «صيد العميل» وتشكيل لجنة مشتركة جديدة من العناصر العاملة في المخابرات البريطانية MI5 وبعض العاملين في جهاز الخدمات السرية SIS اطلق عليها الاسم الرمزي FLUENCY أوكلت رئاستها الى بيتر رايت. وعلى أن تعقد اجتماعاتها مع مدير عام جهاز المخابرات MI5 روجر ويلس مرة كل خمسة عشر يوماً وعقب انتهاء ساعات أعمال اعضائها المعتادة في مواقعهم وفي احد مقار جهاز المخابرات (بيكونز فيلد هاوس Beaconsfield House) وعلى ان يستغرق عملها من الخمسة أعوام التالية.

وطرحت تلك الصورة الجديدة في العمل مزيداً من الاستياء لدى ارثر مارتن امهر ضباط المخابرات البريطانية الذين استطاعوا انتزاع اعترافات «انتوني بلنت». واعرب مارتن علانية ولأول مرة داخل مثل هذه الأجهزة عن معارضته التامة للأساليب التي يعمل بها مدير عام المخابرات البريطانية. الأمر الذي ما أن بلغه حتى اصدر قرار بوقف ارثر مارتن عن العمل لمدة اسبوعين.

وما أن عاد مارتن الى العمل حتى فاجأ المدير العام بمجموعة اخرى من اعترافات انتوني بلنت المثيرة، والتي سرد فيها عدة اسماء جديدة من العملاء البريطانيين لحساب المخابرات السوفيتية كان من ابرزهم اثنان من الم خريجي كلية كنجز كوليج Kings College جامعة كمبردج، وأحد العاملين السابقين في المخابرات العسكرية ويدعى «ليولونج "Leo Long" وعالم خر في الرياضيات عمل في البحرية الملكية البريطانية ويدعى الستر واطسن Alister Watson.

وبناء على نصيحة انتوني بلنت في مسلسل اعترافاته لأرثر مارتن اعفى «ليولونج» من تقديمه الى المحاكمة بعد تسجيله مجموعة من الاعترافات سمح له بعدها بالعودة الى منزله واخفاء ذلك الأمر من اعمال الخيانة في الماضي عن اقرب الناس اليه «زوجته».

أما بروفسور الستر واطسن فقد كانت حالته مختلفة واكثر تعقيداً فقد عمل منذ تخرجه من جامعة كمبردج في برامج الأبحاث السرية للغواصات في الوقت الذي واصل نشاطه داخل الحزب الشيوعي البريطاني "BCP" - British Communist Party.

وبعد أن اعترف عليه «انتوني بلنت» استمرت عمليات مراقبته من رجال المخابرات البريطانية الى ان استدعى للتحقيق معه وفي حضور انتوني بلنت.

جورج بليك ... رأس الذئب الطائر من لندن الى موسكو

يحتل اسم جورج - بيهار - بليك George Behar Blake وبعد مضي ما يقرب من 28 عاماً على محاكمته وهروبه من احد السجون المشددة الحراسة في وسط لندن مكانة بارزة في عالم الجاسوسية الدولية لما احاط شخصيته والأدوار التي قام بها لحساب الاتحاد السوفيتي ومن داخل اروقة المخابرات البريطانية الكثير من الغموض وعوامل الاثارة التي لازالت وحتى الآن محل بحث دراسة الخبراء والمتخصصين في شئون مكافحة الجاسوسية.

ومثل هذه الشخصية وبكل المقاييس كان أول جاسوس تصدر ضده محكمة الجنايات البريطانية أقصى عقوبة بالسجن لمدة 42 عاماً، وهو الأمر الذي لم يسبق ان شهده تاريخ القضاء البريطاني من قبل قضى منها 6 اعوام قبل ان ينجح في الهرب من «سجن وورم وود سكريب» Warm wood scrup المطل على طريق «ديكان رود» بحي «ايست اكتون» East Acton غرب لندن ويشق طريقه في زحام الشوارع العامة اللندنية والى ان بلغ ابعد نقطة أمان في موسكو في شهر اكتوبر عام 1966.

على أن الخلفية التي ميزت شخصية بليك لم تكن بتلك الخلفيات العادية لجاسوس بريطاني يسهم في تغيير تاريخه له ذلك الحجم الذي كشفت عن عملية سقوطه ومحاكمته وهروبه، بقدر ما كانت علامة بارزة، وملمحاً اساسياً في شخصية جاسوس نادر قل ان تشهده دوائر المخابرات الغربية.

كان ابوه رجل اعمال يهودي من مواليد القسطنطينية، التحق في صفوف الفرقة الأجنبية خلال سنوات الحرب العالمية الأولى، واهله اداؤه في احدى وحداتها للانضمام الى القوات المسلحة البريطانية التي منحته ضليب الشجاعة مصحوباً بالجنسية البريطانية قبل نزوحه للاستقرار في مدينة روتردام مع زوجته الهولنديه كاثرين وحتى وفاته في عام 1934 عندما كان ابنهما الوحيد «جورج» في الثالثة عشرة من عمره.

في هذه السن المبكرة وبعد رحيل ابيه نزح الصبي جورج مع عمته الى مصر حيث اقاما في مدينة الاسكندرية. وهناك التحق بإحدى المدارس اليهودية، والتقى مع ابن عمه هنري كورييل Henry Coriel (الذي كان يكبره بثمانية اعوام) مؤسس الحزب الشيوعي المصري - فيما بعد - والذي رحل هو الآخر من مصر الى باريس في مطلع الخمسينات وظل بها الى ان اغتيل في عام 1978 على ايدي احدى فرق الموساد (المخابرات الاسرائيلية) لسبب تأييده لمنظمة التحرير الفلسطينية.

وهذه العلاقة الدينية الضاربة في اعماق جورج بليك رغم الأثر الكبير التي انعكست بها في حياته بعد ذلك لم تكن سوى انعكاس آخر وجدو ذوره في علاقة القرابة التي ربطته بهنري كوريبل والتي امتزجت فيها الأفكار الصهيونية بالمبادئ الشيوعية.

وحول هذه العلاقة المثيرة في حياة جورج بليك حلل مونتجومري هايت في كتابه الشهير «جورج بليك جاسوس نادر "George Blake Superspy" الدور الذي لعبه هنري كوريبل في اعادة تشكيل وصقل شخصية ابن عمه (جورج) وعلى ضوء المعتقدات الصهيونية والمساعدة والمبادئ الشيوعية.

وفي عام 1939 رحل جورج بليك من الاسكندرية الى هولندا لاستكمال تعليمه بإحدى جامعاتها غير أن اندلاع الحرب العالمية الثانية، واعتقاله على يد القوات النازية لمدة شهر حالت بينه وبين تحقيق هدفه من الرحيل الى امستردام. ووجد نفسه بعد الافراج عنه ينخرط في الأنشطة المعادية للنازية والعمل كمراسل في احدى فرق المقاومة والمساعدة في توزيع المنشورات والصحف السرية التي كانت تصدر آنذاك. وفي منتصف عام 1942 قرر جورج بليك الهرب من هولندا الى انجلترا بعد وفاة جدته والالتحاق بأمه وشقيقاته اللاتي كن قد نجحن في الهرب الى بريطانيا والمشاركة بجهوده مع منظمو حركات الهروب الجماعي من هولندا على الطريق المفتوح من باريس الى ليون ومنها الى اسبانيا والذي لم يكن خاضعاً لسلطات الاحتلال النازي بعد. وخلال احدى عمليات العبور تلقي الشرطة الاسبانية القبض عليه وتودعه في المعتقل لمدة شهرين في احد معسكرات الأسرى بمنطقة ميراندا ديل ايبرو Miranda del Ebro. حيث يتعرض خلال تلك الفترة لعمليات مكثفة من التعذيب والاستجواب المستمر الى ان تم الافراج عنه في شهر يناير عام 1934. ويقرر شق طريقه مرة اخرى الى انجلترا عبر مضيق جبل طارق ومنه على ظهر العبارة الاسترالية «امبريس اوف استراليا» Empress of Australia.

وحال وصول الى لندن يتم اقتياده الى مركز التحقيق الملكي بكلية فيكتوريا بضاحية وندزورث Royal Victoria Patriotic School وحيث يتعرض لعمليات استجواب استغرقت اربعة ايام الى اني تم الافراج عنه فيتجه للإقامة مع امه وشقيقاته في احد المساكن بضاحية نورث وود North Wood شمال لندن، ويلتحق على الفور بالعمل كاتب في احدى دوائر وزارة الاقتصاد للحكومة الهولندية في المنفى بعد ان غيّر اسمه نهائية من جورج بيهار (وكذلك فعلت امه وشقيقاته) في المنفى الى جورج بليك George Blake. والانضمام بعد خمسة اشهر الى صفوف البحرية الملكية البريطانية.

وخلال الفترة التي قضاها لعام كامل بعد ذلك في صفوف البحرية البريطانية عاملاً على ظهر المدمرة ديوميد Diomede كضابط تحت التمرين، اشارت مؤلفة كتاب «المعنى الجديد للخيانة The New Meaning of Treasury» ربيكا ويست Rebecca West الى ان التحاقه بالبحرية البريطانية قد تم بتوجيه من المسئولين في هيئة العمليات التنفيذية الخاصة "SOE" Special Operations Executive: دائرة القسم الهولندي Dutch Section. غير أن ذلك في الواقع لم يكن صحيحاً وانما كان بتوجيه مباشر من المسئولين في جهاز الخدمات السرية "SIS" Security Intelligence Service. والذين رأوا فيه صيداً ثميناً سعوا الى تجنيده بعد عام الى القسم A2 ثم القسم P2 في الدائرة الهولندية بجهاز المخابرات البريطانية وبعد أن ادركوا صعوبة الإبقاء عليه في صفوف البحرية وايضاً بسبب حالته الصحية وعدم قدرته العمل داخل الغواصات وتحت الماء لفترات طويلة.

في هذه الفترة من عمله المبكر داخل احد اجهزة المخابرات البريطانية انحصرت مهماته في اصطحاب العملاء من انجلترا الى هولندا، وفي معايشة عمليات تدريبهم من مدرسة الى اخرى واعداد التقارير وتقديمها الى المسئولين عنه في جهاز الخدمات السرية ومقره العام في البرودواي بلندن وقضاء وقته مستمتعاً باصطحاب الفتيات من العاملات في اقسام السكرتارية بمبنى القيادة العامة للجهاز (واللاتي وصفهن في مذكراته فيما بعد «بالنماذج الرفيعة لبنات الطبقة الارستقراطية الانجليزية وسليلات اسر الأعضاء المحافظين في مجلس العموم وكبار رجال الكنيسة الانجليزية وحكام المستعمرات البريطانية في الهند وافريقيا واعضاء الأسرة الملكية». وكانت من بينهن ثلاث فتيات ديانا لي Diana Legh ابنة الكولونيل سير بيرس لي Sir Piers Legh رئيس الديوان الملكي البريطاني، وجنيفير جرانت Guinever Grant ابنة سير الفريد جرانت البارون الثاني عشر لدوقة اسكتلندا وايرس بيك Iris Peake ابنة عضو مجلس العموم (المحافظ) اوسبرت بيك Osbert Peake الذي تعلق بها وسيطر عليه هاجس الزواج منها الأمر الذي اصطدم بمعارضة قوية من ابيها وتحذيره من الاتصال بها.

على أنه وعقب تحرير هولندا واندحار القوات النازية على جميع الجبهات العسكرية في أوروبا بقي جورج بليك يواصل عمله في دوئر جهاز الخدمات السرية ألحق بالخدمة على احدى المدمرات البحريةكضابط اتصال ومنظم لحفلات الترفيه، ثم بائعاً في احد محلات الملابس بالعاصمة الهولندية الى ان عاد للالتحاق بأحد صفوف تعليم اللغة الروسية في كلية داوننج Downing College بمدينة كمبردج. وعقب اتمام دراسته استدعاه جهاز الخدمات السرية

مرة اخرى حيث التحق بوظيفة ثابتة ارسل بمقتضاها للعمل في السفارة البريطانية بالعاصمة الكورية الجنوبية سيول لمدة ثمانية عشر شهراً (أكتوبر عام 1948) شهد في نهايتها سيطرة الشيوعيين على المدينة واندلاع الحرب في كوريا.

وعندما اجتاحت القوات الشيوعية الأراضي الكورية الجنوبية القي القبض على موظفي السفارة البريطانية في سيول وتم ترحيلهم الى احد معسكريات الاعتقال في احدى مدن الشمال الكوري.

وهناك وخلال تلك الفترة حيث رافق جورج بليك مراسل صحيفة الأوبزرفر البريطانية فيليب دين بدأت جذور اتصاله بالفكر الماركسي وتطوعه للعمل لحساب السوفييت، ويبدو عرض بليك وعمله التطوعي لحساب السوفييت في تلك المراحل الأولى اكثر من مثير حيث طلب في خريف عام 1951 من احد حراس المعتقل توصيل رسالة الى السفارة السوفيتية في بيونج يانج. ما لبث ان جاءه الرد عليها بعد ستة اسابيع بظهور احد الزوار الروس المجهولين للمعتقل وطلب مقابلة جورج بليك. وفي هذا اللقاء الذي تم بينه وبين المبعوث الروسي تم التفاهم على كل شيء، وتعرّف بليك من زائره على شخصية رئيس جهاز المخابرات السوفيتية KGB في البحرية الروسية. ومع تكرار زيارة المبعوث السوفيتي بدأ ظهور زائر آخر يصحبته يدعى كوزما Kuzma.

وبدأ الرفيق الأصلع مبعوث الـ KGB في البحرية الروسية وزميله كوزما عملية التجنيد للبريطانيين المعتقلين جورج بليك وميزته الكبرى اجادته للغة الروسية، ومراسل صحيفة الأوبزرفر فيليب دين الذي وصفهما فيها بعد في كتابه «معتقل في كوريا» Captive In Korea بالنماذج الحية للشخصيات الروائية في الأدب الروسي يتسم الاول منهما بطول القامة وامتلائها والرأس الصلعاء التي تخترقها عينان ضيقتان ذات نظرات ثاقبة يصعب تجنت تأثيرهما اذا ما بدأ يعطي محدثة بعضاً من الاهتمام اما الثاني فقد كان ايضاً طويل القامة نحيف يحرص على مسلك الجنتلمان المهذب في نطقة وحديثة باللغة الانجليزية الخالية من اي لكنة اجنبية.

غير أن هذا المظهر الخادع الذي كان يبدو به المبعوث الروسي «جريجوري كوزما» للتسلل الى معسكر المعتقلين البريطانيين في كوريا، كان كذلك يخفي شخصية احد كبارالمسئولين في دائرة التعليم السياسي والمعروفة باسم «بروسفتشني أوتديل» Prosveshtchney Otdyel بوزارة الأمن القومي السوفيتية MGB أو Ministry of State Secretary. تلك الوزارة المكلفة بالإشراف على كافة أنشطة الجاسوسية خارج اراضي الاتحاد السوفيتي آنذاك. وكان كوزما يشغل فيها ارفع المناصب التي تؤهله للقيام بعمليات «غسيل المخ» للعملاء والمجندين الجدد ومن جميع الجنسيات.

وحتى يقوم كوزما بأداء هذه المهام ارسل للعمل في البعثات الدبلوماسية السوفيتية تحت ستار ملحق ثقافي، وملحق صحفي، ومراسل لوكالة انباء تاس Tass، أو ملحق تجاري وحتى مرافقاً لفرق الباليه الروسي خلال جولاتها في العواصم الغربية، كمسئول أمن. وفي اطار هذه المهمات عمل كوزما تحت قيادة الميجور جنرال جريجوري نيكولايفيتش زاروبين السفير السوفيتي لدى الحكومة الكندية في عام 1947 ثم انتقل بعد ذلك الى لندن، وواشنطن في عام 1952 وبين هذين العامين 47 و52 قام بالعديد من الرحلات بين أوتاوه ولندن وتحت اسم كوزنتسيف حاملاً للقب الملحق الثقافي في تلك البعثات الدبلوماسية الى ان تم استدعاؤه لموسكو ومنها ارسل للعمل في البعثة السوفيتية في كوريا. وبمهمة محددة تستهدف تجنيد العملاء من بين المعتقلين الأمريكيين والبريطانيين نظراً لقناعة كبار المسئولين في وزارة الأمن القومي السوفيتية وبقية دوائر الـ KGB بالخبرات الواسعة لكوزما لأساليب الحياة والفلسفة الغربية واتقانه المذهل للغة الانجليزية وبلهجاتها الأمريكية والبريطانية والكندية بالاضافة الى علاقاته الوطيدة التي نسجها مع العديد من الشخصيات الرسمية وغير الرسمية في الدوائر الغربية.

المثير ان كوزما هذا وبكل ما احاط شخصيته من غموض، والادوار التي قام بها لحساب رؤسائه من اجهزة التخابر السوفيتية لسنوات طويلة انتهى باللجوء الى واشنطن حيث الحق بالعمل داخل احدى دوائر المخابرات المركزية الأمريكية CIA وتحت اشراف آلن دالاس رئيس الوكالة ـ انذاك ـ شخصياً.

وبعيداً عن تشعب جذور وخلفيات العناصر التي اسهمت في عمليات «غسل مخ» جورج بليك خلال فترة اعتقاله على ايدي الشيوعيين في كوريا في مطلع الخمسينات، فالثابت انه وحتى تلك الفترة السابقة لاستيلائهم على السلطة في الشمال، كان جورج بليك يشغل منصب نائب القنصل البريطاني في كوريا أو هكذا كان الغطاء الذي يخفي مهمته الأساسية كرجل جهاز المخابرات البريطانية MI6 هناك.

وبعد القاء القبض عليه وايداعه احد معسكرات الأسرى تعرض خلالها لعمليات استجواب مكثفة، ما لبث ان افرج عنه بعد عدة اشهر عاد بعدها الى لندن ليختفي داخل أروقة

دوائر المخابرات البريطانية قبل ان يتم ارساله الى برلين في خريف عام 1953 وبمهمة محددة من جهاز الـ MI6 ليخترق شبكات الجاسوسية السوفيتية العاملة في المدينة ويلعب دوره الأساسي كعميل مزدوج لكل من ال KGB والـ MI6، خلال الأعوام الأربعة التالية، كانت فيها دوائر المخابرات البريطانية في لندن اكثر ثقة برجلها وعمله المضني داخل اشهر بؤر التجسس وفي مطلع سنوات الحرب الباردة.

ومن الطبيعي وحتى تهيئ المخابرات البريطانية لرجلها في برلين كافة عوامل النجاح في مهمته كانت تزوده بالمعلومات والأسرار المزيفة وبهدف تقديها لرؤساء شبكات الجاسوسية السوفيتية في المدينة، وباعتقاد راسخ انه كلما كان بليك مصدراً خصباً لمعلومات رؤسائه الروس، كلما حصل منهم على المزيد من المعلومات الحقيقية التي يغذي بها رئاساته الفعلية في برودواي لندن. غير أن هذه المعادلة لم تكن صحيحة في الواقع فقد كان الروس على دراية تامة بحقيقة ما يصل الى ايديهم من معلمات مزيفة ولكنهم راحوا يستخدمونها في القاء مزيد من التمويه على رجلهم داخل المخابرات البريطانية جورج بليك نفسه.

ومع حلول عام 1961 والقاء القبض على احد الجواسيس الألمان وجاسوس آخر بولندي بدأت الحقائق تتلاحق امام اعين رؤساء جهاز المخابرات البريطاني عن جورج بليك والخندق الحقيقي الذي يقاتل داخله لصالح سادته في الكرملين. والأهم الحصول على الدليل الدامغ بعمالة جورج بليك لموسكو. وعندما تم استدعاؤه الى لندن القي القبض عليه وبدأت عملية استجوابه والتحقيق معه.

وانكشف في هذه التحقيقات الدور الاساسي الذي كان يقوم به والاستغراق في عمليات تصوير جميع الوثائق والأسرار حول انشطة جهاز المخابرات البريطاني MI6 وتسليمها اولاً بأول الى ضباط المخابرات السوفيتية خلال لقاءاته معهم في برلين. وكان من ابرز هذه المعلومات الكشف عن هويات وعناوين العملاء الألمان لحساب البريطانيين داخل القطاع الشرقي من برلين، مما سهل على السوفييت اختطافهم وإرسالهم الى موسكو لتلقي الرصاصات الأخيرة على ايدي فرق الإعدام. وكذلك كشف اسرار النفق الذي اسهمت المخابرات الأمريكية CIA والبريطانية MI6 في بنائه بالقرب من مقبرة رودو Rudow Cemetry وحتى اسفل احد اجهزة الرادار السوفيتية داخل القطاع الشرقي من برلين.

في هذا النفق الحديدي الذي بدأت عمليات بنائه في شهر ديسمبر عام 1953 واستغرق ثلاثة اشهر ممتداً بين القطاعين الشرقي والغربي من المدينة وبعمق سبعة امتار ونصف اسفل سطح الأرض، وبقطر سبعة اقدام امتدت شبكات التنصت ومن غرفة فخمة احتشدت بأجهزة المراقبة الحديثة، وشبكات التليفون وعشرات اجهزة وميكروفونات الاستماع الحساسة واجهزة التسجيل التي ارتبطت مباشرة بخطوط الهواتف لأبرز اجهزة الأمن الالمانية الشرقة ومقر رئاسة المخابرات السوفيتية KGB شرق برلين واسهمت جميعها في توفير عمليات التنصت على 400 مكالمة هاتفية في وقت واحد.

وخلال اشهر الشتاء الأولى التي اعقبت تشييد ذلك النفق السري سببت الحرارة الشديدة المنبعثة منه في ذوبان الجليد على سطح الأرض التي تغطيه، فأسرع الخبراء لتزويده من الداخل بأجهزة التهوية والتبريد اللازمين.

ورغم تلك العمليات التي احيطت بقدر كبير من السرية والكتمان إلا أنه مع حلول 22 إبريل عام 1956 لوحظ قيام مجموعات من حرس الحدود الألمان الشرقيين وفريق من رجال المخابرات السوفييت بالحفر على نهاية النفق في القطاع الشرقي وبما ينذر بأوخم العواقب، الأمر الذي منح فرق المتصنتين والخبراء الغربيين والفنيين فسحة من الوقت لجمع معداتهم من داخل النفق والهرب سريعاً من مصيدة احكمت المخابرات السوفيتية والألمانية الشرقية احكام ابوابها بعد ترك النفق السري خالياً من محتوياته. ولم يكتفي السوفييت آنذاك بكشف النفق بل وظفوا ذلك في اكبر حملة دعائية مضادة للغرب واجهزة مخابراته وتطويق واعتقال اكثر من 40 الف عميل الماني شرقي ثم اقتيادهم الى موسكو.

ومع هذه الفضيحة الكبرى التي هزت اوساط المخابرات الغربية، زادت شكوك الوكالة المركزية الأمريكية CIA تجاه مجموعة أخرى من كبار العاملين في الأجهزة البريطانية والأمريكية. وتأكدت هذه الشكوك بعد القاء القبض على جورج بليك فيما بعد ذلك بعدة سنوات عندما اعترف في التحقيقات التي اجريت معه بأنه قام بإبلاغ موسكو بأدق تفاصيل النفق السري اسفل برلين منذ أن كان مشروعاً على الورق وقبل ثلاثة اعوام من توجيه المخابرات السوفيتية ضربتها وفضح ما كان يتم داخله من عمليات تصنت فاشلة والحصول على معلومات مزيفة.

ومن برلين الى القاهرة واصل جورك بليك خيانته وعمليات تجسسه لحساب السوفييت، إذ انه ومن خلال معلوماته التي سربها الى موسكو تمكن المصريون من كشف اكبر شبكة مخابرات بريطانية تعمل في المنطقة وتتخذ من القاهرة مقراً لها في عام 1958. والقي القبض على عدد لا بأس به من العملاء والجواسيس. وتم ترحيل مجموعات اخرى ممن حملوا الصفة

الدبلوماسية من العاملين داخل السفارة البريطانية وبعض السفارات الغربية الأخرى. وفي اكبر حملة تهديد مضادة ودعاية وظفها الرئيس المصري الأسبق جمال عبد الناصر آنذاك عندما اعلن عن استعداده لإذاعة اسماء جواسيس بريطانيا وعملائها في المنطقة من اذاعة القاهرة (ولكنه لم يفعل) وان سبب ذلك شللاً كامل لدوائر المخابرات البريطانية في المنطقة وكلفها سنوات عديدة قبل ان تستجمع انشطة وتجنيد عملاء جدد يحلون محل شبكة التجسس المنهارة.

وفي شهر سبتمبر عام 1960 تم نقل جورك بليك من لندن الى بيروت ليواصل عمله داخل محطة المخابرات البريطانية في العاصمة اللبنانية ويتلقى دورة تدريبية نظمتها وزارة الخارجية البريطانية في تعليم اللغة العربية بمعهد شملان، وما ان اتمها حتى اعيد الى لندن مرة اخرى في مارس عام 1961. وحالما عاد حتى تم استدعاؤه هذه المرة من دائرة شئون العاملين في جهاز الخدمات السرية صباح الرابع من ابريل ومنها اصطحب الى مركز الاستجواب المطل على حدائق سان جيمس.

هناك فوجئ بانتظار لجنة من المحققين تضم هارولد شيرجولد Harold Shergold زميله السابق في محطة المخابرات البريطانية ببرلين والمسئول عن مكافحة انشطة التجسس السوفيتية والألمانية الشرقية، وجون كوين John Quine المدير السابق لمحطة الخدمات السرية البريطانية في طوكيو، وتيرانس ليكي Terance Lacky (ايضاً من محطة برلين) وضابط شرطة سابق محال للتقاعد يدعى جونسون Johnson. وبدأ اعضاء اللجنة الأربعة عمليات الاستجواب التي شملت استعادته لتاريخ حياته ومنذ صباه المبكر الى ان الحق بأجهزة المخابرت البريطانية والدوائر التي عمل بها وعلاقاته مع زملائه ومع الآخرين خارج دوائر العمل وكافة العمليات التي كلف بها أو توفرت لديه معلومات عنها. وعندما تعرض لسرد نشاطه في المانيا توقف المحققون لسؤاله عن علاقته بالألماني المدعو هورست ايتنر Horset Eitner. وببرود اجاب بأنه كان احد العملاء الذين نجح في تجنيدهم والعمل لحساب المخابرات البريطانية في برلين.

ولكن بليك لم يكن يعلم أن هورست ايتنر وزوجته كان قد القي القبض عليهما من قبل الشرطة الألمانية بتهمة التجسس لحساب المخابرات السوفيتية KGB. وانهما قدما عند التحقيق معهما اعترافات كاملة حول الأدوار التي قاما بها والأهم اعترافهما كذلك بعمالة جورج بليك لنفس الجهاز وكيف انه يعد في نظر كبار المسئولين في موسكو الرصيد الأكبر المختزن داخل اروقة المخابرات البريطانية.

غير ان جورج بليك واصل خلال ايام الاستجواب (استغرقت عدة ايام) الأولى مقاومة الاعتراف بعمالته لحساب السوفييت، وان اعترف ضمناً بإعجابه بالأفكار الماركسية ومهارة الشيوعيين في ادارة اجهزة الدولة في موسكو. وحتى ظهر الخميس (اليوم الرابع من عملية الاستجواب) لم يوجه له المحققون اي صيغة من صيغ الاتهام المباشر، بل انتهى بهم الأمر الى قطع عمليات التحقيق بحجة تناول الغداء وعلى ان يستكمل بعد الظهر.

في هذه الأثناء غادر بليك مقر دائرة الاستجواب في سان جيمس بارك، وقطع الطريق عبر حدائق كارلتون باتجاه حي الويست اند ليتناول غداءه في احد مطاعم البيكاديلي. وبعد أن فرغ من تناول الطعام غادر باتجاه احد اكشاك التليفونات العامة وتردد أمامها لعدة لحظات ما لبث خلالها ان اعتراه الاضطراب والتخلي عن فكرة الاتصال الهاتفي برئيس محطة المخابرات السوفيتية في سفارة لندن لطلب المساعدة في المأزق الذي يواجهه. وعاد الى مقر دائرة الاستجواب في سان جيمس بارك دون ان يجري اتصاله الهاتفي.

وما أن جلس امام محققيه مرة اخرى حتى فوجئ بسؤالهم عن سبب الغائه المكالمة الهاتفية التي كان يعتزم اجراؤها من احد التليفونات العمومية في البيكاديللي. ومن هو الشخص الذي كان سيجري الاتصال معه. عندها انهار جورج بليك وتأكد من ان كافة تحركاته كانت تحت المراقبة واعترف بأنه كان يعتزم الاتصال بكورفين رئيس المحطة السوفيتية في سفارة لندن لطلب المساعدة وانقاذه من ورطته.

عند هذا الحد من الاعتراف لم يطيل المحققون عملية الاستجواب وقرروا التوقف عن ذلك وتأجيل اتخاذ القرار الى ما بعد عطلة نهاية الأسبوع وابلغوا جورج بليك بأنه حر في قضاء عطلة نهاية الأسبوع في اي مكان يختاره على ان يكون جاهزاً للاستدعاء في اي وقت في الاسبوع التالي.

غادر بليك مقر دائرة الاستجواب ليتجه لقضاء العطلة في احد المنازل الريفية التي حددها أعضاء لجنة التحقيق. إلى ان كان صباح الاثنين 10 ابريل عندما طرق باب غرفة نومه اثنان من ضباط الشرطة السرية من جهاز القسم المخصوص Special Branch قدما نفسيهما اليه باسم لويس جيل Louis Gale وفيرجسون سميث Ferguson Smith (وهي في الغالب اسماء مستعارة) لحظتها ادرك جورك بليك قرار اللجنة، وحجم الاتهام الموجه اليه.

وفي الثالث من مايو عام 1961 قُدم جورج بليك الى محكمة الجنايات العليا (الأولد بيللي) وخلال جلسة سرية واحدة اعترف خلالها بجرمه وصدر ضده الحكم بالسجن 42 عاماً.

وعقب ابلاغه برفض الطعن في الحكم الصادر ضده خلال الأسابيع الأولى من ايداعه سجن وورم وود سكرابس Wormwood Scrubs المطل على شارع ديكان رود غرب لندن استقبل كل من تيرانس ليكي ممثل جهاز الخدمات السرية SIS وتوني هينلي Tony Hen-ley كبير المحققين في جهاز مخابرات MI5 (والذي استخدم اسماً مستعاراً في الزيارة هو هيلي Healey) حيث طلب منه التعاون مرة اخرى في الادلاء ببعض المعلومات حول هويات ضباط المخابرات السوفيتية الذين تابعوا نشاطه في السنوات الأخيرة.

وللغرابة وجدوا في جورج بليك استعداداً كاملا للتعاون حيث أرشد عن نيكولاي كورفين Nikolai Korvin، وفاسيلي دوزداليف Vassili Dozhdalov السكرتير الأول في السفارة السوفيتية بلندن منذ عام 1955 وسيرجي كوندراشيف Sergi Kondrashev الملحق الدبلوماسي في السفارات السوفيتية بفيينا، وبون حتى عام 1962.

وخلال فترة التعاون والزيارات المتكررة من عضوي جهازي المخابرات البريطانية لجورج بليك في سجن وورم وود سكرابس وحتى نهاية سبتمبر عام 1962 واصل بليك اعترافاته بتصوير كافة المستندات والوثائق والتقارير السرية التي كانت تتوفر لديه خلال عمله بالمخابرات البريطانية وتقديمها الى رؤسائه في جهاز المخابرات السوفيتية اولاً بأول. وكان بذلك وبطريقة غير مباشرة يؤكد لزواره حجم الدمار المروع الذي الحقه بأجهزة المخابرات البريطانية طوال سنوات تجسسه عليها لحساب السوفييت وحتى الحاق الصدمة الأكثر ترويعاً بهروبه من لندن وظهوره في موسكو.

دراما العمالة والدم في عملية تدمير المفاعل النووي العراقي

طوال اكثر من 25 عاماً داخل عالم الصحافة اكتسبت خلالها القدرة على عدم رفض اي معلومة تقفز في سطور كتاب او اعمدة صحيفة او الاستماع اليها نم احدى محطات الإذاعة العربية والعالمية او من يتطوع بسرد حكايته الخاصة على اسماع اي محرر في صحيفة يجد لديه من الوقت لإعطائه اذن صاغية.

وبغض النظر عن ان تكون هذه المعلومة او الحكاية صحيحة او مختلقة فهي في النهاية خيط قد يقود الى حكايات اخرى او معلومات جديدة توفر المادة الخام لأي عمل صحفي اعد لكتابته... معظم الحكايا والمعلومات تسقط من الذاكرة بمضي الوقت، والبعض منها يبقى، يحفر مواقعه ببطء ويلح في اعادة النظر فيها من جديد وعندما يحين الوقت المناسب لذلك... والذي قد يستغرق سنوات قبل ان يبدأ التقاط الخيط ونسج الرواية من جديد وعلى ضوء ما اختزنته الذاكرة من معلومات ووفرته مضامين الكتب التي صدرت في ساحات النشر العالمية حول نفس المعلومة.

وحكاية الجاسوس العراقي بطرس حليم او مبعوث حكومة بغداد الى باريس في عام 1978 وما انتهت اليه وعلى يأدي رجال المخابرات الاسرائيلية (الموساد) واسراب طائرات F-15 وF-16 في 7 يونيو عام 1981 عندما قصفت منشآت المجمع النووي العراقي تموز 17 (أوزيراك) في ضاحية التوثيه خارج العاصمة العراقية وفي اكبر العمليات التي نفذتها المخابرات الاسرائيلية ضد المنشآت النووية لدولة عربية وعرفت باسم «عملية ابو الهول» تظل حكاية تروى للأجيال العربية الحاضرة والمقبلة، وتُلقي بها الأضواء على ما يمكن أن يسببه جاسوس باع مصالح امته لحساب العدو ومن اجل حفنة فرنكات او دولارات مهما بلغت قيمتها تسقط معه في النهاية في واحدة من مزابل التاريخ.

... ...

بدأت رواية حليم بطرس عندما بعثت به المخابرات العراقية بصحبة زوجته سميرة الى باريس في الاسابيع الاخيرة من عام 1978 ليعمل في مكتب الاتصال العراقي المشرف على تنفيذ صفقة شراء المعدات النووية وتنشيط شحنات من اليورانيوم في المعامل الفرنسية. ولم

تهمل المخابرات العراقية تأكيد تعليماتها للخبير العلمي العراقي الشاب (35 عاماً) بطرس حليم بمراعاة السرية الشديدة في تحركاته واتصالاته مع الآخرين وبعد فترة اعداد وتدريب طويلة داخل مراكز المخابرات في بغداد ليكون رجلها المعتمد عليه في اكبر صفقة تعلق عليها الحكومة العراقية آمالها الكبيرة في تصنيع قنبلتها النووية الأولى.

وكأي عميل يحمل على عاتقه مسئوليات مثل تلك المهمة التزم بطرس حليم تنفيذ تعليمات موجهيه في المخابرات العراقية بدقة، كما كبتت زوجته سميرة مشاعر الأنثى وتطلعاتها وانبهارها بالنقلة الكبيرة التي قطعتها من بغداد الى باريس واساليب الحياة وايقاعاتها المختلفة في المجتمع الفرنسي عن ما تعودت عليه في بلادها. في الوقت الذي حرص فيه «حليم» على ممارسة رحلته اليومية من مسكنه في احدى ضواحي باريس الى قلبها وبإحدى سيارات المواصلات العامة من محطة اتوبيس فيلاجيف.

من هذه المحطة كان خطان للسيارات يتوقفان امامها، احدهما خط محلي يقطع شوارع الضاحية والآخر خط يتبع هيئة النقل العامة RATP وينتهي في قلب العاصمة الفرنسية. وكان على حليم ان يستقل الخط المباشر مع تغييره من حين الى آخر في منتصف الطريق وحتى يتجنب احتمالات مطاردته من عملاء اجهزة المخابرات الفرنسية او الاجنبية.

ومن نقطة البداية «فيلاجيف» لم تخطئ عيناه بعد اسابيع قليلة تلك الحسناء الفرنسية الباهرة الجمال وملابسها الباريسية الضيقة وعينيها السابحة بألوان مياه البحيرات الصافية الزرقاء بين بعض الوجوه من الركاب المحليين الذين ينتظرون وصول احدى سيارات النقل العام في الصباح الباكر.

في بعض الأحيان كانت الحسناء تشاركه ركوب نفس السيارة ومغادرتها بعد عدة محطات قبل وصوله الى قلب المدينة. وفي احيان اخرى كان يلاحظ توقف احدى سيارات الفيراري الحمراء امام محطة الأتوبيس لالتقاط الحسناء والانطلاق بها في سرعة الصاروخ.

ولكن مثل تلك المشاهد ما كانت لتحتل حيزاً كبيراً من تفكير بطرس حليم بقدر ما كانت تشكل عاملاً من عوامل الإحباط بعد ان يمني نفسه بطول فترة توقفها على محطة الانتظار او مشاركته رحلة الطريق التي يقطعها غارقاً في وحدته والى ان يصل الى محطة قطارات الانفاق سان لازار Saint Lazar حيث يستكمل فيها رحلته الى منطقة سارسيل Sarcelles شمال باريس التي يوجد بها مكتب الاتصال العراقي المشرف على تنفيذ اضخم البرامج السرية لحكومة بغداد وفي بنائها لأحدث مفاعلاتها النووية بمساعدة فرنسية.

وفي احد الأيام واثناء انتظار حليم لسيارة الأوتوبيس في محطة البداية فيلاجيف وصلت سيارة الأوتوبيس الثانية حيث اسرعت الحسناء بركوبها والاختفاء عن انظار حليم قبل ان تصل سيارة الفيراري الحمراء وتتوقف امام حليم مباشرة. وبصعوبة شديدة انطلق حليم ليبلغ قائدها بلغة انجليزية ان صديقته قد رحلت قبل دقائق في سيارة الأوتوبيس. ورد عليه قائد السيارة بانجليزية متقنة ايضاً يشكره ويعرب عن اسفه لسبب العطلة التي واجهها في طريقه لالتقاط صديقته. ولكنه سأل حليم عن وجهته وتطوعه بتوصيله. واخبره حليم بأنه متجه الى محطة مادلين التي لا تبعد كثيراً عن محطة قطار سان لازار. واجاب قائد السيارة الذي تعرف عليه حليم فيما بعد باسم جاك دونافان بأنه أيضاً في الطريق الى نفس المكان والح في الرغبة بتوصيله.

كانت هذه هي البداية، والطعم السهل الذي ابتلعه حليم ليسقط في النهاية في مصيدة الفخ الذي نصبته المخابرات الاسرائيلية (الموساد) لرجل المخابرات العراقية في باريس وانتهت بحصول الموساد على اكبر جائزة حصلت عليها في حقبة الثمانينات. وتنفيذها لعملية «ابو الهول» السرية بإحكام ودقة متناهيتين واغلقت بها ملف المجمع النوي العراقي تموز (أوزيراك - 17)، عندما قصفت طائرات سلاح الجو الإسرائيلي منشآته في 7 يونيو عام 1981.

وكانت الحكومة الإسرائيلية وقبل الاعداد وتنفيذ هذه العملية قد بدأت تشعر بالقلق منذ أن وقعت الحكومة الفرنسية مع حكومة بغداد (ثاني اكبر الدول المصدرة لها البترول) على اتفاقية سرية تساهم في تزويد بغداد بأحدث المفاعلات النووية التي تمكنها من استخدامها - (وهكذا) - في الأغراض السلمية. وبمقتضى نصوص هذه الاتفاقية، وافق الفرنسيون على تزويد بغداد بـ 93 بالمائة من اليورانيوم النشط ومفاعلين نوويين ومعدات اخرى يتم تصنيعها في مراكز انتاج المعدات النووية والصناعات العسكرية الفرنسية في بييرلات Pierrelatte. كما وافقت الحكومة الفرنسية على بيع العراقيين أربع منظمات للطاقة تعمل بشحنة بلغ حجمها 15 رطل من اليورانيوم المخصب والكافي لصنع أربعة قنابل نووية كل منها في حجم القنبلة التي القيت على هيروشيما وناجازاكي في اليابان.

وفيما حاولت ادارة الرئيس الأمريكي الأسبق - آنذاك - جيمي كارتر معارضته هذه الاتفاقية والتدخل لإحباطها، الا ان الحكومة العراقية اصرت على تنفيذ الصفقة وبنود الاتفاقية بحذافيرها وعدم تدخل اي اطراف اخرى حتى ولو كانت الحكومة الامريكية او خبراء هيئة الطاقة النووية الدولية في الاشراف او التفتيش على ما يتم انتاجه لحسابها في المعامل النووية الفرنسية.

واسرع الرئيس العراقي صدام حسين في مؤتمر صحفي عقده في يوليو عام 1980 وفي مناسبة الاحتفالات بالذكرى السنوية لاستيلاء حزب البعث العراقي على السلطة في بلاده الى تعميق مخاوف الاسرائيليين والتلويح بتهديدهم عندما اشار الى ان «الدوائر الصهيونية في اوروبا ظلت ولسنوات طويلة تكيل المهانة والازدراء للأمة العربية ووصف شعوبها بالتخلف وعدم صلاحيتهم سوى لركوب الجمال في الصحراء، الآن قد اصبح على تلك الدوائر ادراك ان الشعوب العربية المنبوذة قد أصبحت على شفا انتاج اول قنابلها النووية وامتلاك القدرة على مواكبة روح العصر في عالم الاقوياء».

والواقع أن هذه الرسالة الواضحة التي اسرع الرئيس العراقي بطرحها على الرأي العام العالمي وزعماء المؤسسة الاسرائيلية الحاكمة في تل ابيب لم تكن بعيدة عن اهتمام منظمة المخابرات العسكرية الاسرائيلية آمان AMAN والتي كانت تواصل جمع المعلومات وزرع العملاء للتحقق من الاهتمامات العراقية بامتلاك الأسلحة النووية ومنذ اواخر السبعينات. وفي مذكرة «سرية للغاية» حملت شعار «اسود» Black ارسل الجنرال الاسرائيلي السابق تسفي زامير Tsvy Zamir ومدير جهاز المخابرات الاسرائيلية «الموساد»، الى ديفيد بيران رئيس وحدة التجنيد في منظمة مخابرات آمان "AMAN" يطلب فيها سرعة تزويده بالمعلومات التفصيلية عن حقيقة برامج التسليح النووي العراقية والاشواط التي قطعتها في هذا الخصوص.

ومن اجل الحصول على الصورة الكلية لتلك المراحل والأشواط العراقية استدعى تسفي بيران، مدير محطة المخابرات الاسرائيلية في باريس ديفيد ارابل David Arabel وبحثا معاً طوال يومين كافة الملفات الخاصة بأنشطة التسليح العراقية، كما كلفه بيران بإجراء مسح شامل مع مديرو محطات المخابرات الاسرائيلية في أوروبا والحصول على أقصى ما توفر لديهم من معلومات يحصلون عليها عبر شبكات العملاء المنتشرين من اعضاء الطوائف اليهودية والذين يتم اللقاء بهم عادة في مساكن تستأجرها المخابرات الاسرائيلية في العواصم الاوروبية ويطلق عليها مساكن العمليات (تمتلك المخابرات الاسرائيلية منها في باريس وحدها 50 مسكناً. كما تستأجر في لندن اكثر من 100 مسكناً تخصص لهذه الأغراض) بالاضافة الى ابرز النشطين من ابناء الطائفة اليهودية في باريس والذي يتخذ أسماً حركياً يعرف به هو جاك مارسيل Jacques Marcel ويعمل في دائرة الشئون الادارية للمجمع النووي الفرنسي في سارسيل Sarcelles. وطلب من مارسيل وعلى غير العادة الاسراع بالحصول على كافة المعلومات التي تضمها قوائم الشخصيات العراقية العاملة في مجمع سارسيل وخلفيات كل منهم وعلى وجه

السرعة. ولتأمين الحصول على القوائم المطلوبة من جاك مارسيل التقى معه احد عملاء الموساد العاملين في باريس والذين يطلق عليهم اللفظة العبرية كاتسا Katsa (أي جامعي المعلومات) وزوده بتعليماته وطلب وضع القوائم داخل حقيبة حديدية يتركها في الحقيبة الخلفية لسيارته في احد مواقف الانتظار امام الكلية العسكرية الفرنسية Ecole Millitaire في موعد محدد صباح اليوم التالي.

ولما كانت مواقف الانتظار في تلك الساحة عسيرة الحصول عليها طول ساعات النهار فقد استأجرت المخابرات الاسرائيلية احدى سيارات البيجو الحمراء التي وضعت في مكان للانتظار قبل الموعد المحدد بـ 24 ساعة حتى اذا حان وصول جاك مارسيل بسيارته التي تحوي حقيبة قوائم المعلومات تحركت السيارة البيجو لتخلي مكاناً لسيارة مارسيل والتي سيتركها ويختفي بعض الوقت حيث يحضر خلاله احد ضباط المخابرات الاسرائيلية ويقوم بالحصول عليها بعد ان يفتح الحقيبة بأحد المفاتيح المزدوجة.

وما ان حصل عملاء الموساد على القوائم حتى اسرعوا بها الى احد المقاهي المجاورة حيث جلس الاول على احدى الطاولات بينما اختفى الثاني بالملفات داخل دورة المياه، وهناك اسرع بإخراج آلة تصوير دقيقة ثبتها على حامل وبدأ في عملية تصويرالقوائم بسرعة ثم اخفاء الكاميرا ومغادرة المقهى في الوقت الذي كان فيه زميله يقف امام الحقيبة الخلفية لسيارة جاك مارسيل ويتهيأ لإعادة القوائم داخل الحقيبة الحديدية وفي عملية لم يستغرق اجراؤها اكثر من 15 دقيقة كانت كافيةلحصول المخابرات الاسرائيلية (الموساد) على المعلومات المطلوبة والاسراع بتسليمها الى رئيس المحطة في مبنى السفارة الاسرائيلية الذي بدأ في عملية تشفير المعلومات وإرسالها الى تل ابيب.

ويتبع رؤساء محطات المخابرات الاسرائيلية في سفاراتهم مع تعاملهم في ارسال تقاريرهم ذات الأهمية البالغة اساليب معقدة، فبعد ان يتم تخزينها في احدث اجهزة الكومبيوتر تتم المرحلة الأولى من برمجة المعلومات الواردة في تلك التقارير وتحويلها الى رموز رقمية، الأول خاص بالأحرف، والثاني خاص باللهجة المنطوقة للحروف في لغتها الأصلية.

وعلى سبيل المثال مع اسم عربي كـ «عبدالله» يقسم الى مقطعين «عبد» ويعطى مثلاً الرقم 7، فيما يعطى المقطع الثاني الرقم 21 (بعد تضعيف الرقم الأول ثلاث مرات) وهذه البرمجة الرمزية تتغير باستمرار طبقاً لأهمية المعلومات المرسلة وللنظام المتبع في تبادل الرسائل مع كل رئيس محطة ثلاث مرات في الأسبوع واحياناً برمجة جديدة كل يوم تختلف من مصدر

الارسال في كل عاصمة اوروبية غربية.

فيما يتقصر مضمون الرسالة الواحدة على نصل الرواية التي يسردها التقرير ويستكمل نصفها الآخر في الرسالة الثانية والتي قد يتم ارسالها في اليوم التالي وطبقاً للشفرة الجديدة التي ستتبع في هذا اليوم.

وبالنسبة لقوائم المعلومات الحافلة بأسماء العناصر العراقية في مكتب الاتصال بباريس والمشرفين على تنفيذ اتفاقية برامج التسليح النووي والتي حصلت عليها المخابرات الاسرائيلية بواسطة عميلهم في المجمع النووي الفرنسي في ساراسيل، ثم بثها من جهازي كومبيوتر مختلفين وبنظم برمجة مختلفة وعلى مرحلتين.

وما ان تسلم قسم المعلومات في القيادة العامة للمخابرات الاسرائيلية في تل ابيب هاتين الرسالتين والاحتفاظ بهما مختزنتين في كومبيوتر القسم، اعيد ارسالهما الى قسم الأبحاث والتحليل في القيادة، وكذلك الى منظمة المخابرات الاسرائيلية الداخلية «أمان» ـ AMAN.

واستغرقت عملية تحليل معلومات القوائم التي بعث بها رئيس محطة الموساد في باريس الى تل ابيب بعض الوقت نظرا لأن العراقيين الذين وردت اسماؤهم كان معظمهم من المتخصصين في الشئون العلمية ولا توجد لهم ملفات خاصة يُرجع إليها، فضلاً عن ان معظمهم كانوا يقيمون في مجمعات سكنية تحيطها منطقة عسكرية مجاورة للمجمع النووي في ساراسيل. الاسم الوحيد الذي انفرد عن بقية اسماء القائمة من رجال المخابرات العراقية في مكتب الاتصال بباريس بعنوان سكن منفصل كان بطرس حليم (42 عاماً) يقيم مع زوجته بلا اطفال «كان ذلك امراً غير عادي بالنسبة للعراقيين في مثل هذا السن وكشف لخبراء الموساد طبيعة العلاقة الزوجية التي تربط حليم بزوجته سميرة وأنها لم تكن سعيدة بالمرة.

مع هذا الكشف حددت الموساد هدفها الذي جاء في برقية عاجلة من تل أبيب الى باريس يطلب فيها رئيس المخابرات الاسرائيلية سرعة العمل على تجنيد بطرس حليم دون ابطاء.

وتنفيذاً لهذا الهدف والصيد الكبير تم استدعاء فريقين من رجال «الموساد» يطلق على الفريق الأول بالعبرية اسم ياريد Yarid اختصاراً لاسم الفريق المكلف بعمليات الموساد في الخارج، وكلف اعضاء هذا الفريق بإعداد تقارير تفصيلية عن تحركات بطرس حليم وزوجته سميرة وفيما اذا كانا تحت الرقابة المستمرة من المخابرات العراقية أو الفرنسية واستئجار مسكن مجاور لمسكن الهدف واتخاذه مركز متقدم لعمليات المتابعة والرقابة.

اما الفريق الثاني ويطلق عليه بالعبرية اسم نيفيوت Neviot فقد كلفت عناصره بالتسلل الى داخل مسكن بطرس حليم وزرع احدث اجهزة التصنت في كل مكان ومن غرفة النوم الى الحمام. وبعد أن عقد الفريقين عدة اجتماعات سرية مكثفة في تل ابيب طلب رئيس مجموعة ياريد تزويده بثلاث مجموعات من الرجال والنساء، تعمل اثنتان منهما في الخارج في ما تبقى المجموعة الثالثة في تل ابيب لتلقي التقارير والقيام بحلقة الاتصال مع القيادة العامة. وتضم كل مجموعة من هذه المجموعات تسعة افراد.

وطلب رئيس مجموعة نيفيوت نفس طلب زميله بتزويده بثلاث مجموعات تضم خبراء مدربين على فنون الحصول على المعلومات من المنشآت الثابتة، وتصوير الوثائق واقتحام المساكن وتفتيش محتويات الغرف الخاصة دون ترك اي آثار وامتلاك المهارة في الاختفاء عن انظار الآخرين او الاتصال بأي شخص يحتمل ان يتردد على المنطقة بأكملها. وعادة يزود أعضاء هذه المجموعة بالمفاتيح الأصلية لمعظم الفنادق الكبرى في العواصم الأوروبية الغربية كذلك المعرفة الوثيقة بنظم فتح ابواب غرف الفنادق التي تستخدم فيها البطاقات الالكترونية أو الرموز الرقمية وحتى احدث طرق فتح الابواب باستخدام بصمات الأصابع التي تتبعها بعض الفنادق الحديثة في باريس ولندن.

وما ان تم زرع اجهزة التصنت والمراقبة في مسرح العمليات «مسكن بطرس حليم» حتى بدأت عناصر المجموعتان الالمام بتفاصيل ما يحدث داخله وإرسال تقاريرهم الشاملة وشرائط التسجيل الى دائرة شيكيلوت Shickilut (التصنت والرصد) في تل ابيب.

ومع وصول شرائط التسجيل وتقارير التصنت لليوم الأول الى تل ابيب قرر رؤساء الدائرة هناك ارسال مجموعة ماراتس Marats من المتخصصين في اللهجات العراقية الى باريس حتى يكونوا على مقربة من مسرح العمليات وإرسال ترجمة دقيقة لما يحصلون عليه من معلومات الى رئيس محطة المخابرات الاسرائيلية في باريس

وتم اول اتصال للموساد مع مسكن الهدف بعد يومين من زرع اجهزة ومعدات التصنت، بإرسال حسناء جذابة قصيرة الشعر أنيقة المظهر عرفت باسم «دينا» عندما طرقت باب مسكن حليم حيث قدمت نفسها لزوجته سميرة باسم جاكلين التي تحترف بيع منتجات العطور الى ربات المنازل وبأسعار منخفضة عن بيع نفس المنتجات في المحلات العامة مقابل عمولة تحصل عليها من الموزع تستعين بها على تكاليف اقامتها ودراستها في احد معاهد العاصمة الفرنسية.

وفي مرحلة الاتصال الأولى كان كل المطلوب من عميلة المخابرات الاسرائيلية الاقتراب من مسكن الهدف والتعرف على زوجته سميرة واكتساب ثقتها واتقان المهمة التي اتخذتها شعار لنشاطها سواء من التزود بأعداد من زجاجات العطور الفاخرة ودفتر طلبيات مطبوع في اعلاه اسم الموزع ورقم تليفونه وعنوانه وهو أسم موجود وعنوان ثابت في احد ضواحي باريس ورقم التليفون صحيح يمكن لمن يطلبه ان يتلقى الرد العاجل بالاسم والعنوان والاستعداد لتلبية الطلبات الى المنازل.

وحتى لا تثير العميلة «دينا» أو جاكلين كما قدمت نفسها اي عوامل للشك في مهمتها قامت بطرق ابواب شقق البناية المكونة من ثلاث طوابق وحصلت من رباتها على طلبيات سجلتها في دفترها بعد ان حصلت على نصف ثمن الطلبية وعلى ان تتقاضى النصف الآخر عند التسليم والوعد بتقديم هدايا قيمة لتكرار الطلبيات مرة اخرى.

وكما كان متوقعاً فتحت لها سمير قلبها ومنحتها ثقتها بسرعة ودعتها الى داخل مسكنها لتناول فنجان من القهوة العراقية والفضفضة بما في صدرها من هموم وابلاغها وبلا معرفة سابقة كيف انها تعيسة في حياتها الزوجية، ولعنت امامها زوجها وكل الازواج الذين يهملون زوجاتهم، ويلقوا بهن في بحار الوحدة ومعاناة الاكتئاب.

ولم تنس الزوجة العراقية التعيسة سميرة ان تبلغ ضيفتها بائعة العطور «جاكلين» كيف انها من بنات احدى العائلات الكبيرة في بغداد وانها تستعين على حياتها في باريس وتكاليفها بالأموال التي تبعث بها اليها عائلتها والأهم انها ستطير الى بغداد بعد اسبوعين لتكون بجانب امها اثناء اجرائها لإحدى العمليات الجراحية. وأن ذلك سيتيح لها الابتعاد عن زوجها وتركه وحده و«على حريته»!

وتظاهرت الحسناء بائعة العطور «جاكلين» باستغرابها ومواساتها لسميرة، والحرص في مسلكها وحديثها معها على ان تبدو في مظهر الطالبة الجامعية القادمة من احدى مدن جنوب فرنسا للحياة في باريس ومعاناتها هي الأخرى تكاليف المعيشة المرتفعة وافتقاد الصديقات والأهل. بالاضافة الى حرص آخر استكملت به مهمتها في المرحلة الأولى بالطواف على بقية مساكن البناية تكرر ما فعلته مع سيمرة والوعد بالحضور مرة اخرى في اقرب وقت ممكن حاملة العطور المطلوبة!

وما ان غادرت دينا (جاكلين) مسرح العمليات حتى اسرعت الى احد من مساكن العمليات الذي تستأجره الموساد في باريس لتقدم تقريرها الى مسئول فريق مجموعة «يارد»

وتواجه عملية استجواب مضنية تكررت خلالها الأسئلة وترديد الاجابات عن سميرة. وكيف استقبلت اسلوبها في ترويج زجاجات العطور واي نوع منها كانت اكثر ميل اليه وانطباعاتها المباشرة عقب تقديم دينا (جاكلين) نفسها، وابرز الملاحظات التي جمعتها حول اسلوب حركتها داخل مسكنها واي المقاعد التي تفضل الجلوس عليها ومستوى ذوقها في اختيار الملابس التي كانت ترتديا في هذا اللقاء الأول والأهم كيف تطرقت الى الحديث عن حياتها الزوجية والافصاح عن عدم سعادتها مع زوجها.

كانت هذه التساؤلات وغيرها موضوع الاستجواب الذي تعرضت له دينا (جاكلين) عميلة الموساد وابرز العناصر التي اقتربت من مسرح العمليات لأول مرة وحتى يطمئن رئيس فريق «يارد» الى سلامة المرحلة الأولى من مراحل تنفيذ العملية برمتها قبل ان يبلغ جاكلين في نهاية الاستجوب قراره بضرورة العمل على اخراج سميرة من مسكنها واصطحابها في جولات في اسواق باريس خاصة وانها اثناء زيارة جاكلين اعربت لها عن عدم رضائها عن مصفف الشعر الذي تتردد عليه في منطقتها السكنية، واخفاقه في ايجاد الصبغة الملائمة لشعرها.

وفي زيارة جاكلين الثانية ـ التي تمت بعد مضي خمسة ايام على زيارتها الأولى لسميرة، ما ان استقبلتها داخل مسكنها حتى ابلغتها انها تحدثت عنها مع أندريه مصفف الشعر الذي تتردد عليه، وابدى ترحيبه بزيارتها له في الوق الذي تريد، واستعداده لإيجاد الصبغة التي تلائمها والتطوع بتسريحة مجانية في الزيارة الأولى لصالونه في قلب باريس.

وبينما سميرة لم تستطع اخفاء فرحتها بمساعدة جاكلين ووصفها بالصديقة الحقيقية في غربتها بالعاصمة الفرنسية، لاحقتها جاكلين بنبأ إحضار هديتها المجانية مع زجاجات العطور التي طلبتها، وأن هديتها لم تكن سوى حافظة صغيرة انيقة لمفاتيح المنزل ومن تصميم احد بيوت الأزياء الفرنسية الشهيرة. وفي حركة خفيفة وطبيعية قدمت جاكلين زجاجات العطور الى سميرة وطلبت منها اعطاءها مفاتيح المسكن لتضعها في الحافظة الأنيقة حتى تدربها على كيفية استعمالها الأمر الذي فعلته سميرة تلقائياً.

واثناء تجريتها لأنواع العطور ومعايشة فرحتها بها، كانت جاكلين المدربة ودون ان تلحظ سميرة قد قامت بفتح احدى علب الهدايا الصغيرة داخل حقيبتها وطبعت مفتاح المسكن في قطعة من الصلصال (البلاستوسين) جهزت من قبل داخل العلبة حيث احتفظت عليها بنسخ المفتاح واسرعت بإغلاقها ووضعها داخل الحقيبة واستكمال حديثها الشيق مع سميرة التي غمرتها السعادة بهدية جاكلين اليها ومساعداتها في الحصول على ارقى العطور بأسعار

منخفضة وايجاد مصفف الشعر الماهر الذي سيريحها من عمال الصالون المحلي في ضاحية مسكنها والأهم العثور على الصديقة الفرنسية التي ستفتح لها ابواب عاصمة بلادها وتنقذها من كآبة الوحدة وتعاستها الزوجية.

... ...

في هذه المرحلة التي اطمأن فيها فريق يارد لنجاح خطوتهم الأولى وتعميق الصداقة بين سميرة وجاكلين، كان فريق نيفيوت المكلف بزرع اجهزة التصنت ومتابعة ادق تفاصيل الأحاديث المتبادلة بين سميرة وزوجها حليم داخل المنزل قد عرفوا من هذه الأحاديث الموعد الحقيقي الذي ستطير فيه سميرة عائدة الى بغداد، وإبلاغ حليم لزوجته متى سيتوجه الى السفارة العراقية والالتقاء بموظفي جهاز المخابرات في محطتهم بباريس لتقديم تقريره اليهم.

وحتى هذه اللحظة لم تكن «الموساد» قد حددت الأسلوب الذي سيتم به تجنيد حليم أو الاطمئنان الى امكانية السيطرة عليه وتعاونه معهم اذا ما مضت مراحل خططهم بنجاح. ففي مثل هذه العمليات ومع صيد كبير مثل بطرس حليم الحاصل على تدريب مكثف من جهاز مخابرات بلاده يصبح الحرص الشديد وطرح عديد من الاحتمالات أمراً ضرورياً قبل الاقدام على اي خطوة قد تهدد العملية برمتها. وكان احد هذه الاحتمالات السعي الى تجنيد حليم عن طريق طرف عربي آخر "OTER". الا ان هذا الاحتمال استبعد نظراً لما يحمله من مخاطر ادخال عنصر عربي جديد يضاعف من مسئوليات «الموساد» بعمليات الرقابة وتشتيت الاهتمام. كمااستبعدت جاكلين كمفتاح لتجنيد «حليم» عبر صداقتها الوطيدة مع زوجته سميرة. فبعد زيارتين قامت بهما الى اندريه مصفف الشعر في قلب باريس انقلبت مشاعر سميرة تجاه جاكلين. حيث انفجرت في احدى الامسيات داخل مسكنها مع زوجها حليم وافصحت عن شكوكها حول نظرته لجاكلين وكيف انه لا يستطيع اخفاء اعجابه بها. وكأي زوجة حريصة على زوجها صرخت في وجهه: «لا تعتقد انني بلهاء لا افهم ماذا يدور برأسك كلما شاهدت جاكلين معي. انها ليست سوى بائعة متجولة ولست بحاجة الى بضاعتها بعد الآن كمالا ارى ضرورة في أستخدام ذكائك ضدي. فهذه البائعة لن تدخل مسكني بعد الآن....

وما ان سقطت هذه الاحتمالات من تفكير رجال الموساد في باريس، لم يبقى امامهم سوى خيار حسناء موقف الاوتوبيس «فيلاجيف» وصديقها قائد سيارة الفيراري جاك دونافان الذي سبق ان تبادل الحديث مع بطرس حليم امام محطة الأتوبيس وحمله معه الى محطة سان مارتن يوما ما.

... ...

في هذه الرحلة التي جمعت جاك دونافان احد عناصر الكاتسا Katsa من أبناء الطائفة اليهودية الفرنسية المتعاونين مع الموساد، وبطرس حليم لم يكشف حليم كثيراً عن هويته واكتفى بالزعم لقائد السيارة الفيراري الخفيف الظل والذي يتحدث الانجليزية بطلاقة بأنه طالب يدرس في احدى الجامعات الفرنسية على نفقة الحكومة العراقية وانه يقيم في تلك الضاحية التي التقيا فيها على احدى محطات الأوتوبيس مع زوجته، وأن الزوجة تستعد للسفر الى بغداد مما سيتيح له تناول طعامه في المطاعم الباريسية وان كان لا يتناول الشراب بسبب معتقداته الدينية كمسلم.

في المقابل استمع حليم من دونافان عن الخطوط العامة لعمله كسمسار يعمل في حقل التجارة الخارجية، وان الظروف قد تسمح يوماً ما بدعوته لزيارته في مسكنه الريفي على العشاء، وعندما تكون زوجته في زيارة لأهلها. وانتهى الحديث بوصولهما الى محطة سان مارتن في قلب باريس وتبادل عبارات الشكر بينهما.

في اليوم التالي شاهد حليم حسناء موقف الأوتوبيس في «فيلاجيف» وقائد سيارة الفيراري يقوم بالتقاطها والانطلاق بسرعة الصاروخ كما تعود رؤيتهما من قبل. اما في اليوم الثالث فقد وصلت سيارة الفيراري مرة اخرى دون ان يوفق قائدها في العثور على صديقته الحسناء، التي كانت قد استقلت الأوتوبيس قبل وصوله بدقائق. مرة أخرى يلقي دونافان على حليم تحية الصباح ويتطوع بتوصيله الى وجهته كما حدث في مرة سابقة.

وفي الطريق الى قلب المدينة كان المتحدث دونافان يعرب لرفيقه في رحلة الذهاب عن ضجره من حسناء الأوتوبيس وصداقتهما التي تحولت الى لون من الوان الابتزاز بعد ان اصبحت مطالبها لا تطاق. وكان حليم طوال ذلك يستمع ويبتسم بين الحين والآخر ولا يخفي بانفعالات وجهه اعجابه بالحسناء، ومقاطعة دونافان بتعليق قصير مثل: «كل الحسناوات مكلفات ونموذجاً. مثل صديقتك تستأهل ان تقدم اليها كنوز الأرض». وعندما يواصل دونافان حديثه لا يتجاهل تعليق حليم فيقول: «حقيقة ما تقول فهي انثى من طراز نادر خصوصاً في الفراش ولكن هناك من النساء كثيرات يتقن تلك الممارسات دون حاجة الى تحمل تكاليف باهظة». وينتهي هذا التعليق المتبادل بين الرجلين بدعوة دونفان لحليم على فنجان قهوة في احد المقاهي الباريسية قبل أن يتركه امام محطة قطارات سان مارتن.

ويخفي حليم عن زوجته سميرة امر صديقه الجديد دونافان والى ان تطير عائدة الى بغداد

فيما يصبح لقاء دونفان وحليم يتكرر بصورةيومية امام محطة اتوبيس فيلاجيف يقطعان رحلة الوصول الى المدينة داخل سيارة الفيراري ويتوقفان امام المقاهي لتناول فناجين القهوة. وفي احد الأيام ابلغ دونافان صديقه بأنه سيتغيب عن باريس عدة ايام يقوم خلالها برحلة عمل الى هولندا تستغرق عشرة أيام. ولا ينسى ان يعطيه بطاقة تحمل اسمه وعنوان مكتبه وارقام تليفوناته في قلب العاصمة الفرنسية فربما يحتاج الى بعض المساعدة اثناء تغيبه. ورغم أن بطاقة «دونافان» كانت جزء من السيناريو المحكم في المراحل الأولى لتجنيد حليم الا انها كانت معدة بإحكام شديد بحيث اذا لو فكر حليم في الاتصال بصاحبها او محاولة استكشاف موقع المكتب فسوف يجده كما هو مسجل على البطاقة يحمل لافتة بنفس الاسم وفي شقة صغيرة داخل احدى البنايات الباريسية، كما سيجد سكرتيرة رشيقة لا تقل جمالاً عن فتاة الاوتوبيس جاهزة للرد على استفساراته عن صديقه مستر دونافان وموعد عودته القريبة من رحلة العمل في هولندا كما سبق وان ابلغه.

في تلك الفترة التي انقطع فيها دونافان عن لقاء حليم وبالذريعة التي تحجج بها، يواصل داخل باريس اللقاء، مع اعضاء فريق يارد ونـيفيوت في احد مساكن العمليات ويقدم اليهم تقاريره التفصيلية التي ترد على التساؤلات الخمسة: «من وماذا واين ومتى ولماذا وبالقاعدة المتبعة في ابلاغ التقارير المعروفة باسم الخمسة حروف "Who, What, When, Where, Why" وعندما يتم استكمال التقرير وطبقاً لهذه القاعدة يعد منه نسخة تفصيلية يتم ارسالها مع احد العملاء الى مدير محطة الموساد داخل السفارة الاسرائيلية في باريس حيث تعد تقارير العمليات والمعلومات ليتم تشفيرها وارسالها منفصلة من جهازي كمبيوتر مختلفين الى قسم المعلومات التابع للسفارات في الخارج بمقر القيادة العامة للمخابرات الاسرائيلية «الموساد» في تل أبيب.

ومع غياب سميرة عن باريس أصبح حليم اكثر حرية وقضاء اطول وقت في المدينة يتردد خلاله على المطاعم والمقاهي ودور السينما والاستمتاع بوقته منفرداً. وفي احد الايام قام بالاتصال تليفونيا بصديقه جاك دونافان وترك رسالة مسجلة على التليفون ويطلب منه الاتصال به حين تسلمها.

وتعمد دونافان قضاء ثلاثة أيام اخرى قبل ان يقوم بالاتصال بحليم ويتفقان على موعد للقاء في المساء حيث اصر دونافان على دعوة صديقه الى احد الكاباريهات لتناول العشاء والاستمتاع بالعروض التي تقدم هناك. ولا حظ دونافان ان صديقه حليم قد اصبح يقبل على الشراب وانه كذلك يغض النظر عن التكاليف الباهظة لمثل هذه السهرات في علب الليل الباريسية والتي اصر دونافان على تحملها في دعوته الباذخة لحليم.

خلال هذه السهرة صارح دونافان صديقه حليم بأنه مشغول بصفقة شراء وتصدير كميتمن اكواخ الصفيح الى احدى بلدان افريقيا وانه من اجل اتمام هذه الصفقة سيقوم في عطلة نهاية الاسبوع برحلة سريعة الى مخزن احدى الشركات التي تبيع مثل هذه الأكواخ في مدينة طولون. وسأل حليم ان كانت لديه الرغبة في مصاحبته اذا لم يكن لديه ما يشغله في عطلة نهاية الأسبوع، ويتعرف بالمرة على لون جديد من الوان العمل الذي يمارسه وأسلوب عقد الصفقات التجاريه.

ولما كان الشراب قد اثقل رأس حليم وأصبح غارقاً في ضباب دخان الملهى وصخب الموسيقي ومتعة العشاء الفاخر مع صديقه الكريم جاك دونافان وافق على الفور وترك لصديقه سداد فاتورة العشاء والقيام بمهمته على اكمل وجه.

في مدينة طولون قضى الصديقان عطلة نهاية الأسبوع بعد أن اصطحبه دونافان الى احد المخازن المليئة بأكواخ الصفيح والالتقاء بصاحب المخزن الذي لم يكن سوى عميل آخر من عملاء الموساد متقمصاً شخصية البائع الشاطر الذي سيتخلص من 1200 كوخ صفيح للمشتري الانجليزي. والتقط حليم ملاحظة لم يستطع اخفاءها عن صديقه وهي ان معظم الأكواخ قد استشرى فيها الصدأ وأن عيباً مثل هذا يدفعه الى التنبيه اليه حتى يخفض من الثمن الذي سيسدده في مقابلها.

وتظاهر دونافان مع صاحب المخزن بعملية مساومة على السعر الاجمالي، وبين الرفض والالحاح قبل صاحب المخزن في النهاية الثمن الذي حدده دونافان وبعد الاستماع الى نصيحة حليم.

في طريق العودة الى باريس دعا دونافان حليم الى تناول العشاء في احد المطاعم وبعد تناول عدة كؤوس من الشراب اخرج دونافان من جيبه 1000 دولار الح على حليم قبولها كثمن لنصيحته الذكية التي قدمها اليه اثناء عقد صفقة اكواخ الصفيح والتأكيد له انه لولا وجوده معه لكان قد تحمل ثمناً باهظاً ولم يكتشف العيوب الكثيرة في واحدة من صفقاته التجارية.

وبعد الحاح قبل حليم مبلغ الـ 1000 دولار وشعر ان صداقته مع دونافان قد أصبحت اكثر من مربحة وان نصائحه قد قيمت لأول مرة بالمال. ولم يكن يدرك ـ آنذاك ـ بالطبع أن الدولارات الألف وقوائم حساب العشاء في بالمطاعم الفاخرة من خزائن الموساد وليست من

الجيب الخاص لجاك دونافان.

ومع قبوله لدولارات دونافان كان الصيد قد ابتلع الطعم بسهولة، وأصبح على الموساد المضي في المرحلة الثانية والحاسمة لتجنيد حليم والسيطرة عليه وبأسرع وقت ممكن.

في اليوم التالي اتصل دونافان بصديقه حليم ودعاه على العشاء في جناحه الخاص بفندق سوفتيل بالرقم 32 شارع سان دومنيك. كما دعا الى هذه الوليمة صديقته الفرنسية «ماري كلود ماجال» Marie Claude Magal. وفي انتظار حضور صحاف الطعام رن جرس الهاتف الذي التقطه دونافان وقام بإجراء حديث هامس انتهى بابلاغ حليم بأنه مضطر للذهاب الى موعد عمل هام اهمل وضعه في الحسبان رغم انه احضر معه من المكتب مجموعة من التلكسات التي تؤكد ذلك الموعد في المساء واشار الى بعض الأوراق المنثورة على احدى المناضد. وطلب من حليم وماري الاستمتاع بالعشاء وعدم القلق اذا ما تأخر عنهما بعد انتهاء لقاء العمل.

وكأنما كانت مغادرة دونافان للجناح املأ يجول بصدر حليم وماري اذ انطلقا في الاستمتاع بوقتهما وتناول العشاء الفاخر واحتساء كؤوس الشراب بنهم والغرق في بحار اللذة في الفراش الوثير الذي اعدته الموساد داخل فندق سوفتيل للصيد والطعم وصورت تفاصيله بكاميرات سرية زرعت داخل الجناح. ولم يكن الهدف من تصوير الصيد العراقي هو الابتزاز وتشويه السمعة - وهما امران واردان - بقدر توظيف ذلك في العملية الأكبر وختام مرحلة تشريح شخصية ودراساتها على ايدي الخبراء النفسيين تمهيداً للعثور على المفتاح الصحيح للسيطرة عليه وتجنيده نهائياً بالعمل لحساب الموساد في الوقت الذي تم فيه تجهيز احد علماء الذرة الاسرائيليين لاقحامه الى مسرح العملية عندما يحين الدخول في حلقة جديدة من حلقات سلسلة تنفيذها بدقة واحكام شديدين.

وبعد يومين من مضي سهرة العسل وليلة المتعة التي غرق فيها حليم في احضان ماري كلود ماجال تمتص في ساعاتها آخر انفاس رجولته ومقاومته اتصل دونافان بحليم تليفونيا يدعوه الى لقاء في احد مقاهي باريس.

ولما كانت الدعوة مشوبة بالعبارات القصيرة القاطعة، فقد خالجت حليم مشاعر القلق من مواجهة صديقة واحتمال لجوئه الى تصفية حساب الصراع على فراش احدى العاهرات. على ان ذلك الهاجس الذي سيطر على حليم منذ ان تلقى مكالمة دونافان وطوال الطريق الى لقائه لم يكن ابدأ احد اسباب لغة الحسم التي استخدمها دونافان في طلب لقاء حليم بأحد المقاهي

الباريسية.

فالعاهرة ماري ماجال قد قامت بدورها طبقاً للسيناريو الموضوع مسبقاً، وساعات المتعة وبحار الجنس التي سبح فيها حليم داخل جناح دونافان بفندق سوفتيل قبل ايام كانت كذلك قد رسمت بدقة واخذت في الاعتبار كما تم التعمد ترك صور رسائل التليكس كي يطلع عليها حليم مبعثرة على احدى المناضد في مكان تصوير احد مشاهد حلقات اخضاعه.

في لمقهى وحول فناجين القهوة الساخنة فاجئ دونافان صديقة العراقي بطرق موضوع آخر يفتح به شهيته على الدخول في عوالم رجال الأعمال. وأنه بصدد عقد صفقة تجارية ضخمة مع احدى الشركات الالمانية لشراء كمية من مواسير الغاز المستخدمة في شحن المواد المشعة للأغراض الطبية وان قيمتها والأرباح التي ستدرها لم تكن تجول بأحلامه من قبل ولذا فهو يشعر بالحيرة امام اتمامها وايجاد الوسيلة التي يتعامل بها مع الوسيط الانجليزي للشركة الالمانية والذي يتفاوض معه في تفاصيلها. وبينما استغرب حليم سماعه لرواية دونافان قاطعه بسؤاله: وكيف يمكنني مساعدتك لإيجاد هذه الوسيلة؟

رد دونافان: «اعرف انك لا تستطيع ولكنني انفس عما في صدري من هموم، فأنا لا اثق في احد سواك، وقيمة الصفقة كبيرة ومعلوماتي محدودة عن مواسير الغاز المشع فضلاً عن ان الوسيط يطلب عمولة باهظة واجدني عاجز عن التفكير وحدي في كيفية التعامل معه».

قاطعه حليم: «ولكنني يا صديقة العزيز استطيع مساعدتك في تقدير القيمة الحقيقية لهذه المواسير وفتح الطريق امامك للتفاوض مع الوسيط الانجليزي مسلحاً بالمعلومات الدقيقة حول كفاءتها.

رد دونافان: «ولكنك مثلي ان لم تكن اقل دراية بمثل هذه السلع التجارية العلمية؟...

ضحك حليم ملأ شدقيه وقال: «ومن قال لك هذا؟»...

رد دونافان: «انت نفسك الست طالباً، والصفقة التي احدثك عنها تحتاج الى عالم في نقل الغازات المشعة حتى يقيمها؟؟

اجاب حليم بثقة وبعد ان اتخذ وضعاً يمنح به نفسه هالة الخبير: «لقد قلت لك اني طالبي في البداية ولكنني في الحقيقة عالم نووي ارسلتني الحكومة العراقية في مهمة ثقيلة الوطأة وحساسة الى باريس للإشراف على احد مشاريعها السرية المشتركة مع الحكومة الفرنسية. واعتقد انه بإمكاني مساعدتك كثيراً في صفقة عمرك مع الشركة الالمانية ووسيطها الانجليزي.

في تلك اللحظات كان مزيج الدهشة والدهاء يكسوان ملامح دونافان وتتصاعد داخل صدره موجات الفرح المكتوم بعد أن اعترف صيده بهويته الحقيقة التي يسجلها ادق شرائط التسجيل في جهاز صغير احتفظ به في احد جيوب سترته. وبعد ان زفر نفساً عميقاً قال لحليم: «اذن لقد اتفقنا مبدئياً والآن اسمعني بدقة لقد حددت موعداً للقاء الوسيط الانجليزي في امستردام خلال عطلة نهاية الأسبوع حيث سأطير الى هناك ويمكنك ان تلحقني الى العنوان الذي سأتركه معك الآن بعد أن ابعث اليك بطائرتي الخاصة لتحضر احد لقاءاتنا وتساعدني في المراحل الاخيرة من محادثاتي معه. وكم سيكون ذلك عملاً ضخماً يكلل بالنجاح تعاوننا المشترك. ولن تندم كثيراً على مساعدتك لأن نجاح الصفقة سيدر عليك انت الآخر رزمة ضخمة من الدولارات ... نصيبك في اتمام محادثاتها وابرام التعاقد مع الشركة الالمانية».

وفي الوقت الذي كان يجري فيه ذلك الحديث بين دونافان وحليم في احد مقاهي باريس كانت طائرة ركاب اسرائيلية صغيرة قد طارت من تل ابيب الى العاصمة الفرنسية بعد ان ازيلت علاماتها وتم طلاؤها باللون الأبيض وتثبيت العلامات الدالة على الاسم المفتعل لشركة رجل الأعمال الانجليزي دونافان. وليجد فيها حليم بعد يام عندما استقلها ملمحاً من ملامح عالم رجال الأعمال الذي دخله بأقدامه محاطاً بأبهة من يعقدون الصفقات التجارية الكبرى.

في مطار امستردام كانت احدى سيارات الليموزين في انتظاره اسفل سلم الطائرة حيث اقلته الى احد مكاتب رجال الأعمال في قلب المدينة (والذي لم يكن سوى مكتب مقاول يهودي ثري استأجرته الموساد لإتمام مشاهد اخرى من سيناريو تجنيد بطرس حليم واضفاء مزيد من المصداقية على عمليته حيث انتظره داخل المكتب اثنان من الرجل اللذين اتسما بهوية رجال الأعمال. كان احدهما عميل يهودي للموساد في امستردام يدعى ايزاك اما الآخر والذي قدم نفسه كممثل للشركة الألمانية فلم يكن سوى احد خبراء الطاقة النووية الاسرائيليين ويدعى بنيامين جولد شتاين. حمل معه احدى انابيب حمل الغازات المشعة كعينة لشحنة المواسير التي سيتم التعاقد عليها مع دونافان كي يختبرها حليم ليؤكد صلاحيتها.

وعقب انتهاء موجة الترحيب التي اطلقها ايزاك وجولدشتاين بوصول حليم الى امستردام بحضور دونافان تركهم الاخيرة معتذراً بلقاء عمل سيجريه مع احد رجال الأعمال في امستردام وحتى يترك لهم حرية فحص العينات والتوصل الى قرار بشأنها ودون اهمال الإعراب عن ثقته في صديقه حليم الذي سيقوم بالمهمة على خير وجه الأمر الذي اثلج صدر الصيد العراقي والتأكيد لدونافان بأن هذه المسائل الفنية مهمته وحده ولن يتأخر في طرحها مع ممثلي الشركة الالمانية ووسيطها.

واستغرقت محادثات الثلاثة عدة ساعات انتهت بما هو متوقع من الاتفاق على اتمام الصفقة لحساب دونافان. غير ان بنيامين جولدشتاين لم يخف على حليم اعجابه بمعلوماته الدقيقة عن مثل هذه المواد العلمية وخبرته الواسعة التي لم يبخل بإظهارها في محادثاته معه. ودعاه في النهاية الى العشاء في احد المطاعم الفاخرة بمدينة امستردام وبحضور الوسيط وابلاغه اعتذار دونافان عن مشاركتهما العشاء لانشغاله في عشاء آخر مع حسناء هولندية.

... ...

على مائدة العشاء وبعد ان تبادل الرجل الثلاثة انخاب الاحتفال بتوقيع صفقة لحساب دونافان، بدأ جولدشتاين بطرق الحديد الساخن ويفاتح حليم بانه والوسيط يسعيان الى بيع احد المفاعلات النووية الحديثة لاحدى بلدان العالم الثالث وانهما سيحتاجانه بخبراته الواسعة للدخول طرفاً في ابرام مثل هذ هالصفقة الجديدة، وان موقعه كخبير لبلاده في احد برامجها النووية مع فرنسا سوف تساعدهما بكل المقاييس في اتمام تلك الصفقة وغيرها وان ذلك سيفتح له الأبواب العريضة لاحتلال مكانة كخبير دولي ورجل اعمال من الطراز الأول بالإضافة الى الثروة التي ستهبط عليه من شراكته معهما وفقط كل المطلوب منه هو اخفاء ذلك عن دونافان وحتى لا يقفز بطلب حصته في اي صفقة يعقدونها. وتظاهر حليم بالدفاع عن قيم الوفاء للأصدقاء وعدم رضاه عن القيام بصفقات تجارية من وراء ظهر دونافان الذي سبق له ان فتح معه عالم التجارة.

ولكن جولدشتاين العالم النووي الاسرائيلي واليهودي الخبيث سخر من حديث حليم عن وفاء الأصدقاء، ورد عليه قائلاً: «يا عزيزي حليم ليس في ساحة الصفقات التجارية عملة اسمها الوفاء، كمالا تربط رجال الأعمال اي روابط سوى المصالح. ومصلحتك الحقيقية وايضاً مصلحتنا ان نكتم اسرار عملياتنا المشتركة حتى عن اقرب الناس الينا حتى تكلل بالنجاح ونحقق من خلالها ما نطمح اليه من ثروة. ان عالمنا الحقيق يختلف عن عالم موظفي الحكومات او اصدقاء الحي الواحد. فأنت عراقي وانا الماني وصديقنا انجليزي ومع ذلك تجمعنا مصالح واحدة ولن يعرف احد اسرارنا حتى ولا دونافان الذي قدمك لنا. وكل المطلوب منك هو ان تزودنا بالمعلومات التفصيلية عن المفاعل النووي الفرنسي الذي تشرف عليه لحساب حكومة بلادك ولاتخاذه نموذجاً للمفاعلات التي سنقوم بتسويقها في بلدان العالم الثالث وسوف توزع حصص المكافآت المالية التي تقدمها شركتنا الالمانية علينا بالتساوي.

في اليوم التالي لحفل العشاء وبعد أن تم تعميد بطرس حليم عميلاً رسمياً للمخابرات

الاسرائيلية واتمام صفقة الاتفاق معه، التقى به دونافان وفي دعوة اخرى على العشاء سلمه 8 آلاف دولار مكافأة له على مساعدته في اتمام صفقة شراء انابيب الغاز المشع. وبانتهاء العشاء كان حليم يغادر المطعم بصحبة حسناء هولندية متجها الى فندقه بينما كان دونافان يودعه وعلى امل في اللقاء عقب عودته الى باريس كما ترك له احد ارقام التليفونات في لندن للاتصال به هناك اذا لم يعثر عليه في باريس.

... ...

في تلك اللحظات... وفي الحقيقة كان دور دونافان قد انتهى من مسرح الاحداث وقررت المخابرات الاسرائيلية سحبه واخفائه عن انظار بطرس حليم او اي دور آخر لم تكن الموساد بحاجة الى دونافان القيام به.

... ...

بعد يومين من عودة بطرس حليم الى باريس بدأت لقاءاته مع ايزاك الذي سبق التعرف عليه عندما هبط الى امستردام كوسيط وهمي للشركة الالمانيةولم يكن سوى احد عملاء الكاتسا من ابناء الجالية اليهودية في فرنسا وقواعد الموساد في العواصم الغربية. وعلى الرغم من ان ايزاك كان نموذج آخر مثل دونافان الا انه كان اكثر صراحة ووضوحاً كعميل يرغب في قطع خطوات تنفيذ مهمته بأقصى سرعة، ولذا بدأ يحدد مع حليم برنامج عمله وطلباته حول تصميمات المفاعل النووي العراقي وموقعه، والمسافة التي تفصله عن بغداد وطاقة عمله والمواعيد الدقيقة لاستكمال مراحله. كما بدأ بنيامين جولدشتاين المتظاهر بصفة ممثل الشركة الالمانية يدربه على أسلب نسخ الوثائق بالأوراق العادية واستخدام انواع خاصة منها اذا ما وضعت فوق الوثيقة المطلوب نسخها عدة ساعات انتقلت اليا ادق التفاصيل الأصلية دون ان يلحظ احد خطورة الورقة التي تبدو عادية فوقها. ولكن وبعد معالجتها يتم الحصول عى صورة دقيقة من الوثيقة الأصلية.

... ...

في البداية تحول حليم الى ما يشبه الخاتم في اصابع مدربيه الاسرائيليين يتبادلانه بهدوء وسرعة ويتسجيب بطاعة عمياء لكافة طلباتهما من المعلومات عن اسرار مشاريع بلاده النووية التي تنفذ برامجها السرية في فرنسا وفي مقابل مكافآت مالية سخية يتسلمها في نهاية كل مرحلة الا ان بعض العلامات والمشاعر بدأت تطرأ عليه كردود افعال اي جاسوس تعتمل في

صدره مختلف العوامل والانفعالات "Spy Reaction" يصاب بالارتباك وبرودة الاطراف فجأة كما تجتاح رأسه سخونة وصداع حاد وحرارة مرتفعة تشمل جسده كله وتفقده القدرة على النوم او الشعور الطبيعي بالراحة والمظاهر المرضية النفسية التي يسببها الخوف الدفين من اكتشاف سره وما يستتبعه من فضيحة تنتهي بعدة رصاصات أو على حبل المشنقة.

وعندما أصبحت حالة حليم هاجساً وعبئاً ثقيلاً يقض مضجعه بحث في اوراق مفكرته عن ارقام تليفونات دونافان في باريس ولندن واستعرض علاقاته مع كبار المسئولين في بلاده وكذلك زملائه واصدقائه من الفرنسيين العاملين معه في سارسيل ومواقع تنفيذ البرنامج العراقي السري. ولكنه استقر في النهاية على ان صديقه دونافان هو الوحيد القادر على تخليصه من ورطته. فذكر رسالة قصيرة على آلة تسجيل المكالمات الهاتفية بعد الاتصال بدونافان في لندن متوسلاً اليه مساعدته في المأزق الحاد الذي يواجهه وعدم قدرت على اعطاء مزيد من التفاصيل هاتفياً وقبل لقائهما.

وسرعان ما جاءه الرد هاتفياً من دونافان مؤكداً له قرب حضوره بعد يومين وسعادته باتصاله به وانه سيكون في جناح بفندق سوفتيل خلال ثمانية وأربعين ساعة.

وما ان التقى حليم مع دونافان حتى القى برأسه على صدره وأجهش بالبكاء، للحظات حاول خلالها دونافان ان يهدئ من روعه واعطائه آذان صاغية وبدأ حليم يقول: «لقد وقعت في مصيدة». وبدأ يعترف بتفاصيل سره مع ممثل الشركة الالمانية ووسيطها في امستردام واكتشافه للمصيدة التي اعدا احكامها للإيقاع به داخلها مقابل الدفعات المالية السخية التي بدأ يغدقان بها عليه.

وحاول حليم ان يبرر مأزقه وانه محصلة لضغوط زوجته سميرة عليه وطلباتها التي لا تنتهي ويكاد يحوله غباؤه الى ضحية في مصيدة لا يرى فيها منفذاً للهرب. وبعد ان استمع دونافان لصديقه وتعمده ابداء استغرابه ودهشته لما يسمع طمأن حليم واكد له ان عالم رجال الأعمال مليء بمثل هؤلاء الذين يسعون الى توريطه وانه يعتقد بان ممثل الشركة الالمانية ووسيطها يعملان لصالح المخابرات المركزية الأمريكية CIA، ولكن ذلك لن يتأكد الا اذا قام بالتحري عنهما عبر اصدقائه وصلاته الواسعة في كل من باريس ولندن وامستردام، فقط عليه أن يمنحه مزيداً من الثقة كي يخرجه من هذه الورطة والسحابة العابرة.

كان حليم يستمع الى صديقه دونافان في هدوء وتتسلل اليه مشاعرالاطمئنان عندما اقترح دونافان ان يهبطا من الفندق الى احد النوادي الليلية والاستمتاع بليلة اخرى من ليالي

الاصدقاء الأعزاء انتهت بوعد من دونافان لصديقه بضرورة التوصل الى معرفة سر الرجلين ومغادرة حليم للمطعم بصحبة حسناء اختارها له دونافان وحسده له على الساعات التي سيقضيها معها.

وعقب مضي خمسة اشهر على تلك الليلة، واصل خلالها حليم لقاءاته مع جولدشتاين وايزاك وتنفيذ كل ما يطلب منه عاد دونافان للظهور مرة اخرى متصلاً بحليم ليبلغه ان صديقيه جولدشتاين وايزاك ليسا سوى من رجال المخابرات المركزية الأمريكية CIA وأن هذا هو احد اساليب الامريكان في الحصول على المعلومات مقابل اموالهم السخية.

ورغم اطمئنان حليم الى ما ذكره صديقه دونافان الا انه لم يكبت مخاوفه واحتمالات أن تقوده معرفة اتصالاته معهما الى حبل المشنقة. وهنا ضحك دونافان ملأ شدقيه وربت على ظهر صديقه حليم وقال: «ما عليك يا عزيز وهدئ من روعك، حقيقة قد تنتهي الى حبل المشنقة ولكن ليس مع الامريكان فما ان تنتهي مهمتهما معك لن تراهم مرة اخرى، وربما كان الوضع اسوأ والورطة بلا مخرج لو انهما كانا يعملان لحساب الاسرائيليين واجهزة الموساد وهما ليسا كذلك كما اكد له اصدقاؤه ومعارفه في اوساط رجال الأعمال في لندن وامستردام وباريس».

ويعود حليم يسأل صديقه دونافان بعد أن هدئ من مخاوفه: «ترى ماذا يمكنني ان اقدم لهما من معلومات اضافية بعد ان قدمت ما اعرفه؟».

اجاب دونافان عل الفور كمن كان ينتظر سؤال فريسته المذعور: «لا اعرف بالضبط ماذا لديك من الكثير الذي تقدمه ولكنني اعتقد ان هناك حلقة واحدة يسعيان الى معرفتها اذا ما كشفت عنها اللثام».

سأل حليم متردداً: «وما هي في رأيك؟».

هنا تظاهر دونافان بالعبث في حقيبة أوراق كان يحملها معه واخرج ورقة خالية راح يسجل عليها بقلمه ويقرأ من خواطره: «آه ان ما يسعى اليه صديقيك جولدشتاين وايزاك نقطة واحدة، وهي ماذا سيكون رد فعل العراقيين عندما يعرض عليهم الفرنسيون بديل آخر لتخصيب اليورانيوم. ما هو ذلك البديل؟ وماذا يطلقون عليه؟ وهل هو مادة كاراميل -Cara mel؟ وإذا كنت تعرف اسمه فلماذا لا تخبرهم؟ اعتقد انك اذا فعلت فلن يعودوا الى الالحاح عليك مرة اخرى فهم لا يرغبون في ايذائك وكل ما ينتظرونه منك معلوماتك عن هذه البدائل فقط لماذا لا تقدمه لهم وتنقطع بعد ذلك صلتك بهم وتريح نفسك من عناء تلك اللعبة السقيمة

والى الابد؟».

ويتنفس حليم بعمق ويشعر امام صديقه دونافان انه قد عثر بمساعدته على ثغرة خروجه من الورطة بأكملها ويقول: «إذا كان ذلك هو ما يرغبون سماعه فهو امر سهل فبعد ايام سيصل الى باريس العالم النووي المصري الدكتور يحيى المشد ليقوم بالتفتيش على ما انجز من البرنامج النووي العراقي مع الفرنسيين وسيقرر بعد ذلك موقف الحكومة العراقية من بدائل التخصيب التي يعرفها الخبراء الفرنسيون والمضي في المراحل التالية ويمكنني معرفة كافة المعلومات والقرارات التي ستتخذ في هذا الشأن».

ويمضي الحوار على مائدة العشار أشبه بالاستجواب المحكم من دونافان لحليم فيسأل: «وهل ستلتقي مع الدكتور يحيى المشد هذا وما هي حدود معرفتك به؟».

يجيب حليم: «بالطبع سألتقي به وكذلك جميع الخبراء العراقيين العاملين في مشروع ساراسيل بالاضافة الى لقاءاتي الخاصة معه اذ تربطني معه علاقة صداقة وطيدة تسمح لنا بتبادل كافة المعلومات».

يقاطعه دونافات: «هذا رائع وسوف تتمكن في النهاية من وضع حد لمخاوفك ومتاعبك الى الابد مع رجلي المخابرات الامريكية. والآن دعنا نشرب نخب صداقتنا وننسى تلك المتاعب التي حلقت على رأسك وكادت تسلمك الى اليأس. لا يوجد في هذا العالم من مشكلة الا ولها حل مهما كان حجمها.وما اطلقت عليه ورطة ليست سوى ازمات عارضة يتعرض لها رجال الأعمال بين الحين والآخر. وعليك ان تحمد الله ان لك صديقاً مثلي استطاع مساعدتك في التخلص منها».

بعد ان انتهى تبادل الصديقين حليم ودونافان لأنخاب الشراب، وامتلأ الأول بمشاعر الغبطة والسرور استئذن في الانصراف بحثاً عن حسناء جديدة يقضي معها ساعات الليل في احد الفنادق الباريسية، وكانت صديقته ماري كلود ماجال قد اعطته رقم تليفون احدى العاهرات في لقاء سابق يمكنه قضاء ليالي المتعة معها اذا ما قرر قضاء ليلته في باريس فجأة.

وكانت ماري ماجال، والعاهرة التي اقترحت اسمها ورقم تليفونها على حليم عضو ثان في شبكة دعارة كبيرة تعملان بأوامر من دونافان ولحساب الموساد وفي نفس الوقت مرشدتان لأجهزة الشرطة المحلية الفرنسية.

ولم ينس دونافان وهو يودع صديقه حليم في تلك الليلة ان يؤكد عليه ضرورة ترتيب

دعوة عشاء مع عالم الذرة المصري يحيى المشد في «مطعم بيسترو» حتى يفتعل مصادقة لقائهما معاً اذا ما قرر الحضور الى المطعم وقبول دعوتهما للعشاء معهما بعد أن يقدمه الى الدكتور المشد.

... ...

داخل «مطعم بيسترو» وفي الليلة التي حددها حليم لدعوة العشاء وابلغ بها دونافان بدت الأمور طبيعية وتسير وفقاً للسيناريو الذي رسمه دونافان بدقة، وتمت مصادقة لقائه (والتي حددها بنفسه) مع الصيد العراقي والدكتور المشد، حيث قدم حليم صديقه الى الضيف المصري كأحد رجال الأعمال البارزين الذي تربطه به الصداقة منذ فترة طويلة.

غير أن يحيى المشد كان حريصاً ولم يستسغ قبول دونافان على مائدة العشاء الأمر الذي لاحظه دونافان واسرع بالاعتذار عن قبول الدعوة والاكتفاء بتناول شراب سريع معهما ونهض الى متضدة اخرى متعللاً بانتظار حضور احد الاصدقاء.

في تلك الليلة عاد حليم للاتصال هاتفياً بدونافان في جناحه بفندق سوفتيل وابلغه صعوبة حصوله على اي معلومات من صديقه الدكتور يحيى المشد والذي كان شديد الحرص طوال دعوة العشاء وان بدا مهموماً ميالا للغربة في قضاء اجازة قصيرة في باريس يستريح خلالها من عناء العمل في بغداد. وكان رد دونافان على اخفاق حليم في انتزاع معلومات من الدكتور يحيى المشد، طمأنه صديقه بأن ذلك شيء وارد خصوصاً مع شخصية علمية تشغل هذه المكانة في الاشراف على البرنامج النوي العراقي، وان مثله يكون عادة حريص واكثر من متشدد في مراعاة السرية وحساب عيون رجال المخابرات العراقية الذين سيتبعونه كظله اينما ذهب وان كان يعتقد ان هذه الرقابة المفروضة تخف كثيراً في حالة خروج المشد الى باريس للاستمتاع بعطلة قصيرة. غير أن كل المطلوب منه معرفته هو الجدول الزمني لشحن المعدات من سارسيل الى بغداد وان مجرد الحصول على هذه المعلومات وابلاغها لصديقيه جولدشتاين وايزاك سوف يشبع اهتمام المخابرات الأمريكية (كما زعم) وتتركه بعد ذلك لحال سبيله.

في تلك الاثناء علمت الموساد من احد عملائها في احدى الدوائر المالية للحكومة الفرنسية ان العراقيين غير مقتنعين ببدائل التخصيب التي اقترحها الخبراء الفرنسيون لليورانيوم وان مواد كاراميل التي اقترحوها لن تقدم لهم العناصر الملائمة لمفاعلهم النووي وانتاجه في المستقبل.

وان كانت الموساد قد بدأت تركيزها على شخصية الدكتور يحيى المشد باعتباره اهم مفاتيح البرنامج النووي العراقي، وان الأمل في تجنيده سيعد الضربة القاضية التي يمكنهم به توجيهها الى العراق. والموساد ومن اجل هذا الهدف على استعداد لبذل كافة الجهود للوصول الى المشد بأي ثمن.

... ...

كانت سميرة ـ ايضاً في تلك الأثناء ـ زوجة بطرس حليم قد عادت من العراق الى باريس لتفاجئ بمظاهر التغيير التي طرأت عليه، ومظاهر النعمة التي لم يستطع اخفاءها وفسرها معها بانها نتيجة لترفيعه ومنحه زيادة كبيرة في راتبه مكافأة له على مجهوده البارز في البرنامج النووي العراقي مع الفرنسيين. كما اصبح حليم فجأة أكثر رومانسية في اضفاء مزيد من الاهتمام على زوجته والاغداق عليها بالملابس والحلي الجديدة ودعواته المتكررة لها على العشاء في المطاعم الباريسية الفاخرة والتفكير معها في شراء سيارة جديدة يستكملان بها مظهرهما الجديد والاستمتاع بمكانته الرفيعه بين المبعوثين العراقيين في العاصمة الفرنسية.

وعلى الرغم من ان بطرس حليم كان يعد واحداً من العلماء الشبان العراقيين اللامعين الا انه لم يكن حكيماً في تصرفاته وسلوكه الفوري وكبت مشاعره عن اقرب الناس اليه. ففي احدى الليالي وعقب عودته مع زوجته سمير من احدى السهرات وبينما هو سابح في احضانها يستمتعان بلحظات اللذة فاجأها بالحديث عن صديقه رجل الأعمال دونافان ومساعدته الكبيرة له في الخروج من مأزق اعده له رجلان من المخابرات الأمريكية اثناء غيابها في بغداد، وآفاق المستقبل بالعمل مع دونافان والثروة التي يمكن ان تهبط عليهما من جراء ذلك.

انتفضت سميرة من الفراش وازاحت ذراعيه عنها وصرخت في وجهه كرد فعل طبيعي ضد ما سمعت منه وقالت له: «ايها الغبي من هذا دونافان ورجال المخابرات الأمريكية الذين يسعون وراء الايقاع بك؟ وكيف خانك ذكاؤك في معرفة هوياتهم الحقيقية؟ لا تحسبني غبية مثلك فهؤلاء ليسوا سوى اسرائيليين وعملاء مهرة للموساد... والمسألة واضحة تماماً مهما حاولت اخفاءها عني. والثروة التي ستهبط عليك من السماء وتلك المظاهر الطارئة التي لم تنجح في اخفائها عني طويلاً ليست سوى ترجمة عملية لسقوطك بين ايديهم... ولا اعتقد أنني سأستطيع الاستمرار في الحياة معك بعد الآن...»

... ...

اثناء وقوع هذا المشهد الدرامي العنيف داخل غرفة نوم حليم وسميرة في الساعة الأولى من صباح 5 ابريل عام 1979 كانت هناك شاحنتان تتحركان ببطء على طريق السيارات القادمة من مصانع داسو ومخازن طائرات الميراج الى مدينة «سين سير مير» Seyne-Sur-Mer بالقرب من مدينة طولون الواقعة على الريفيرا الفرنسية.

ومع حركة الشاحنتان البطيئة انضمت اليهما شاحنة ثالثة بعد ان خرجت من احد الطرق الفرعية وبدت الشاحنات الثلاث كقافلة من قوافل السيارات التي تعج بها حركة المرور على طرق السيارات السريعة في تلك الساعة من الصباح الباكر. غير أن الشاحنة الثالثة التي انضمت الى السابقتين دون أن يلحظها اي من قائدي السيارات العابرة على هذا الطريق في تلك اللحظات لم تكن سوى حصان طروادة معاصر اختبأت داخلها مجموعة من خبراء النيفيوت الاسرائيليين في عمليات التخريب وزرع الالغام واحدث معدات الدمار، يرتدون ملابس العمال ويستعدون لتنفيذ واحدة من اخطر عمليات التخريب التي دبرتها الموساد على الاراضي الفرنسية بعد ان توفرت لديها كافة المعلومات عن موقع مخازن المعدات الفرنسية قبل شحنها الى بغداد ومن حليم نفسه.

وكانت مجموعة التخريب التي رأسها في هذا الصباح احد العملاء النوويين الاسرائيليين عقب وصوله في الليلة السابقة من تل ابيب الى باريس تعلم جيداً ان حراس المجمع والمخازن الفرنسية يتشددون مع الشاحنات المغادرة للمجمع ويحرصون على تفتيشها الدقيق فيما لا يطبقون ذلك الحرص مع الشاحنات القادمة ويكتفون بالتلويح لقادتها عند فتح الطريق امامهم.

ولم يلحظ حرس البوابة الرئيسية للمجمع الفرنسي اندفاع احد زملائهم الجدد الذي لم يمض على تسلمه عمله عدة ايام حديثه السريع مع قائد الشاحنة الثالثة ودسه في يده نسخة من مفتاح احد المخازن الداخلية كي يتمكن من فتحه. وما ان اختفت الشاحنات الثلاثة داخل ساحات المجمع حتى توقفت الثالثة امام المخزن المحدد حيث معدات المفاعل النووي العراقي مخبأة داخل صناديقها استعداداً لشحنها في ظهر نفس اليوم من احد الموانئ الفرنسية الى بغداد.

خلال 15 دقيقة كانت مجموعة التخريب الاسرائيلية (نيفيوت) وتحت اشراف الخبير النووي الاسرائيلي قد قاموا بزرع المتفجرات داخل صناديق معدات المفاعل النووي العراقي الجاهزة للشحن وضبط ساعات المفجرات على الزمن المحدد وما ان انتهوا من عمليتهم السريعة حتى وقعت حادثة غامضة امام الباب الخارجي للمجمع الفرنسي أو كادت احدى السيارات

السريعة ان تدهم فتاة حسناء تصادف مرورها في ذلك الموقع وفي تلك اللحظات. ومع تجمع المارة للاطمئنان على الفتاة التي كادت ان تدهمها السيارة اندفع حراس المجمع لرؤية ما حدث والتأكد من ان الفتاة لم تصب بسوء. وفي هذه الأثناء كانت مجموعة التخريب قد اسرعت بمغادرة المكان والاختلاط وسط المارة المتجمهرين حول الفتاة ثم الذوبان سريعاً في الزحام والاختفاء من مسرح العملية.

وما أن عاد الحراس الى مواقعهم بعد الاطمئنان على حادثة لم تسفر عن قتيل حتى استمعوا الى انفجارات متلاحقة داخل احدالمخازن فأسرعوا الى الاحتماء بعيداً الى ان خفت حدة الانفجارات ثم عادوا لمعاينة اثار ما وقع بالداخل حيث كانت المعاينة الأولية تؤكد تدمير 60 في المائة من اجهزة ومعدات المفاعل النووي العراقي التي جرى تصنيعها طوال ثلاث سنوات سابقة. وللغرابة لم يلحق الدمار بأي من المعدات الأخرى المودعة في نفس المخزن.

ومع تدفق المسئولين عن المجمع على موقع الحادث اذيع بيان قصير بقيمة الخسائر الناجمة عن التفجير والتي قدرت بـ 23 مليون دولار. فيما وزعت احدى المنظمات الفرنسية التي لم يسمع باسمها من قبل نسخاً من بيان على الصحف ووكالات الأنباء موقع باسم جماعة حماية البيئة الفرنسية Groupe des écologistes Francis تزعم فيه مسئوليتها عن ما حدث.

وعلى الرغم من نفي الشرطة الفرنسية للمزاعم الواردة في هذا البيان إلا انها فرضت ستاراً من التعتيم على انباء عملية التخريب، وتركت الصحف الفرنسية الكبرى تتخبط في تخميناتها وإلقاء التهم على اليساريين المتطرفين Extreme Leftists كما اشارت صحيفة فرانس سوار "France Soir" أو الى الجماعات الفلسطينية العاملة لحساب ليبيا كما ذكرت صحيفة لوماتان Le Matin إلى الذهاب بعيداً واتهام مكتب المباحث الفيدرالية الأمريكي FBI كما ذكرت صحيفة لو بوانت Le Point. فيما ارتفعت بعض الأصوات الخافتة تتهم الموساد ولكن الحكومة الاسرائيلية اسرعت بنفي مثل هذا الاتهام واعتبرته لون من الوان العداء للسامية التي تروجها بعض القوى والمجموعات الفاشية.

... ...

في نفس الليلة وبعد منتصفها عاد حليم وزوجته سميرة من سهرة في احد المطاعم الباريسية حاول حليم خلالها ان يسترضيها ويبعد ما اسماه بالهواجس الشريرة عن رأسها ويحيطها بغامر مشاعره والعزف على عواطفها ووعدها بساعات اخرى في الفراش يدغدغ

جسدها. وما ان أصبحت داخل المسكن وحتى تنتهي الأنثى من خلع ملابسها واخذ حمام ساخن استعداداً لساعات من المتعة مع رجلها، فتح حليم المذياع ليستمع الى شيء من الموسيقي وتهدئة مشاعره قبل القيام بدور الزوج الوفي في الفراش غير ان لحظات الموسيقي قطعتها انباء عاجلة تعلن وقوع عملية تخريب كبرى داخل احد المخازن الصناعية في سارسيل.

ولعل حليم كان واحداً من المستمعين القلائل في فرنسا الذي ادرك حقيقة النبأ فقفز من مقعده وراح يهذي كالمجنون: «لقد فعلوها... لقد فعلوها... لقد فجروا معدات المفاعل النووي العراقي... وحانت لحظات القضاء عليّ انا ايضاً...»

وعندما استمعت اليه سميرة اندفعت من الحمام عارية نحوه تصرخ في وجهه «من هم... وعما تتحدث... واي كارثة قد حلت بنا... الم اقل لك من قبل» وبصعوبة انفلت حليم من بين ذراعيها واتجه الى التلفون يتصل بصديقه دونافان يخبره بنبأ الكارثة...

وعلى غير ما توقع جاءه صوت دونافان هادئاً، يخفف من حالة الرعب التي اصابته وقال له بكلمات مقتضبة: «الآن التزم الهدوء ولا تقدم على اي تصرف احمق فلا احد يستطيع ان يربط بينك وبين حادثة التخريب. اذهب الى الفراش وقابلني غداً في المساء بفندق سوفتيل. تصبح على خير».

... ...

في مساء اليوم التالي كانت حالة الرعب لازالت مسيطرة على حليم عندما وصل الى فندق سوفتيل للقاء صديقه دونافان، ممتقع الوجه، تكسو ملامحه اقنعة ثقيلة من الحزن وهالات السواد تحيط بعينيه المحمرتين، وشعيرات الذقن النابتة التي لم يحلقها. كان اشبه بالطير الذبيح الذي يكافح لحظاته الأخيرة.

وما أن شاهد دونافان حتى اجهش بالبكاء والعويل المختلط بعبارات «سوف اشنق على حبال عراقية بلا محالة، لا بل ستدق مقصلة فرنسية عنقي خلال ساعات فقد حلت لحظات المصير... ماذا أفعل الآن. وكيف أؤجل النهاية واين طريق الهرب من كل هذا؟؟.

جذبه دونافان من ملابسه بشدة واجلسه قبالته على احد المقاعد وثبت نظراته عليه وكأنما يخترق صدره وقال: «ليس لك اي يد فيما وقع، وفكر جيداً بدلاً من ذلك الجنون الذي اصابك. فلا احد في هذا العالم يمكنه ان يلقي اللوم عليك أو يوجه اليك اصابع الاتهام».

وقاطعه حليم: «ولكن ما وقع امر مرعب واكثر من كارثة ومن غير المشكوك فيه ان

الاسرائيليين هم الذين قاموا بذلك وسميرة زوجتي تؤكد لي ذلك. لقد استطاعت بذكائها ان تكشف سر اللعبة التي قمت بها مع جولدشتاين وايزاك. و...»

قبل أن يكمل حديثه او هذيانه كما وصفه دونافان صرخ الاخير في وجهه: «أرجوك ان تتوقف عن الهذيان واستجمع شجاعتك وعد الى رشدك، وعن اي شيء تتحدث الآن؟؟ ان الرجال الذين اعرفهم، وكذلك النماذج التي التقيت بها لا يقدمون على مثل هذه الجرائم. ومن المحتمل ان ما وقع ليس سوى جريمة من جرائم التخريب الصناعي والتي يرتكب منها الكثير عادة في جميع انحاء العالم. وانت نفسك سبق ان حدثتني عن مثل هذه الجرائم في لقاءاتنا الماضية. اي غريب فيما حدث ولماذا تسقط حالتك على ما استمعت اليه من انباء. هدّئ من روعك وحاول ان تنسى ما حدث».

لكن حليم اصر على الربط بين لقاءاته مع جولدشتاين وايزاك والمعلومات التي قدمها اليهما وبين ما وقع في سارسيل واكد لصديقه دونافان انه راغب في العودة الى العراق والهرب بعيداً عن تلك الساحة التي تكثر فيها ذئاب المخابرات. وان قراره ذلك لا رجعة فيه خاصة وان سميرة زوجته قد بدأت تعد حقائب العودة الى بغداد.

حاول دونافان ان يثنيه عن قراره وان يستبعد من رأسه اي تورط لأصابع اسرائيلية فيما حدث ويؤكد له انه ليس سوى جريمة من جرائم التخريب الصناعي التي يقع امثالها كثيراً في الساحات الغربية ولا تستأهل هذا الذعر الذي اصابه. وانه على استعداد لمساعدته مرة اخرى لانقاذه من خواطره وقراراته المجنونة اذا رغب في تغيير هويته والاختفاء في هذا العالم بعيداً عن اصابع اي اجهزة مخابرات عراقية او امريكية او غيرها فقط عليه ان يسمح له بالاتصال بالاسرائيليين ليديروا له ذلك.

وضغط دونافان اكثر على حليم ولوح له بان الاسرائيليين سيدفعون له ثمن الهرب ويمنحونه هوية جديدة وضمانات الحماية طوال حياته مقابل ان يعطيهم بعض المعلومات البسيطة عن المفاعل النووي العراقي.

اصر حليم على الرفض وتشبث برغبته في العودة الى بغداد ورفض اي عروض من دونافان لانقاذه على يد الاسرائيليين. وانتهى لقائه مع دونافان. و... اختفى من باريس... ونفذ قراره وعاد الى بغداد.

... ...

ومع اختفاء بطرس حليم وسميرة من مسرح عمليات الموساد في باريس لم تغلق المخابرات الاسرائيلية ملف العملية بأكمله وانما اغلقت احدى صفحاتها وفتحت صفحة جديدة للتعامل مع العالم النووي المصري الدكتور يحيى المشد.

فبقدر ما كان بطرس حليم مفتاح هام من مفاتيح تخريب البرامج النووية العراقية في مراحلها الأولى، كان يحيى المشد احد علماء الطاقة النووية العرب القلائل الذي يضع جهده في خدمة انتاج الاسلحة النووية لحساب العراقيين، وتربطه علاقات وطيدة ومتشعبة مع كبار المسئولين السياسيين والعسكريين في بغداد هدفاً للمخابرات الاسرائيلية مطلوب تجنيده واستخدامه كأحد امضى الأسلحة التي تخوض بها الموساد حربها ضد انظمة الحكم العربية وبرامجها ومشاريعها العسكرية.

وفي 7 نوفمبر عام 1980 كان يحيى المشد يقوم بإحدى زياراته المتكررة الى باريس وليقوم بإبلاغ الفرنسيين بالقرارات الاخيرة حول اتمام البرامج المشتركة الخاصة بالمفاعل النووي العراقي وبعد شهور من حادثة التخريب التي لحقت بمعداته في ساراسيل. في هذه الزيارة ابلغ يحيى المشد مجموعة من العلماء الفرنسيين بأنه وزملائه من الخبراء العاملين في حقل الطاقة النووية يسعون جاهدين لتغيير وجه التاريخ العربي مرة واحدة والى الأبد. وهو الأمر الذي كانت اسرائيل تخشاه وتعمل له الف حساب.

فقد نجحت «الموساد» وعملائها في اختراق رسائل التليكس الواردة الى الحكومة الفرنسية وعلمت منها الموعد الحقيقي لوصول العالم النووي المصري يحيى المشد الى باريس وكذلك الفندق الذي سينزل به ورقم الغرفة 9041 في فندق الميريديان التي سيقضي بها ايام زيارته للعاصمة الفرنسية وذلك قبل الموعد بفترة كافية مكنت عملاءها من زرع اجهزة التصنت داخل الغرفة واحكام المراقبة على الفندق بأكمله.

وتصادف في تلك الفترة ان نشرت احدى الصحف المصرية حديثاً مع زوجته زنوبة واطفاله الثلاثة (صبيتين وولد) وفي اعقاب مقتله وذكرت زنوبة خلالها استعدادها لقضاء عطلة قصيرة مع اطفالهما مع الأهل في القاهرة معلومات اخرى عن زوجها الذي ولد في مدينة بنها المصرية في 11 يناير عام 1932 وانه كان يعد احد المع العلماء العرب في مجال الطاقة النووية ويقدم خبرته وعلمه لخدمة الحكومة العراقية وفي نفس الوقت يلقي المحاضرات وفي قسم الهندسة النووية بجامعة الاسكندرية.

واضافت في هذا الحديث الصحفي انها وعندما كانت تستعد واسرتها لزيارة القاهرة

استمعت الى حديث هاتفي تلقاه زوجها في بغداد وبعد ان حجز بطاقات الطائرة مع احد المسؤولين في ساراسيل يطلب منه سرعة الحضور الى فرنسا للتشاور في التغييرات الطارئة على البرامج التي يشرف عليها. وتذكر ارملة الدكتور يحيى المشد انه تساءل مع محدثه عبر الهاتف: «لماذا أنا؟ يمكنني ان ابعث بأحد الخبراء العراقيين والمزود بكافة الصلاحيات ولانهاء اتفاقيات صفقة انتاج المعدات الجديدة». ولكن المسئول الفرنسي اصر على حضوره. ومنذ هذه اللحظة ـ كما ذكرت ارملة المشد «زنوبة» اصبح زوجها عصبياً ويشعر بالاستياء الشديد. وانها ومنذ هذه اللحظة ايضاً شعرت باصابع المخابرات الاسرائيلية وراء زوجها وتآمرها على ترتيب مصيدة لالحاق الضرر به. فقد كان يخبرها ان هناك العديد من المخاطر المحيطة به ولكنه سوف يواصل جهوده للمساعدة في انتاج اول قنبلة نووية عربية تضع حداً للصلف الاسرائيلي حتى ولو كلفه ذلك حياته.

وعقب اغتياله كانت الرواية التي غطت الصفحات الأولى في الصحف الفرنسية وسمحت بإذاعتها ونشرها سلطات الأمن تروج الى الشبق الكبير الذي اتسمت به شخصية القتيل نحو ممارسة الجنس مع العاهرات خلال زياراته المتكررة لباريس. وانه لوحظ عليه اثناء عودته الى فندق الميريديان في الساعة السابعة مساء 13 يونيو عام 1980 ودخوله المصعد مصاحبته احد القوادين. ومع حلول الساعة السابعة والنصف مساء نفس الليلة شوهدت العاهرة ماري كلود ماجال والشهيرة في اوساط العاهرات الباريسيات باسم «ماري اكسبريس» Marie Ex-press تصعد الى الطابق التاسع ولزيارة نزيل الغرفة رقم 9041 الدكتور يحيى المشد.

وعلى الرغم من ان ماري ماجال كانت تعمل ايضاً مع الموساد الا انها لم تكن تهتم كثيراً بشخصية الزبون التي يتم ارسالها اليه طالما ينفحونها بسخاء مقابل ادائها لمهمتها بخبرة واتقان.

وماري ماجال في تلك العملية الكبيرة التي قامت بها الموساد تعاملت مع بطرس حليم من قبلها وبعد ان قدمها اليه صديقه دونافان، ولكنها وفي تعاملها مع يحيى المشد كانت تشكو في اعقاب كل مرة من نهم ذلك الزبون الذي لا يشبع من ممارسة الجنس معها وكيف انه طراز عربي من نوع آخر غير ذلك الطراز الذي تعاملت معه باسم حليم. ومع ذلك كانت تنفذ في كل مرة يستدعيها فيها يحيى المشد مختلف الوان المتعة التي يطلبها.

في تلك الليلة وبعد ان صعد الدكتور يحيى المشد الى غرفت في فندق الميريديان بدقائق طرق احدهم باب الغرفة عدة طرقات وفتح المشد الباب بحرص ليجد امامه شخصاً يتحدث اللغة

العربية بلكنه اجنبية. وعندما سأله عن ما يريد أخبره المجهول انه مبعوث من احدى القوى الكبرى التي تعرب عن استعدادها لدفع اموال ضخمة اذا ما قبل التعاون معها. ولم يترك المشد الطارق يستكمل حديثه فصرخ في وجهه مهدداً بإبلاغ الشرطة اذا لم يختفي عن وجهه وعلى الفور.

اختفى الطارق بالفعل. والذي لم يكن سوى عميل للموساد من ابناء الطائفة اليهودية الفرنسية يدعى يهودا جيل Yehuda Gill . وذهب يبلغ من بعث به رفض يحيى المشد لمجرد سماع العرض. ولما كانت الموساد لا تمارس قتل اهدافها الا اذا تيقنت من تلويث ايديهم بدماء يهودية فقد اعتبرت ان يحيى المشد بإقدامه على صنع القنبلة النووية لحساب العراقيين قد استعد لتلويث يديه مسبقاً بدماء اطفال ونساء وشعب اسرائيل ولذا وجب القضاء عليه ودون تباطؤ.

انتظرت المخابرات الاسرائيلية فسحة من الوقت منذ صعود العاهرة التي بعثت بها «ماري كلود ماجال» الى الدكتور يحي المشد كي يمارسان متعة الجنس بحرية وحتى آخر انفاس يمكن ان يمنحها لجسد امرأة يفضلها في فراشه كلما قام بزيارة باريس. وعندما غط في النعاس واكتست ملامحه بالراحة تسللت ماري وارتدت ثيابها وغادرت الغرفة والفندق.

وبعد نصف ساعة اخرى تسلل عميلان للموساد بهدوء الى داخل الغرفة بعد ان فتحا الباب ببطاقة اليكترونية خاصة وقام بذبحه ومحو اي بصمات او آثار لهما وغادر المكان بعد وضع لوحة ممنوع الازعاج على باب الغرفة من الخارج.

وقد حاولت احدى منظفات الغرف دخول غرفة الدكتور يحيى المشد عدة مرات غير ان اللوحة المعلقة بطلب منع الازعاج كانت تحول بينها وبين فتح الباب. الى ان حلت الظهيرة فقامت المنظفة بطرق الباب عدة مرات دون ان تستمع الى رد من داخلها فقررت فتح الباب. وما ان اصبحت داخل الغرفة حتى فوجئت بخيوط الدماء تغطي الارضية وغطاء الفراش وجثة الدكتور المشد سابحة في بركة اخرى لازالت دماؤها ساخنة. فصرخت وهرعت الى ابلاغ ادارة الفندق... ثم الشرطة التي اعربت في تحقيقاتها الأولية لجريمة القتل عن اعتقادها بأنها تمت على ايدي قتلة محترفين صعب العثور على اي آثار لهم في المكان.

ولما كانت العاهرة ماري كلود ماجال مُواطنة فرنسية لا يعوزها الشعور بالمسؤولية فقد تطوعت عقب قراءتها عن الجريمة في صحف المساء بالذهاب الى الشرطة للادلاء بأقوالها حتى تبعد الشبهة عن نفسها وباعتبارها آخر من قام بزيارة عمل للقتيل الدكتور يحيى المشد في

غرفته بفندق الميريديان.

ولم تكتفي ماري ماجال بذلك بل اسرت الى احدى صديقاتها من العاهرات التي سبق لها التعامل مع بطرس حليم والتي تعمل في نفس الوقت بتوجيهات من الموساد في العاصمة الفرنسية. فقامت هذه العاهرة وعلى الفور بتقديم تلك المعلومات الى احد اعضاء الموساد وابلاغه كذلك ما ذكرته ماري ماجال من ان الضحية عندما استقبلها كان غاضباً من تأثير الزيارة التي قام بها العميل الآخر يهودا جيل اليه قبل وصولها بدقائق يعرض تعاونه من احد اجهزة المخابرات.

وكانت تلك الرسالة التي ادلت بها العاهرة الصديقة لماري ماجال الى الموساد كفيلة باتخاذ قرار آخر تتعامل به مع «ماري اكسبريس» وفي منتصف ليل 12 يوليو عام 1980 وبينما كانت ماري ماجال تعرض بضاعتها في شارع بوليفار سان جيرمان على احد قادة السيارات واثناء عملية المساومة التي جرت بين السائق داخل السيارة والعاهرة خارجها ملتصقة بالباب انطلقت من احد المنعطفات سيارة مرسيدس سوداء بسرعة الصاروخ لتصطدم بـ «ماري ماجال» وتطيح بجسدها على الرصيف الآخر لتلقى حتفها على الفور في الوقت الذي انطلقت فيه سيارة الزبون والسيارة الاخرى تختفيان في زحام المرور في تلك الساعات الأولى من الصباح ببوليفار سان جيرمان.

... ...

بعد ان تم القضاء على كل من بطرس حليم (بغض النظر عن عودته الى بلاده) ثم الدكتور يحيى المشد والعاهرة ماري كلود ماجال وتطهير ساحة العمليات في باريس من ثلاثة رؤوس شاركت في الاعداد للعملية الكبرى التي ستنفذها الموساد ضد العراق بدأ تنفيذ المشهد الاخير في العملية بأكملها في الساعة الرابعة بعد ظهر السابع من يونيو عام 1981 عندما طارت في السماء المفتوحة مجموعتان من اسراب قاذفات F-15 وF-16 من احد المطارات السرية في بئر سبع (وليس من مطار ايلات كما شاع في الصحف آنذاك) لتنفيذ آخر مراحل العملية وبسرعة 650 ميل في الساعة وعلى ارتفاع منخفض لتجنب الرادارات الاردنية باتجاه بغداد وفي عملية استغرق تنفيذها 90 دقيقة دمرت خلالها منشآت المفاعل النووي العراقي (أوزيراك) في منطقة التويثة خارج العاصمة العراقية وبفضل المعلومات الدقيقة التي قدمها الجاسوس العراقي واحد المع العلماء الشباب الذين بعثت بهم حكومتهم للاشراف على تنفيذ البرنامج النووي مع فرنسا بطرس حليم.

مع اسدال ستائر الحرب الباردة والمتغيرات التي طرأت على الساحة الدولية فقدت العديد من قضايا الجاسوسية وشبكاتها وهويات اعضائها الغامضة اهميتها. ولم تعد تشغل منظمات ووكالات المخابرات بنفس القدر الذي كانت تشكله قبل عدة سنوات.ليس ذلك بسبب تلك السرعة والمفاجأة الصاعقة التي اصيب بها الرأي العام العالمي من سقوط جدار برلين وذوبان القطاعين الشرقي والغربي الألماني في دولة واحدة... او الانهيار المدوي للامبراطورية السوفيتية وتحلل هياكلها، وتحول الشعوب التي انضوت تحت لوائها لأكثر من سبعين عاماً الى دول وحكومات وجمهوريات جديدة ترفع اعلام استقلالها. ولا كذلك المتغيرات التي عصفت بالتوابع الشيوعية في اوروبا الشرقية وبروزها في اثواب ديمقراطية، ولكن لأن سرطان الجاسوسية الذي تفشى في الكيانات الغربية قد آن له ان يجد العلاج الحاسم بعد كشف الكثير من ملفات اجهزة امن الدولة السوفيتية المنهارة (KGB و GRU) وغيرها من اجهزة التخابر الشرقية الشرسة، واصبحت شبكاتها الماضية تحت اعين اجهزة الأمن الغربية لأول مرة وبما لم يكن متاحاً من قبل.

ورغم ان هذه المتغيرات الكبيرة ومع ما مثلته من اهمية خاصة على الصعيد السياسي لم تكن سوى حجر الزاوية فيما اطلق عليه بملامح النظام العالمي الجديد، الا انها وعلى الصعيد الأمني ودنيا التخابر، والمهتمين من الباحثين والخبراء في الشئون العسكرية والتأريخ لمنظمات وشبكات المخابرات الشرقة والغربية كانت فاتحة للكشف عن الكثير من غموض رؤوسها وعملائها المنتشرين في الساحات الغربية حتى الآن.

على أن اكثر الرؤوس والعملاء اثارة في ساحات حروب الصمت التي دارت في العواصم الغربية طوال اكثر من اربعين عاماً هي تلك التي تم زرعها وقطف ثمارها من فيض المعلومات وتحت سمع وبصر اعين اجهزة التخابر الغربية ودون ان يتنبه اي من امهر رجالها لحقيقة اصحابها داخل انسجة وقيعان مجتمعاتها.

هؤلاء العملاء الرجال والنساء الذين تم زرعهم في صمت وأداروا شبكاتهم بعيداً عن اعين اجهزة مكافحة الجاسوسية واعمال التخريب لسنوات طويلة من هم؟ وكيف استطاعوا تغيير جلودهم الأصلية، واكتسبوا هويات جديدة مكنتهم من الاندماج في انسجة المجتمعات الغربية وادارة معاركهم في صمت وحققوا اهداف الأجهزة التي تولت تدريبهم وزرعهم دون ان تكشفهم الدوائر الأمنية الغربية بكل ما امتلكته من اجهزة ومعدات حديثة متقدمة، وعقول

ذكية واساليب متنوعة.

ظلت دوائر المخابرات الغربية واجهزة مكافحة الجاسوسية تعتمد طوال سنوات الحرب الباردة في الكشف عن شبكات العملاء والجواسيس على المعلومات التي يقدمها رجالها في عواصم الكتلة الشرقية السابقة ومعلومات المنشقين والهاربين من قبضات اجهزة الأمن السوفيتية كي جي بي KGB والمخابرات العسكرية السوفيتية GRU وزعماء حركات المعارضة العلنية والسرية لأنظمة الحكم الشيوعية السابقة في بلدان أوروبا الشرقية والهاربين من الفنانين والمثقفين واعضاء الوفود التجارية واتفاقيات التبادل الثقافي ووفود المهرجانات السينمائية.

ولكن ذلك الزخم الذي كان يتوفر لأجهزة الـ CIA وغيرها من الأجهزة البريطانية والفرنسية والغربية بوجه عام عن حقائق معارك الصمت التي تديرها موسكو وبرلين الشرقية وبراغ بوخارست وصوفيا لم تكن سوى معلومات محدودة لا توازي الصخب الاعلامي الذي كان يصاحب الكشف عن احدى شبكاتها او فضح تغلغل عملاء المخابرات السوفيتية في انسجة المجتمعات الغربية بأي حال من الأحوال.

فالمعلومات التي تم جمعها عن موسكو وابتداء من عام 1946، ومعظمها باللغة الروسية وقليل مترجم بالانجليزية او الالمانية التي توفرت خلال عمليات استجواب الاسرى الالمان خلال سنوات الحرب العالمية الثانية وما اعقبها ومن افواه الجواسيس السوفييت وتحليلات اجهزة المخابرات البريطانية عن هذه الفترة لم تكن هي الأخرى سوى مادة تاريخية لا تشكل اي قيمة تذكر لخبراء اجهزة مكافحة الجاسوسية في وكالات المخابرات المركزية الامريكية والـ FBI وايضاً المخابرات البريطانية.

فقد كانت كل هذه الأجهزة والمنظمات تعاني من صعوبة واستحالة زرع العملاء والجواسيس داخل الهياكل العليا للسلطة في موسكو وحتى عام 1953 عندما اعلن عن وفاة الديكتاتور السوفيتي جوزيف ستالين، وما تسرب من انباء الانقلاب الفاشل الذي قاده مدير جهاز الامن السوفيتي الأسبق بيريا وعصابته، وهروب بعض كبار المسئولين في المخابرات السوفيتية KGB الى الغرب. حيث قدم اثنان من الهاربين الى طوكيو، وثالث الى فيينا وآخرين الى بعض العواصم الغربية مجموعة من المعلومات عن الصراع الدائر على السلطة في موسكو وبعض من حقائق الأوضاع داخل الاتحاد السوفيتي. وعبر هؤلاء تمكنت اجهزة المخابرات الغربية (CIA و SIS، والـ MI5 والـ MI6 البريطانية) من الحصول على القوائم الفعلية

بأسماء قادة الدوائر والمنظمات وفروعها للمخابرات السوفيتية والبدء في استكمال معلومات الأجهزة الغربية عنها من اعترافات الجواسيس والعملاء وعناصر الهاربين الى الغرب.

ومن بين سيل المعلومات التي بدأ تدفقها منذ هذه الفترة كشفت دوائر المخابرات الغربية - ولأول مرة - واحدة من الشبكات السوفيتية النائمة والمزروعة في نسيج المجتمعات الغربية. ففي شهر اكتوبر عام 1970 ألقت المخابرات الأرجنتينية SIDE (Argentine Security Service) القبض على احد العناصر السوفيتية المزروعة في المجتمع الأرجنتيني ويدعى فلاديمير مارتينوف Vladimir Martynov مالك احد البارات الشهيرة في احدى ضواحي العاصمة الأرجنتينية بيونس ايرس والمعروف باسم زور جلوك Zur Glocke (أو الجرس The Bell) والذي يتردد عليه ابناء الجالية الالمانية المقيمة في هذه المنطقة.

غير ان فلاديمير مارتينوف كان قد اخفى هويته الحقيقية كأحد مواليد اوكرانيا قبل ان يندمج في المجتمع الأرجنتيني بهوية مصطنعة تشير الى نسبه لأصول المانية هاجرت الى الأرجنتين في اعقاب الحرب العالمية الثانية وعندما كان صبياً، كما استطاع الحصول على جواز سفر ارجنتيني (غير مزور) من احدى السفارات في عاصمة غربية مكنه من استكمال الهوية الجديدة التي اندمج بها داخل المجتمع الأرجنتيني والى حد تطوعه لأداء الخدمة العسكرية في القوات المسلحة الأرجنتينية والتحرك بحرية ودون ان يلفت اليه الأنظار.

وفي عام 1963 رحل من الأرجنتين في جولة في العواصم الغربية عاد بعدها بصحبة زوجة تدعى رئيسة فاسيليفنا Raisa Vasilyevna وبدءاً في ادارة بار الأجراس في احدى الضواحي الراقية بالعاصمة الارجنتينية بيونس ايرس، والذي قدم نفسه فيها باسم خوسيه فيرنانديز Jose Fernandez كما يشير اسمه في جواز سفره الأرجنتيني وبقية الهويات الشخصية الصادرة من السلطات الأرجنتينية نفسها.

الا ان الشكوك التي بدأت تحيط به ومن بعض الالمان المترددين على البار لفتت انتباه اجهزة الامن الأرجنتينية حيث ألقت القبض عليه وبدأت سلسلة من استجواباتها معه اعترف في نهايتها بهويته الاصلية واسمه الذي اخفاه لسنوات طويلة.وحاولت المخابرت الأرجنتينية انتزاع المزيد من الاعترافات من فم خوسيه فيرنانديز (او فلاديمير مارتينوف الحقيقي) إلا أنه تشبث بالصمت والاكتفاء بالكشف عن اسمه الحقيقي الأمر الذي تخلصت معه المخابرات الأرجنتينية من مأزقها بتسليمه الى مدير محطة المخابرات الأمريكية في بيونس ايرس وترك المهمة برمتها لل CIA.

وكما كان متوقعاً فقد تم ترحيل فلاديمير مارتينوف وزوجته رئيسة فاسيليفنا وطفلهما الى احد المساكن الآمنة في العاصمة الأمريكية واشنطن لاستكمال التحقيق معه والكشف عن اسرار زرعه في الارجنتين. غير أنه وفي هذه الأثناء نجحت زوجته رئيسة في الهرب من المسكن وسلمت نفسها الى السفارة السوفيتية حيث قامت بالابلاغ عن المأزق الذي يواجهانه مع المخابرات الامريكية.

ودون دعاية ولأسباب مجهولة افرجت المخابرات الأمريكية عن فلاديمير مارتينوف وقامت بتسليمه الى السفارة السوفيتية في واشنطن، التي قامت بترحيله مع زوجته وطفلهما الى موسكو في مطلع شهر فبراير عام 1972 في صمت وتكتم شديدين سواء من الدوائر الأمريكية او السوفيتية والتعتيم على قضيتهما واخفائها عن الدوائر الاعلامية الغربية.

... ...

... ...

في الأشهر القليلة السابقة على انهيار الاتحاد السوفيتي كانت الأدلة تتصاعد مؤكدة اعتماد اجهزة امن الدولة ومخابراتها (KGB وGRU) في جمع معلوماتها وانشطة عملائها على العناصر المجندة من توابعها في دول الكتلة الشرقية.

وفي بريطانيا التي لم يعتقل فيها اي عميل من دولة تابعة للاتحاد السوفيتي يعمل لحسابها منذ اعتقال كونون مولودي في عام 1961 تصادف ان القي القبض على خمسة من العملاء دفعة واحدة. اثنان منهما من كوبا، واثنان آخران من المانيا الشرقية، اما الخامس فقد كان تشيكي الجنسية حيث وجهت اليهم تهم التجسس لحساب الاتحاد السوفيتي.

وكان الكوبيان قد القي القبض عليهما عندما حاولا دخول بريطانيا وعبر مطار جاتويك بجوازات سفر أحكمت عمليات تزويرها. اما الثلاثة الآخرين فقد كانوا من العناصر المزروعة ايضاً وبإحكام وقادت المصادقة اللجنة الى الكشف عنهم والقاء القبض عليهم وقبل اطلاقهم وممارسة انشطتهم التجسسية بعد توفر كافة الأدلة والشكوك حول الهويات التي تم بها زرعهم داخل المجتمع البريطاني.

القي القبض على رينهارد وسونيا شولتز في صباح احد الأيام من شهر يناير عام 1986 ومن مسكنهما في ضاحية كرانفيلد بالقرب من مطار هيثرو (غرب لندن). وامام سلطات التحقيق اعترف رينهارد شولتز (الاسم الحقيقي للجاسوس) بانتحال شخصيته واسمه برايان

فالديمار ستروتزا Bryan Waldemar Strunza ابن احدى اسيرات الحرب العالمية الثانية التي رحلت واقامت في بريطانيا عقب الافراج عنها في نهاية الحرب.

أما الجاسوس الخامس (التشيكي الجنسية) فقد تم زرعه في بريطانيا باسم ايريك فان هارلم Erich Van Haarlem بعد ان تسلل الى البلاد بهوية هولندية في عام 1975 واقام في احدى الشقق بمقاطعةهارتفورد شاير الى ان القي القبض عليه في ابريل عام 1988 حيث زعم خلال تلك الفترة نفس القصة السابقة وانه الابن المفقود لاحدى السيدات الهولنديات المقيمات في بريطانيا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية معتقدة ان ولدها قد قتل صبياً اثناء المعارك الحربية لتحرير هولندا من الاحتلال النازي.

ولم يكن ايريك فان هارلم في الحقيقة سوى ضابط مخابرات تشيكي تم تجنيده وزرعه بهذه القصة المفتعلة داخل بريطانيا ليمارس انشطته في جمع المعلومات والتجسس لحساب الاتحاد السوفيتي. وبعد أن قدم اعتراف تفصيلي بأساليب المخابرات السوفيتية KGB في تجنيد العملاء والجواسيس من اجهزة مخابرات اوروبا الشرقية قدم الى محاكمة سرية صدر في نهايتها الحكم بسجنه عشرة اعوام داخل احد السجون البريطانية الى ان افرج عنه وتم ترحيله من بريطانيا في شهر ابريل عام 1993.

وبنفس النمط كانت المخابرات السوفيتية KGB قد نجحت في دفع اثنان من الرعايا التشيك هما كارل وهنا كوشر Karl & Hana Koecher الى طلب اللجوء للولايات المتحدة الأمريكية في عام 1965 حيث هبطا الى نيويورك قادمين من النمسا في شهر ديسمبر من نفس العام.

وعلى الفور وعقب انتهاء اجراءات الاقامة عمل كارل كوشر مترجماً حراً في اذاعة راديو اوروبا الحرة بسبب اتقانه للغات الانجليزية والفرنسية والروسية، فيما عملت زوجته هنا «خبيرة في تثمين الماس لدى احدى شركات تصنيعه وتجارته في نيويورك. وبدا الزوجان كغيرهما من المهاجرين اكثر حماساً وقابلية للاندماج في المجتمع الامريكي والالتحاق باحد المعاهد الليلية لاستكمال دراسته حيث حصل على درجة الماجستير في العلوم الاجتماعية الأمر الذي اهله لوظيفة محاضر في جامعة انديانا ثم استاذ كرسي بجامعة كولومبيا قبل شغله لمنصب استاذ الفلسفة المعاصرة في واجنر كوليج Wagner College بستاتن ايلاند عقب حصوله على درجة الدكتوراه (PHD).

وفي شهر ابريل من عام 1972 تقدم كارل كوشر الى وظيفة مترجم في الوكالة المركزية

الامريكية للمخابرات CIA. وبسهولة اجتاز جميع الاختبارات التحريرية والشفهية واكتسب اعجاب آخر لجان الاختبار عند اجرائها المقابلة النهائية معه. ولم يمض وقت طويل على انتظاره الفوز بمنصبه الجديد خاصة بعد ان اكدت جميع التحريات التي قامت بها الوكالة خلو ملفاته من العوائق الأمنية التي تحول دون شغله للمنصب. حيث ابلغ بقبوله في شهر فبراير من العام التالي والالتحاق فوراً بعمله الجديد كمترجماً ومحللاً في دائرة الشئون السوفيتية في روسالين Rosslyn بفيرجينيا. وكان عمله الفعلي في هذه الدائرة محصور في تفريغ وترجمة اشرطة التسجيل السرية التي تحتوي مناقشات مع احد المصادر الهامة للوكالة وعرف اسمه بـ «تريجون Trigon».و لم يكن تريجون هذا سوى الدبلوماسي السوفيتي في سفارة بلاده في واشنطن الكسندر اوجورودنك Alexander Ogorodnik ـ والذي سبق ان جندته المخابرات الأمريكية للعمل لصالحها من موقعه داخل السفارة السوفيتية.

وكان «اوجورودنيك» ومنذ بدأ تسلمه لمنصبه في واشنطن قد وضع تحت اعين رجال المخابرات الأمريكية الذين رافقوه كظله خلال حركته والى ان تم الاتصال به اثناء قيامه بإحدى الجولات في العاصمة الكولومبية بوجوتا. وهناك تمت عملية تجنيده سراً وتكليفه بمهمة جمع المعلومات التي تتوفر لديه وكذلك تصوير كافة الوثائق السرية التي تقع بين يديه وظل ذلك التعاقد بين أوجرودنك واحد ضباط الاتصال في المخابرات الأمريكية قائماً، حيث كانت المعلومات تسجل على شرائط سرية اثناء مقابلات أوجوردنك وضباط الاتصال ثم تعطى بعد ذلك الى المترجم النشط كارل كوشر في دائرة الشئون السوفيتية ليقوم بتفريغها وترجمتها وتقديمها الى المسئولين عن الدائرة.

غير ان المترجم المحترف لم يكن يكتفي بأداء وظيفته وفي ذلك الاطار بل كان يحتفظ لنفسه بنسخة اخرى من مضمون كل شريط حيث يقوم بتسليمها الى مسئوله الفعلي فيسيك كريلك Vesek Krelik رئيس محطة المخابرات التشيكية في العاصمة الأمريكية، وليقوم بدوره بتسليمها الى المخابرات السوفيتية KGB.

وفي احدى زيارات الكسندر أوجوردنك لموسكو واثناء قيامه بتصوير بعض الوثائق السرية من ملفات الـKGB القي القبض عليه وقبل ان يواجهه محققيه قام بابتلاع احد الاقراص السامة التي زودته بها المخابرات الامريكية ليضع بها حداً لحياته وتجنب افتضاح عمالته وتجسس لحساب الـ CIA.

غير ان كارل كوشر المترجم النشط والجاسوس التشيكي المحترف داخل وكالة المخابرات

المركزية الأمريكية ظل يواصل عمله في دائرة الشئون السوفيتية حتى شهر فبراير عام 1975 عندما سمحت له الوكالة بالانتقال الى نيويورك لالقاء المحاضرات في جامعتها بلونج ايلاند وفي نفس الوقت التفرغ للعمل (متعاقداً) في اعداد تقارير التحليل السياسي عن الأوضاع والشخصيات القيادية داخل الاتحاد السوفيتي.

في هذه الأثناء ومع تحجيم نشاطه لحساب الوكالة المركزية للمخابرات تقدم كارل كوشر للحصول على احدى وظائف وكالة الأمن القومي NSA ـ National Security Agency. لكنه وعلى غير المعتاد اخفق في الحصول عليها لسبب لم يعرفه. في الوقت الذي لفت اليه انتباه رجال مكتب المباحث الفيدرالية FBI وبدأوا في وضعه تحت الرقابة المشددة بعد ان ثارت الشكوك حول لقاءاته المتكررة لبعض العناصر التشيكية العاملة في محطتها بسفارته في واشنطن والى ان القي القبض عليه مع زوجته «هنا» في شهر نوفمبر عام 1984.

وكما هي العادة استغرقت عمليات الاستجواب والتحقيق معهما وقتاً طويلاً كان خلاله كارل كوشر يتشبث بالاصرار على براءته من اي اتهام وتذكير رجال المباحث الفيدرالية FBI كيف انه قام قبل عدة اعوام بالابلاغ عن محاولات المخابرات التشيكية الاتصال به والسعي الى تجنيده بمختلف الوسائل، وكيف انه كان مدركاً لأهدافهم والابلاغ عن هذه المحاولات في حينها. وبالطبع لم يقنع ذلك المنطق رجال الـ FBI واستمروا في اعتقاله وتوجيه التهمة اليه والى زوجته بالعمل لحساب المخابرات التشيكية والسوفيتية معاً ولكن وفي شهر فبراير عام 1986 واثناء ايداع المتهمين في المعتقل رهناً لتقديمهما الى المحاكمة تمت وعلى الصعيد السياسي والأمني في الولايات المتحدة الأمريكية صفقة مع اجهزة المخابرات الألمانية الشرقية قادها المحامي الالماني الشهير ولفجانج فوجل Wolfgang Vogel تبودل فيها تسليم بعض المنشقين السوفييت للغرب وكان من بينهم المنشق اليهودي السوفيتي أناتولي شيرانسكي Anatoly Shcharansky الذي قضى 13 عاماً في السجون والمعتقلات السوفيتية في مقابل الافراج عن وتسليم كارل وهنا كوشر واثنان آخران من الجواسيس التشيك المعتقلين في السجون الأمريكية بتهمة مساعدة اللاجئين التشيك على الاقامة في الولايات المتحدة.

وفي هذه الصفقة تم الافراج عن كارل وهنا كوشر وتسليمهما الى السلطات الألمانية الشرقية آنذاك واغلاق ملف اثنان من اخطر الجواسيس الذين تم زرعهم داخل الولايات المتحدة الأمريكية وفي اكثر دوائر وكالة مخابراتها المركزية حساسية طوال 32 عاماً.

... ...

... ...

سقوط العملاء في قرية عربية

كانت اللحظات الاخيرة التي انطلق خلالها الخائن محمد العايد حاملاً رشاشه الاسرائيلي «عوزي» من نافذة الى نافذة داخل مسكنه، قافزاً الى سطحه يمطر اشقاؤه الفلسطينيون الغاضبون، المتحلقون من حوله بوابل من الرصاص دون مبالاة بمن يوجه اليهم طلقاته او السيطرة على مشاعره اليائسة في تلك اللحظات بقدر محاولاته الإفلات من المصيدة المحكمة التي فوجئ بنفسه داخلها، آخر عملية يائسة لم يدرب عليها من قبل.

في تلك الاثناء كانت زوجته في الداخل لا تكف عن الصراخ باسم عائلته وهي تقوم بابلاغ الطرف الآخر الاسرائيلي عبر الهاتف بما يقع خارج مسكنهما، طالبة سرعة ارسال احدى وحدات الحماية من مصيرها ومصير زوجها التعس في نهاية العام العشرين على عمالته لأجهزة الاحتلال والامن الاسرائيلي ومنذ ان احتلت اسرائيل مدن الضفة الغربية وقطاع غزة في اليوم السادس من حرب الهزيمة 5 يونيو عام 1967.

كان اليوم 24 من فبراير عام 1988، ورقمه السابع والثمانين منذ اندلاع الحركمة الشعبية في الاراضي المحتلة والتي اضافت الى قواميس التعبير في لغات الرأي العام العالمي كلمة «الانتفاضة» و... اكثر كلمات التحدي التي واجهها الاحتلال الاسرائيلي للاراضي العربية منذ انتصار قواته على الجيوش المصرية والسورية والأردنية في حرب الأيام الستة عام 1967.

منذ ذلك التاريخ في ملفات الهزيمة العربية فرضت اسرائيل سيطرتها عل الضفة الغربية وقطاع غزة ومجمل اراضي شبه جزيرة سيناء و... هضبة الجولان... وأصبحت قوات الاحتلال الاسرائيلي وجهاز امن الدولة الداخلي «شين بيت» تفرض بأذرعها الحديدية الممتدة الى كل شبر من الاراضي العربية المحتلة ستائر القهر والإذلال على اكثر من مليون فلسطيني ومن مركز القيادة العامة لجهاز «شين بيت» في احدى الضواحي الشمالية لمدينة تل ابيب.

وكغيره من طلائع العملاء الذين بدأت «شين بيت» في عمليات تجنيدهم منذ احتلالها للأراضي العربية، تم التقاط «محمد العايد» في أحدى حملات الاعتقال التي كانت تقم بها قوات الاحتلال للشباب الفلسطيني من قرية «القباطية» الواقعة على الأطراف الشمالية للضفة الغربية المحتلة وقبل نهاية الشهر الأول على بدء الاحتلال.

كان محمد العايد في تلك الفترة لم يتجاوز العشرين من عمره حيث وجه اليه الاتهام

بإثارة المتاعب واعمال الشغب في قريته. بعد التحقيق وعمليات استجوابه التي لم تستغرق عدة أيام تم الافراج عنه بعد تعهده بالتزام الهدوء وعدم اثارة الشغب مرة اخرى، ووعد محققيه بازدهار مقهاه الذي يديره اذا ما حافظ على تعهده... وفي مقابل فتح عيونه على كل ما يهدد الأمن في قرية «القباطية» وابلاغها الى احد مسئولي الشرطة المحلية.

ولم تكن عملية الاعتقال والوعد... والتعهد والتلويح بالازدهار لمقهى «محمد العايد» سوى واحدة من العمليات التقليدية لتجنيد العملاء من الشباب الفلسطينيين وادراجهم في قوائم الطابور الخامس لقوات جهاز الأمن الاسرائيلي الداخلي «شين بيت». واقناع محمد العايد بأن ذلك التعهد لن يكلفه كثيراً، كما لن يكون ضد مصالح ابناء قريته من الفلسطينيين بقدر ما سيمنحه ويمنحهم السلام والطمأنينة التي ينشدونها. وسوف تتكفل قوات الأمن الاسرائيلية بعد ذلك بواجباتها في حفظ الأمن والنظام داخل قريته المسالمة.

غير أنه في مثل تلك القرى الصغيرة الوادعة من المستحيل ان تكتم الاسرار تحت اية اقنعة مهما اصطبغت بأدق قواعد الخداع والدهاء، اذ سرعان ما يُكتشف العميل ويصبح رمزاً من رموز الخيانة حتى ولو اصطنع لنفسه اسوار الحماية التي لقنها له سادته الجدد. فكلما افتضح امر محمد العايد في قرية القباطية، برز عشرات الآلاف من العملاء الفلسطينيين في انحاء مدن وقرى الضفة الغربية وقطاع غزة المحتلين خلال تلك السنوات الثقيلة الوطأة منذ بدء الاحتلال في عام 1967 وحتى مطلع فبراير من عام 1988، الأمر الذي أصبح من المستحيل على اجهزة «الشين بيت» الاسرائيلية تجنيد عملاء جدد أو العثور على من هم مستعدون للتعاون معهم وتحت الوان مختلف المغريات وسبل الحماية في المستقبل.

فقد أصبحت الانتفاضة ومع حلول شهر فبراير عام 1988 من ابرز العوامل التي تهدد بالخطر والدمار الشامل اجهزة الشين بيت وعملائها ووحدات جيش الدفاع الاسرائيلي التي كشفت من تواجدها داخل القرى واحياء المدن المحتلة ومنذ اعلنت القيادة الفلسطينية الموحدة العصيان الشامل وفرض مواجهتها لقوات الاحتلال بقطع الحجارة والمنشورات والاذاعة السرية الموجهة من داخل الاراضي السورية لتحريض مليون فلسطيني على اسماع كلمتهم للعالم، وتمزيق ذلك التجاهل المتعمد من الرأي العام العالمي وحكوماته على قضية الشعب الفلسطيني وحقوقه في استعادة الاراضي المحتلة.

في تلك الاثناء طار وزير الخارجية الأمريكية الأسبق جورج شولتز الى منطقة الشرق الاوسط حاملاً مشروعاً يلوح بمساعي السلام وايجاد الحلول لصراع اصبح اكثر تعقيداً وبلا

خيارات مطروحة سوى العودة الى الكفاح المسلح. ومع ما انتهى اليه مؤتمر القمة العربي في عمان من مقررات تناولت مخاطر الحرب العراقية الايرانية، واجتماعات الرئيس الأمريكي الأسبق رونالد ريجان مع الرئيس السوفيتي السابق ميخائيل جورباتشوف للبحث في قضايا دولية لم تكن من بينها لا في عمان ولا اجتماعات ريجان جورباتشوف اي ذكر للقضية الفلسطينية.

ازاء كل ذلك شعر الفلسطينيون انهم قد استبعدوا من جداول الأعمال وان قضيتهم قد أصبحت على هامش الصراعات الدولية واهتمامات الحكومات الكبرى وقادة وزعماء المنطقة العربية.

خرج المتظاهرون الفلسطينيون لأول مرة وفي موجات غاضبة داخل مجمل مدن وقرى الأراضي العربية المحتلة يعلنون احتجاجهم، واصراره على اسماع العالم كلمتهم، ولم تخلو مدينة أو قرية عربية محتلة من اعلان العصيان والاضراب الشامل وبدء المواجهة مع قوات الاحتلال الاسرائيلي بالأنياب والأظافر والحجارة في ايدي الصبية.

ولم تستثنى قرية مثل «القابطية» من مظاهر الاحتجاج كما لم يعد محمد العايد ذلك العميل المحاط بأذرع رجال «الشين بيت» بعد ان ارتفعت اصوات المتظاهرين في تلك القرية الوادعة تتهدد : «بالروح بالدم سنقضي على الخونة ونحرر الأرض».

شعر محمد العايد ان الرسالة لا تخطئ طريقها اليه وان مقهاه ومسكنه قد باتوا هدفاً للغاضبين، وان رياح الانتفاضة قد اوشكت ان تعصف به وبكل ما اكتسبه طوال عشرين عاماً، وان اللحظة قد حانت لطلب العون من سادته في «الشين بيت» لتوفير الحماية له من مصير تعس يتهدده، لن يفلح رشاش العوزي الاسرائيلي الذي سلم اليه مع بطاقة الهوية كأحد رجال «الشين بيت» في هذه القرية في انقاذه.

وامام موجات الغاضبين التي احاطت بمسكنه ومقهاه قفز الى نوافذ المسكن واعلى السطح يلوح بمدفعه الرشاش، ويهدد المتظاهرين بلا جدوى، فراح يطلق الرصاص عليهم في محاولات يائسة لم يلاحظ خلالها ان احداها قد اصابت طفلاً فلسطينياً في الرابعة من عمره فأردته قتيلاً على اعتاب مسكنه.

وبهذه الرصاصات المجنونة تطوع محمد العايد بإعطاء المتظاهرين الفلسطينيين تأكيد آخر لعمالته. كما لم تفلح صرخات زوجته على الهاتف داخل المنزل في التعجيل باستدعاء احدى

وحدات «الشين بيت» لانقاذها وزوجها من مصيرهما المحتوم. فلم يكن هناك في تلك الساعة من على استعداد للاستماع لصرخات امراة فلسطينية حتى ولو كان زوجها احد عملائهم. فقد كانت قوات جيش الدفاع الاسرائيلي في قرية جنين التي اتصلت بهم زوجة محمد العايد مشغولة بمواجهات مع موجات اخرى من الغاضبين الفلسطينيين.

ولم يتمكن بالطبع الاسرائيليون من حماية عميلهم في الوقت المناسب الذي نفذت فيه ذخيرته وخفتت صرخات زوجته واندفعت تبحث لها عن منفذ خلفي تتمكن عبره من الهرب. وفعلت.

في تلك اللحظات اندفعت جموع الغاضبين داخل المسكن واحكمت قبضتها على رقبة الفأر المذعور محمد العايد، في الوقت الذي تمكنت فيه مجموعة من الصبية والمراهقين من القائه على الأرض وجز رقبته بسلك معدني وسحبوا جثته الى الخارج على ايقاع صيحات الغضب وشعارات «الموت للخونة» قبل ان يشعل بعضهم النار في المسكن بأكمله.

ومع وصول الوحدات العسكرية الاسرائيلية الى قرية القباطية تصحبها مجموعة من رجال الشين بيت داخل سيارات غير مرقمة كانت الجموع الغاضبة قد سحبت جثة محمد العايد في شوارع القرية وعلقتها في احد اعمدة الكهرباء بجوار محطة الأتوبيسات الرئيسية، ورفعت اعلى العمود العلم الفلسطيني بألوانه المميزة الأخضر والأسود والأحمد والأبيض.

كانت جثة محمد العايد في ذروة ذلك المشهد العاصف في قرية القباطية اكثر من رمز، ورسالة واضحة لشين بيت لم يخطئ رجالها فهمها، وان عشرين عاماً من فرض قبضتهم الحديدية على رقاب سكان الضفة الغربية وقطاع غزة المحتلين قد سقطت وبلا عودة مع ارواح الفلسطينيين الخمسة والستين التي ازهقت منذ اندلاع الانتفاضة.

ومع مضي الأعوام الثلاثة الأولى للانتفاضة كان اعداد القتلى الفلسطينيين قد ارتفعت الى 700 قتيل، والقتلى الاسرائيليين الى 60 قتيل. كما كان بين القتلى الفلسطينيين ما يقرب من 300 عميل ومتعاون مع الشين بيت او الجيش الاسرائيلي. وأصبح العملاء هم ابرز اهداف الانتفاضة التي اكتسحت الاراضي العربية المحتلة وتحول القانون الوحيد الذي يحكم الاوضاع داخلها ينطق بلغة الرصاص واشتباكات السلاح الابيض وباصرار غريب من الثائرين الفلسطينيين على تطهير الأرض من جذور الفساد، والعملاء ومهربوا المخدرات، والعاهرات وبنفس أيقاعات المواجهة المتصاعدة مع جذور الاحتلال الاسرائيلي والى ان صدرت من القيادة الوطنية الفلسطينية الموحدة توجيهات بالكف عن تعقب العملاء، وغيرهم وتوجيه الضربات الى

العدو الاسرائيلي.

فقد احدثت الانتفاضة مع استمرارها تفجيرات جذرية في الهياكل السكانية داخل الأراضي المحتلة «وزلزلت» وبالمعنى الحرفي لكلمة «انتفاضة» Shaking Off (المؤسسة العسكرية الاسرائيلية ويهدف فرض اسلوب جديد لحكم مدن وقرى الأراضي العربية المحتلة تمهد لبناء «الدولة الفلسطينية الأمل» الذي لم يخبو في صدور المقهورين منذ نكبة عام 1948.

كما كانت «الانتفاضة» وبهذا «المعنى والهدف» الذي اندلعت لتحقيقه هي المنحنى الذي سعت «شني بيت» لتجنبه ومنذ اليوم الأول لاحتلال الضفة الغربية وقطاع غزة بأكملهما. ومن اجل ذلك نشطت في تجنيد شبكات واسعة من العملاء الفلسطينيين في انحاء المدن والقرى وكقاعدة للعمل داخل المجتمع الفلسطيني نفسه حيث ضمت عشرات الآلاف من المزارعين وعمال المصانع، والحرفيين الى اوساط المثقفين والتجار وصغار الموظفين في مؤسسات ومنظمات وكالة الغوث وداخل معسكرات اللاجئين.

وراحت شبت بيت تغدق عل عملائها المنح والرواتب التي تراوحت بين 50 و 200 دولار للعميل الواحد في الشهر ومن اجل الحفاظ على تدفق المعلومات حول الأنشطة الفلسطينية داخل انسجة مجتمعهم وتجنباً لتحويل مؤسساتهم ومنظماتهم الى خلايا تنمو فيها القوى السياسية المعادية للدولة الاسرائيلية.

في البداية اكد ذلك الاسلوب الذي اتبعته شين بيت مع عملائها الفلسطينية انه اكثر من عملي، اسهم في تحجيم المخاوف من اندلاع اية موجات ارهابية، وتكفلت الشرطة المحلية الاسرائيلية في مدن وقرى الضفة بغرض الأمن والنظام وتدحيض اي محاولات خروج على القانون ضد المستوطنين اليهود الذين بدأوا يتدفون على الاراضي المحتلة وافساح مواقع اقامة لهم بين سكانها الفلسطينيين. في الوقت الذي دفعت فيه الشين بيت برجالها الذين يجيدون اللغة العربية وباللهجة الفلسطينية الى اختراق التجمعات السكانية وتوطيد الصداقات مع اعضائها واتخاذهم لاسماء شائعة مثل ابو ابراهيم، وابو كامل وابو أي اسم مألوف لا يثير شبهة انتماء صاحبه الى غير الأصول الفلسطينية. غير ان حاملو القاب «ابو» هؤلاء كانوا من الرعونة والصلف الذي كشف عن حقيقة هوياتهم، وادراكهم لمشاعر الكراهية الفعلية التي يلقونها من السكان الفلسطينيين المحليين وانهم مهما حاولوا التقرب من العناصر السياسية الفلسطينية النشطة انما يسهمون في تعميق الحواجز بينهم وبين الجموع العادية من بسطاء الحرفيين وصغار الموظفين وحتى الباعة الجائلين.

ولذا فقد ركز رجال الشين بيت جهودهم في تجنيد العملاء في هذه الأوساط ومنحهم الهويات الخاصة التي تتيح لهم المرور من نقاط التفتيش العسكرية وعدم تعرض جنود الشرطة الاسرائيلية المحلية لهم.

واكد هذا الاسلوب فعاليته مع تدفق المعلومات على مركز قيادة الشين بيت في احدى ضواحي شمال تل ابيب والذي تحولت احدى دوائره الى مركز نشط لجمع المعلومات من مصادرها الفلسطينية داخل المدن والقرى المحتلة والاسهام وبهذه التقارير التي يقدمها العملاء في وأد الكثير من الحركات المعادية وقبل استئصالها والقاء القبض على واعتقال العشرات من المشتبه فيهم من الفلسطينيين ومن داخل المدن والقرى ومعسكرات اللاجئين وتعريضهم لعمليات الاستجواب، واساليب التحقيق المهينة.

ولعل ما تجاهله جهاز امن الدولة الاسرائيلية «شين بيت» طوال عشرين عاماً من احتلال الاراضي العربية وبعد ان احكمت قبضته على سكانها، هو ان اسلوب القمع الذي اتبع، وما بدا من نجاح عمليات تدجينهم قد يؤدي الى انفجاء ومفاجئ لم يحسب حسبانه.

وقد كان اكبر مثال على هذه الغفلة الاسرائيلية ذلك الخطأ الفادح الذي انعكس في تصريحات شاموئيل جورين المسئون الاسرائيلي عن متابعة الأوضاع داخل الأراضي العربية المحتلة قبل اشهر قليلة من اندلاع الانتفاضة واكد بها استخفافه لأي مخاوف حول احتمالات أندلاع موجات التمرد والغضب بين سكانها الفلسطينيين. وذكر في رده على احد المراسلين في صحيفة «يديعوت احرونوت» الواسعة الانتشار آنذاك:«إن اي مفردات عن لغة التمرد أو العصيان المحتمل للجموع الفلسطينية قد أصبحت خارج القواميس التي تتعامل بها السلطات الاسرائيلية».

وعندما اصر المراسل الصحفي على تأكيد تلك التصريحات، اكتفى جورين بقوله دعنا نتراهن ونشهد في النهاية من سيكسب الرهان». ولكن الرهان ولغة الصلف التي تحدث بها شاموئيل جورين كانا محسومين لحساب مفاجأة مذهلة لم يتوقعها او تحسب لها الدولة الاسرائيلية بمؤسساتها السياسية والعسكرية والأمنية اي حساب، رغم ان شاموئيل جورين وفي حجم المنصب الذي كان يشغله، وخبرته السابقةكمدير للعمليات في المخابرات الاسرائيلية «الموساد» وحتى عام 1984 لم تسعفه في تبين العوامل التي تضافرت واصبحت تدق ابواب قلاع الاحتلال المفروض لزمن طويل على المدن والقرى ومعسكرات اللاجئين الفلسطينيين.

وكما تقع المفاجئات الكبرى دون سابق انذار لا بد من توافر عامل هامشي يزيد من حدة التعتيم على توقع حدوثها، فقد تصادف يوم الثامن من ديسمبر عام 1987 ان كان احد قادة الشاحنات الاسرائيلية يقطع الطريق الرئيسي الموصل الى قطاع غزة عندما افلتت عجلة القيادة بين يديه، واندفعت الشاحنة باتجاه احد التجمعات الفلسطينية فقتلت اربعة منهم على الفور واصابت سبعة آخرون بجروح خطيرة.

وعندما وصلت الشرطة المحلية للتحقيق في الحادث قامت بتفريق الجموع الفلسطينية من حول الشاحنة المقلوبة وساعدت سيارات الاسعاف في نقل المصابين الى احدى المستشفيات فيما حملت سيارة اخرى جثث القتلى الأربعة الى المشرحة. واستكمل التحقيق مع السائق الاسرائيلي واختتام الملف بعبارات «حادث طريق بسبب الخطأ والخلل في مقود الشاحنة».

غير ان سكان قطاع غزة لم يقتنعوا بما جاء في التحقيق واعتبروا حادث انقلاب الشاحنة جريمة قتل متعمد ذهب ضحيتها اربعة من المواطنين الفلسطينيين الأبرياء واصابة سبعة آخرين وان الاتهام يفرض سيف العقوبة الوحيد وهو القصاص من الجاني... وايا كانت هويته... وهي اسرائيلية بالطبع.

وكانت حادثة انقلاب الشاحنة الاسرائيلية على الطريق الرئيسي لقطاع غزة ظهر الثلاثاء 8 ديسمبر عام 1987 هي القشة الهامشية التي اضرمت النار في هشيم المقهورين طوال عشرين عاماً. حين خرجت التظاهرات الغاضبة في اليوم التالي (9 ديسمبر) تجتاح شوارع قطاع غزة وتعلن عن احتجاجها الذي سرعان ما امتد كالنار في الهشيم ليشمل انحاء القطاع وجميع المدن والقرى في الضفة الغربية المحتلة.

وهنا وفي تلك اللحظات التي تصاعدت فيها التظاهرات، وترددت صيحات عشرات الآلاف من المقهورين الفلسطينيين تسمع اصواتها للعالم احتجاجاً على اعمال القمع والاعتقال والتقتيل، تدخلت «شين بيت» لتقوم بإعادة تحريك صمام الأمان القابضة على مفاتيحه طوال اكثر من عشرين عاماً وفي محاولة لانقاذ السياسة الاسرائيلية من مخاطر الاحتمالات التي سعت الى تجنبها طوال تلك الفترة.

فقد كان جهاز امن الدولة الاسرائيلية «شين بيت» >على خلاف غيره من اجهزة القمع وشرطة الاحتلال، ينتهج سياسة «العصا والجزرة»، والتلويح بالقوة دون ممارستها... ويرفض بشدة تطبيق عقوبة الإعدام ضد العناصر الفلسطينية المتهمة في جرائم قتل وجنايات واعتداءات ضد الرعاية الاسرائيليين. وعلى اساس انه اذا تم اصدار المحاكم الاسرائيلية لاحكام الاعدام وتنفيذها بحق متهمين فلسطينيين، فإن ذلك لن يحفظ للدولة الاسرائيلية هيبتها بقدر ما

سيسهم في تحويل المتهمين الى شهداء، وابطال، ورموز كفاح يستحيل طمسها في الضمير الجمعي للشعب الفلسطيني داخل الاراضي العربية المحتلة.

وهذا التفسير وحده لم ينجح في ادراك ابعاد المعضلة التي طرحت نفسها فجأة اعلى الساحة السياسية الاسرائيلية مع اندلاع الانتفاضة ولا معرفة الاسباب الحقيقية لانفجار البركان الخامد ظاهرياً، تماما كما لا يجد التاريخ تفسيرات حقيقية لاندلاع الثورة الفرنسية او الزلزال الذي عصف بأنظمة الحكم الشيوعي في بلدان اوروبا الشرقية قبل ان يأتي على هياكل ومنظمات السلطة في الامبراطورية السوفييتية.

فلم يكن هناك تفسير واحد او صحيح يمكن ان يقدمه زعماء المؤسسات السياسية والعسكرية والأمنية الاسرائيلية لأسباب اندلاع الانتفاضة في الثامن من ديسمبر عام 1987 وليس قبلها، أو لماذا اخفقت التطبيقات الكولونيالية التقليدية مع سكان الأراضي المحتلة منذ عام 1967؟؟

والواقع ان اجهزة المخابرات الاسرائيلية وخلال تلك الفترة التي انقضت منذ حرب يونيو (حزيران) عام 1967 وحتى اندلاع الانتفاضة في عام 1988 كانت قد بلغت اقصى درجة لها من حيث الاعداد والكفاءة، وتدار شؤونها بمهارة بالرغم من التغييرات التي طرأت على رئاساتها باستمرار وكثرة الازدواج في اجراءاتها. وكان لدى الحكومات الاسرائيلية المتعاقبة وتحت تصرفها خمس منظمات للمخابرات منها أربع تعمل في مختلف الميادين، وتختص الخامسة بالتقديرات الاستراتيجية.

وتحتل المخابرات العسكرية الاسرائيلية مكان الصدارة بين هذه المنظمات الخمس. ومن الكلمتين العبريتين «اجاف مودين» التي تعني ادارة المخابرات جاء الاسم المختصر الذي يستخدم في مطبوعاتها السرية واتصالاتها الرسمية وهو «أمان».

ولا شك ان هذه الادارة تعتبر واحدة من احدث ادارات المخابرات المعاصرة فلديها جهاز ضخم من الفنيين، ولها عدد لا بأس به من اجهزة التجسس، ابتداء من آلات التصوير العادية، ومعدات التسمع الدقيقة الي طائرات الاستطلاع الموجهة لاسلكيا، كما انها تستخدم الحاسبات الاليكترونية في تجميع معلوماتها. وحتى عهد قريب اعقب حرب اكتوبر عام 1973 كان رئيس «أمان» ضابطاً برتبة ميجور جنرال يدعى «الياهو زعيرا».

وتضطلع المنظمة الثانية، بالأمن الداخلي ومكافحة التجسس، ويتكون اسمها من ثلاث

كلمات عبرية هي «شيروت بتاحون كلالي» اي ادارة الأمن العام. وقد شاع لهذه الادارة اسم مختصر هو «شين بيت» اما اسمها الحقيقي فهو «شاباك»

وتعتمد «شاباك» بصفة رئيسية على الوسائل التقليدية.. الرشوة والنساء ومساعدات من يتعاطفون معها لأسباب تتعلق بالدين. لكنها تتصف بالجمود. وليس هناك ما يبرر الاعتقاد بأنها تساير التطور الذي حققته زميلتها «أمان» ربما بسبب ضعف ميزانيتها اذا قورنت بحجم الاموال المخصصة للمنظمات الأخرى.

وفيما يختص بالعالم العربي توجد منظمة تعمل على جمع المعلومات عن بلدانه المختلفة، اقتصادها وطوائفها، واحزابها السياسية وقدراتها العسكرية. وتعرف هذه المنظمة باسم هيئة الأبحاث بوزارة الخارجية الاسرائيلية. وتشغل مكاتبها الجناح رقم 24 في مبنى وزارة الخارجية بالقدس ويرأس هذه المنظمة عادة احد اليهود المولودين في البلاد العربية كما ان معظم معاونيه يتم الحرص على اختيارهم من نفس النوعية.

وهناك ايضاً منظمة ليست شهيرة كشقيقاتها، ولكنها هامة ويطلق عليه اسم مكتب اليهود في دول الاضطهاد، والمقصود بدول الاضطهاد الدول العربية ودول الاتحاد السوفيتي السابق وبلدان اوروبا الشرقية. وتعني هذه المنظمة بجمع المعلومات عن الطوائف اليهودية في هذه الدول وتحتفظ بقوائم مفصلة عن الأموال التي يمتلكها اغنياء اليهود ومؤسساتها التجارية والصناعية كما تقوم برسم الأسس المبدئية للخطة الدعائية التي تستخدمها اسرائيل لتشجيع وتنشيط هجرة اليهود اليها.

وفوق هذه المنظمات الأربع تقوم منظمة رئيسية، وهي اكبر المنظمات الاسرائيلية واشدها بأساً وتختص بالتقديرات الاستراتيجية او ما يمكن ان يسمى بالمخابرات العامة الاسرائيلية. ويطلق عليها اسم «الموساد» وهي المسئولة عن توجيه مجهود جمع المعلومات، والتنبؤ بالإجراءات التي تعتزمها الدول العربية القريبة من اسرائيل. وهي التي تقدم تقرير المخابرات اليومي لمجلس الوزراء. ويقال ان ملفاتها تحوي اكثر من عشرين الف بطاقة بأسماء عملائها من اليهود في جميع انحاء العالم ممن يعتمد عليهم في خدمة المخابرات الاسرائيلية في اي وقت وبأي وسيلة.

اما المنظمة الأم التي انبثقت عنها هذه المنظمة القائمة حالياً فكانت تدعى «الشاي» وهي المنظمة التي قدمت خدماتها لعصابة «الهاجاناه» وكانت هذه «الشاي» بدائية الى حد كبير، الا انها استفادت من خبرات الخليط اليهودي الذي توافد على اسرائيل قبل حرب عام 1948،

والذي حمل معه المقومات الرئيسية لإنشاء الهيكل الاول للمنظمات الاسرائيلية. ولعل اهم ما كان يميزها اعتمادها على عدد كبير من الهواة، وافتقارها الى المنهج العلمي. ولكن هذا القصور الخطير لم يسبب «للشاي» أية متاعب حقيقية لأن الدول العربية لم تكن تهتم كثيراً آنذاك بأجهزة المخابرات او الأساليب الصحيحة لجمع المعلومات.

وبهذه الأجهزة الأمنية والمخابراتية المتعددة فرضت اسرائيل قبضتها على انفاس اكثر من مليون فلسطيني داخل الأراضي العربية التي احتلتها بعد هزيمة يونيو عام 1967 وراحت تجند من بينهم العملاء داخل المدن والقرى ومعسكرات اللاجئين وبمختلف اساليب الاغراء التقليدي، وتصنع بهم طابورها الخامس طوال اكثر من عشرين عاماً.

على ان سقوط محمد العايد في قرية القابطية التي اشتهرت كمركز من مراكز العمالة والتجسس لحساب المحتل الاسرائيلي طوال هذه الفترة كان ايذان بسقوط عشرات العملاء من امثاله بعد ان اسهمت الحجارة في ايدي الاطفال وبراكين الغضب التي اندلعت فجأة في عام 1988 في تعريتهم والقصاص العادل منهم وتحويلهم الى رموز سهل اجتثاث اصحابها وتطهير الأرض منهم قبل انتقال الثورة الفلسطينية الشعبية الى مرحلة جديدة تواجه بها بقية المؤسسات السياسية والعسكرية الاسرائيلية.

جوناثان بولارد... ثعلب اسرائيلي داخل غابة الجوارح الامريكية

عندما يفتضح امر الجاسوس ويحتل اسمه الصفحات الأولى في الصحف العالمية، وصدر نشرات الأنباء في محطات التليفزيون والاذاعة لا يعرف الرأي العام الذي تنفجر امامه الفضيحة سوى قشور القصة الحقيقية عن هذا الجاسوس والأجهزة التي وقفت من ورائه وباختزال شديد لا يشيع كثيراً من الاهتمام. ويكون النشر والإذاعة في تلك الحالة ذروة التوتر في العلاقات التي تربط بين دولتين.

غير أنه وعندما تكون الدولة التي اتخذها الجاسوس مسرحاً لنشاطه هي الولايات المتحدة الأمريكية والجهاز الذي جنده هو الموساد (المخابرات الاسرائيلية) ومن ورائها حكومة تل ابيب فإن اي معلومات تشفي اهتمام الرأي العام الامريكي والعالمي لن يسمح بإذاعتها وبحكم العلاقات المتميزة التي تربط بين الدولتين.

هكذا حدث مع الجاسوس الأمريكي جوناثان جاي بولارد الذي تجسس لحساب اسرائيل، وعمل لعدة سنوات في حقل تسريب ادق المعلومات واخطر الاسرار من داخل الساحة الامريكية الى رؤسائه في جهاز المخابرات الاسرائيلية. الى ان افتضح امره والقي القبض عليه ومحاكمته، ثم عقوبته بالسجن مدى الحياة.

هذه كانت هي الخطوط العامة التي سمح بإذاعتها ونشرها عن جوناثان بولارد اما التفاصيل، وحقيقة تجنيد الموساد لمواطن امريكي ليعمل لحسابها وبغض النظر عن العلاقات المتميزة التي تربط تل ابيب بواشنطن فقد ظلت طي الكتمان لا يسمح بنشرها او اذاعتها ومهما كان حجم الضرر الذي اوقعه الجاسوس بالمصالح العليا لبلاده الولايات المتحدة الأمريكية.

في هذا الفصل نكشف عن جوناثان جاي بولارد، والاسلوب الذي اتبعته المخابرات الاسرائيلية في تجنيده، وكيفية التقاطه من بين ملايين الأمريكيين، نموذجاً عملياً للتجسس لحساب اسرائيل، وضرب الحائط بكافة القواعد والمعايير التي تربط بين تل ابيب وواشنطن ومن اجل تحقيق اهداف جهاز الموساد داخل الساحة الامريكية والى ان سقط في ايدي جهاز المباحث الفيدرالية FBI ملوث اليدين، مدفوع بالعمالة لحساب دولة اجنبية تقف على رأس قائمة الدول

الأكثر رعاية ومن قبل الادارة الامريكية.

... ...

عندما اندفع جوناثان جاي بولارد يشق طريقه الى داخل السفارة الاسرائيلي في واشنطن صباح 21 نوفمبر عام 1985، كان بذلك يقوم بالمشهد الاخير في اكبر عملية تجسس هددت علاقات الدولة العبرية (اسرائيل) بالولايات المتحدة الأمريكية.

في تلك اللحظات الأخيرة من مشهد اللجوء الفاشل للسفارة الاسرائيلية كان جوناثان جاي بولارد قد اعد نفسه جيداً وحشد افراد عائلته داخل سيارته طراز موستانج فورد... زوجته ان هندرسون بولارد تجلس في المقعد المجاور له، وفي الخلفية ترك حقيبة تضم النسخ الاصلية من شهادات ميلادهم، وشهادة الزواج، وعدة البومات تحوي صور العائلة، وقطة صغيرة شاء خطها التعس ان تشهد ذروة عملية لجوء فاشلة لأصحابها بالاضافة الى شهادة تطعيمهما ضد امراض الحيوانات الاليفة.

كان جونان وزوجته آن قد قررا اللجوء الى السفارة الاسرائيلية استعداداً للهرب من الولايات المتحدة وتحقيق حلمهما الموعود بالحياة في اسرائيل بعد انجاز مهمته التجسسية طوال عدة سنوات. ولذا فقد انتظر خارج السفارة بالقرب من شارع كونيكتيكوت آفنيو، وعلى ناحية شارع فان نيس شمال غرب العاصمة الأمريكية واشنطن، الى ان بدأت الابواب الحديدة في الانزلاج لتسمح بدخول احدى السيارات. في تلك اللحظات ضغط بولارد على بدال الوقود في سيارته بأقصى قوة واندفع مستديراً من حول السيارة المنتظرة للدخول واصبح بسيارته كالصاروخ الذي اندفع الى الساحة الداخليةلأرض السفارة الاسرائيلية المشيدة على الطراز المعماري لبنايات القدس القديمة ذات الجدران الحجرية، والنوافذ العالية.

في تلك اللحظات اندفعت مجموعة من رجال الأمن الاسرائيلي من داخل المبنى لتحيط بسيارة جوناثان بولارد ملوحين باسلحتهم في وجهه ووجه زوجته بينما انطلقت صرخاته يعلن بها عن رغبته في اللجوء وطلبا لحماية الاسرائيليين من مزاعمه بمطاردة رجال المباحث الفيدراليه له وانقاذ نفسه بأي ثمن.

وبينما يواجه رجال الأمن الاسرائيليون مأزق ذلك الأمريكي وزوجته طالبا اللجوء واللذان هبطا بتلك الطريق المسرحية صباح الخميس 21 نوفمبر عام 1985، كان رجال المباحث الفيدرالية الذين طاردوا جوناثان بولارد وزوجته بالفعل قد أصبحوا خارج ابواب السفارة يشتبكون في حوار حاد مع الحراس طالبين السماح لهم بتسليم الزوجين المطاردين لاستجوابهما.

وفي مثل هذه الحالات لا يكون هناك اي امل في التفاهم بين الشرطة المحلية او حتى جهاز المباحث الفيدرالية وحرس السفارة التي تتمتع بالحصانة الدبلوماسية رغم ان ايواء السفارات لهاربين من وجه العدالة في بلادهم يترتب عليه مخاطر شديدة على العلاقات بين الدول التي تمثلها هذه السفارات والدول المضيفة الا ان اتخاذ قرار عاجل وفي مثل هذه الحالات يصبح امراً مستحيلاً ويتطلب حل المأزق تدخل السلطات العليا في كلتا البلدين قبل ان تنعكس الآثار على مفاهيم العلاقات الديبلوماسية التي تربط بينهما.

وبالفعل هذا هو ما حدث حيث دارت المحادثات العصبية بين رجال المباحث الفيدرالية وحراس السفارة عبر جهاز الانتركوم المثبت على جدرانها الخارجية، ولتنتقل الاسئلة والردود بين الطرفين تبلغ تعليمات ممثلي اجهزة الامن الاسرائيلية ومن داخل مكاتبهم في السفارة الى ثعالب الـ FBI بصعوبة الاستجابة الى مطالبهم وعلى الفور قبل التأكد من صحتها وتقييم الموقف طبقاً لقواعد العرف الديبلوماسي المتبع في مثل هذه الحالات.

ولم ينتظر رجال الأمن الاسرائيليون طويلاً وكشروا على ملامحهم في و جه رجال المباحث الفيدرالية و«آسفون لا نستطيع تسليمكم لهذين المواطنين رغم الجنسية الامريكية التي يحملانها». وقبل ان يواجها ردود الفعل كانت التعليمات من الداخل قد ابلغت اليهم بإخراج جوناثان بولارد وزوجته من ارض السفارة وتسليمهما لرجال المباحث الفيدرالية.

وبنفس البرود الشديد اقتيد جوناثان وآن بولارد الى الخارج تسبقهما عبارة: «آسفين لا نستطيع تقديم المساعدة» وما ان اصبح الفارين خارج ابواب السفارة حتى اقتيد جوناثان الى سيارة مغلقة بعد اطلاعه على امر القاء القبض عليه، فيما اقتيدت زوجته آن هندرسون بولارد الى سيارة اخرى لتحملها مع قطتها الى مسكنها رقم 1733 بالشارع رقم 20 شمال غرب واشنطن. واسدال الستار على اكبر عملية تجسس اسرائيلية داخل الولايات المتحدة الامريكية يفتضح امرها في عام 1985.

وبدأ الرأي العام الامريكي يتعرف ومن خلال اجهزة اعلامه وفي نسيج شبه موحد على شخصية الجاسوس الامريكي لحساب الموساد جوناثان بولارد الموظف المدني في البحرية الامريكية منذ ستة اعوام قضى معظمها في دائرة مكافحة الارهاب. ورغم انه لم يكن بذلك المسئول الكبير الذي يوحي منصبه بخطورة ما يحمله من اسرار الا انه كان موظفاً اداريا عادياً ليست له تلك الصلاحيات الواسعة في دائرة تعمل في مكافحة الارهاب، ولكنه والى حد ما

كان يمتلك في عمله احد اجهزة الكمبيوتر التي تختزن اخطر المعلومات التي تجمعها وحدته. ومن هنا كان منفذه الى ادق الاسرار اكثر سهولة وعملية لموظف يفترض ولاؤه لبلاده وان كان في نفس الوقت وكيهودي من اكثر المتعصبين لاسرائيل.

ولد جوناثان جاي بولارد في السابع من اغسطس عام 1954 لعائلة يهودية تقيم في مدينة جالفستون GALVESTON بولاية تكساس، حيث قضى معظم سنوات طفولته وصباه في مدينة ساوث بند SOUTH BEND بولاية انديانا الى ان رحل عنها مع اسرته ليستكمل تعليمه في جامعة ستانفورد STANFORD وفي مجال العلاقات الدولية. وخلال دراسته في تلك الجامعة التي تحظى بسمعة جيدة في الاوساط الأكاديمية الأمريكية كان جوناثان يمثل نموذجاً للطلبة الانطوائيين الشديدو التعصب لاسرائيل والذي يطرح في مناقشاته ميولاً عميقة نحو الفكر الصهيوني. فضلاً عن انه كان يتمتع بخيال خصب يطلق منه اكاذيبه حول هويته التي وصفها يوماً بأنه ضابط مجند برتبة كابتن في جيش الدفاع الاسرائيلي ويوماً آخر بترقيته لرتبة كولونيل بعد تخرجه. ولكن المعتقد وطبقاً لشهادات زملائه في تلك الفترة هو ان بولارد كان يتلقى العلم في جامعة ستانفورد على نفقة جهاز الموساد (المخابرات الاسرائيلية). الأمر الذي انكره عند التحقيق معه بعدا لقاء القبض عليه ووصفه بأنه دسائس زرعها زملائه السابقين ينفثون بها عند حقدهم عليه ورغبتهم في الصاق التهم الباطلة به وبسبب تفوقه عليهم خلال سنوات الدراسة.

ومع ذلك التفسير امر المدعى العام اثناء محاكمته على كشف المزيد من تاريخ عمالته لاسرائيل وتأكيد التهم الموجهة اليه وبغض النظر عن تفسيراته الخيالية التي وجد فيها عوامل قد تنقذه من العقوبة القاسية والنهاية التعسة التي كانت تنتظره.

ومن ملف المباحث الفيدرالية الذي اعتمد المدعي العام على ما فيه من حقائق واعد بها صحيفة اتهامات جوناثان بولارد انه بعد ان حصل على درجته العلمية في العلاقات الدولية من جامعة ستانفورد في عام 1976 التحق بجامعة توفتس Tufts University بالقرب من مدينة بوسطن ليدرس القانون بكلية فلتشر وبعد عام من الدراسة حصل على دبلوم في الدراسات الديبلوماسية وقواعد البروتوكول، ولكنه كان ديلوماً يسجل مجرد حضوره المحاضرات فقط دون اداء اية امتحانات تقاس بها مقدرته على استيعاب ما درس. وحتى عام 1979 التحق بالعمل في عدة وظائف مؤقتة الى ان نجح في الحصول على وظيفة محلل Analyst في جهاز المخابرات التابع للبحرية الأمريكية في واشنطن حيث التحق بدائرة عمليات الاستطلاع البحري Naval Operational Surveillance بمقر القيادة العامة للمخابرات

البحرية الذي كان يضم آنذاك مركز الدعم الاستخباري البحري Naval Intelligence Support Centre وهيئة التحريات البحرية Naval Intelligence Service (NIS).

وكان جوناثان بولارد واحداً من القلائل الذين تم اختيارهم فيما بعد للعمل بمركز المخابرات الذي استحدث لعمليات الانذار المبكر ضد أعمال الارهاب في سوتيلاند Suitland بمريلاند Maryland وعندما بدأت القوات المسلحة الأمريكية وبجميع فروعها تكثيف الأنشطة لكشف التهديدات الإرهابية في شهر يوليو عام 1984 وفي اعقاب مقتل 241 جندي من القوات البحرية العاملة في بيروت في شهر اكتوبر من عام 1983.

وفي هذه المرحلة من سيطرة تيار الارهاب على الساحة الدولية كان من الصعب على الحكومة الأمريكية واجهزتها فرض اي انظمة رقابية فعالة على منظمات المخابرات تسمح بفرز الهويات الحقيقية للعاملين بها، الأمر الذي سمح لجوناثان بولارد الاستمتاع بالاطلاع على اكثر مما يتوفر لدى دائرته من معلومات واسرار بالاضافة الى المختزن في اجهزة الكومبيوتر داخل الوكالات والمنظمات الأمنية الأخرى. ولم يقف نشاطه في تلك الاثناء عند ذلك الحد بل نجح في الحصول على تصريح يتيح له الاطلاع على ما يختزنه اكثر اجهزة جمع المعلومات خطورة وحساسية في الولايات المتحدة والمعروف باسم Sensitive Compartmented Information ويقتضي بطاقة اليكترونية خاصة تسمح له بالتردد على ارشيف المكتبة السرية التابعة لهذا الجهاز وتصوير ما يرغب من وثائق بحجة الاطلاع عليها وتحليلها من مكتبه بالدائرة التابع لها. والمثير ان المسئولين او اجهزة الرقابة في وكالات المخابرات الأمريكية اخفقوا جميعاً في تلك الفترة ملاحظة ذلك الاهتمام الكبير من جوناثان بولارد بمد انشطته الى دوائر اخرى لا علاقة لها بمسئولياته الصغيرة في دائرة عمليات الاستطلاع البحري. ولعل هذا الاخفاق سيظل هاجساً يؤرق رؤساء وكالات المخابرات الامريكية زمناً طويلاً بعد افتضاح امر جاسوس تمت زراعته داخلها لعدة سنوات وربما يكشف عن ابعاد اخرى في المستقبل لم يحن الوقت لاذاعتها. على ان المسجل في ملفات الجاسوس جوناثان بولارد هو انه كان قد تقدم وكالة المخابرات المركزية الامريكية CIA في عام 1977 بطلب للعمل بها كمحلل. ولكن طلبه رفض دون ذكر الأسباب خاصة بعد ان استبعدت الطلب دائرة التحريات في وزارة الدفاع الامريكية Pentagon Defence Investigative Service وقيامها بعمليات استجواب لأبيه ولمجموعة من زملائه اثناء دراسته الجامعية. وعندما ابلغت دائرة التحريات في وزارة الدفاع الامريكية مركز عمليات الاستطلاع الجوي بنتائج المقابلات التي اجرتها بخصوص

طلب جوناثان بولارد العمل في وكالة المخابرات المركزية CIA، تم التحفظ على ذلك الابلاغ ولسبب ايضاً مجهول. واكتفت دائرة الاستطلاع البحري بتجريده من البطاقة الاليكترونية التي تسمح له بالتردد على ارشيف المكتبة السرية «لجهاز المعلومات» ولبعض الوقت حيث اعيدت اليه البطاقة مرة اخرى بعد ان تقدم جوناثان بولارد بالطعن في قرار السحب.

غير ان الثابت والمؤكد ـ بعد ذلك ـ هو ان جوناثان بولارد المحلل في احد اجهزة المخابرات الامريكية (جهاز الاستطلاع البحري) قد بدأ نشاطه الفعلي في التجسس لحساب اسرائيل اعتباراً من شهر مايو عام 1984 وعندما قدمه رجل الأعمال الامريكي ستيفن سترن Steven Stern الى كولونيل في القوات الجوية الاسرائيلية ـ كان يقوم بزيارة لنيويورك آنذاك يُدعى آفييم سيللا Aviem Sella.

ومنذ اللحظات الأولى التي اعقبت تعارف بولارد على سيللا، تطوع بأن يبلغه وجهة نظره في أن المخابرات الأمريكية بجميع وكالاتها واجهزتها لا تقوم بتبادل معلوماتها الحقيقية مع الاجهزة النظيرة الاسرائيلية على الرغم من المزاعم التي تروج بأن اسرائيل هي الدولة الأكثر رعاية وانها الحليف الفعلي للولايات المتحدة في منطقة الشرق الأوسط.

واكد بولارد في لقائه الأول هذا مع افاييم سيللا بحصوله على الأدلة الكافية التي جعلته مقتنعاً بخداع الولايات المتحدة الامريكية لإسرائيل في الكثير من التقارير المعلوماتية التي تتبادلها معها، وان لديه من المعلومات الحقيقية التي تخدم المصالح العليا الاسرائيلية وانه على استعداد لتقديمها فيما اذا طلب منه ذلك.

كان بولارد بذلك يتطوع بتقديم خدماته صراحة امام احد العسكريين الاسرائيليين والذي لا يجهل مكانته الحقيقية منذ لحظات تقديمه الأولى اليه. وان افاييم سيللا ليس فقط كولونيل في سلاح الجول الاسرائيلي ويحمل على صدره وسام البطولة في قيادة الغارة الجوية التي دمرت المفاعل النووي العراقي اوزيراك قرب بغداد عام 1981 فقط بقدر صلته الوثيقة بأجهزة المخابرات المدنية والعسكرية في بلاده وانه باستطاعته تحقيق حلمه الكبير بالتجسس لحساب اسرائيل.

ولم يتأخر أفييم سيللا طويلاً بعد هذا اللقاء النادر مع جوناثان بولارد في ابلاغ ما دار به وفي تقرير مفصل الى مقر القيادة العامة للقوات الجوية الاسرائيلية في تل أبيب والتي بدورها اعدت تقريرها لتبلغه الى الجنرال رافي ايتان Rafi Etan رئيس دائرة تكنولوجيا التجسس «لاكام» Lakam في وزارة الدفاع الاسرائيلية.

واسرعت دوائر المخابرات الاسرائيلية بمطابقة ما جاء في تقرير القيادة العامة للقوات الجوية المتضمن معلومات جاي بولارد بما لديها من تقارير أخرى كانت تحصل عليها من احد العملاء الاسرائيليين وعبر شبكة ادارها مع شركة امريكية في كاليفورنيا يمتلكها اليهودي الأمريكي في هوليوود ريتشارد سميث Richard Smyth باسم شركة ميلكو Milco للاليكترونيات ووجدتها متطابقة الى حد كبير.

في هذه الأثناء منتصف عام 1985 كانت المباحث الفيدرالية الأمريكية قد القت القبض على ريتشارد سميث بتهمة محاولته تهريب 810 جهاز تفجير كريترون Krytron الى اسرائيل بعد ان رفضت الحكومة الامريكية منحه ترخيص تصدير رسمي لمثل هذه الأجهزة المستخدمة في إجراء عمليات التفجير النووية.

وكشفت عمليات التحقيق مع ريتشارد سميث وخلفيات شركته ميلكو أنه يقوم بتوريد العديد من البضائع والسلع الكهربائية والاليكترونية الى اسرائيل منذ عام 1973 بالإضافة الى انشطته المتشعبة مع العديد من الشركات والمؤسسات الحكومية الاسرائيلية ورغم ذلك وعندما قدم ريتشارد سميث الى المحاكمة في نهاية عام 1985 افرج عنه بكفالة قيمتها 100 الف دولار ولحين استكمال البحث في عملياته المتشعبة مع اسرائيل واستدعائه مرة اخرى امام المحكمة.

من جانبها قدمت اسرائيل اعتذار رسمي الى حكومة الولايات المتحدة الأمريكية بعد ان أصبحت قضية ريتشارد سميث تحتل صدر الصفحات الأولى في الصحف الأمريكية وصدر نشرات الاخبار في محطات الإذاعة والتليفزيون ولفترة قصيرة أعقبها التعتيم عليها وطي ملفاتها بعيداً عن اعين الرأي العام الامريكي.

ولكن المؤكد بعد ذلك أن ريتشارد سميث لم يقدم للمحاكمة مرة اخرى، بل ولم يظهر عندما تم استدعاؤه واختفى تماماً من الولايات المتحدة لتتردد الشائعات عن ظهوره في بريطانيا بعض الوقت ثم اخيراً في اسرائيل.

وإزاء هذه الاحداث التي عاشتها دوائر المخابرات الاسرائيلية في اعقاب تفجير قضية ريتشارد سميث، وبعد أن ظل تقرير المعلومات عن استعدادات جوناثان بولارد بالتجسس لحساب اسرائيل، سادت الشكوك الجنرال رافي ايتان من مخاطر الحماس لهذا العميل الجديد واحتمال قيام المخابرات الأمريكية بدفعه للقيام بهذه العملية لاحداث مزيد من التوريط لاسرائيل وكشف انشطتها داخل الساحة الامريكية.

غير ان رافي ايتان خلص في النهاية الى تقييمه الخاص للافادة من العميل الامريكي المتطوع جوناثان بولارد واسهاماته المقبلة في ملء الفجوة التي سعت الى رأبها المخابرات الاسرائيلية ومن خلال عميل داخل اجهزة المخابرات الامريكية نفسها وربطه بدائرة تكنولوجيا التجسس «لاكام» Lakam في وزارة الدفاع الاسرائيلية. والتأكيد لحكومة تل أبيب امكانية الاعتماد على سيل المعلومات الذي سيتدفق اليها من واشنطن مباشرة بدلاً من الاعتماد على التقارير المتبادلة مع البنتاجون ووكالة المخابرات المركزية الأمريكية CIA.

في المقابل كان المسئولون في مركز قيادة الـ CIA في لانجلي يحاولون باستمرار العثور على عملاء من بين عشرات الآلاف من الأمريكيين اليهود الذين يهاجرون الى اسرائيل، ولكنهم كانوا يخفقون في ذلك نظراً للشك المستمر في إمكانية الاعتماد على عناصر يهودية مشحونة بالمعتقدات الصهيونية والولاء الأول والأخير لأرض الميعاد بدلاً من ولائهم الأصلي للوطن الأم الولايات المتحدة الأمريكية.

غير أنه وعلى صعيد آخر كان سعي المخابرات الأمريكية في العثور على عملاء ينحصر في دوائر الاسرائيليين الذين يتدفقون على الولايات المتحدة تحت ستار الزيارة او العمل او الدراسة رغم ان هؤلاء واياً كانت دوافعهم لم يكونوا بعيدين عن ايدي الموساد وشين بيت وغيرها من وكالات المخابرات الاسرائيلية لتجنيدهم بالعمل لحسابها وداخل الساحة الامريكية.

وحتى على صعيد هذا التصور الذي اعتمدته المخابرات الأمريكية في سعيها لتجنيد عملاء اسرائيليين يعملون لحسابها في بلادهم، كان يصطدم بالأنشطة السرية والمجهولة التي جندت عناصرها من بين الاسرائيليين الذين يقومون برحلات خارج بلادهم وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية، فقد كانوا مطالبين دائماً ومن اجهزة المخابرات الاسرائيلية خاصة اذا كانوا من العلماء والفنيين المتخصصين ان يضعوا نصب اعينهم على المشاريع العسكرية والدفاعية التي يمكن بالمعلومات عنها الافادة في المصالح العليا للمشاريع الدفاعية الاسرائيلية.

كانت هذه الشرائح الاسرائيلية التي تقوم برحلاتها الى الخارج لا تؤجر على عملها أو تجند بصورة رسمية سوء من الموساد أو جهاز امان وتظل دوافعهم باستمرار دوافع وطنية لا تتجاوز هذه الآفاق، ويقومون بجمع معلوماتهم بالافادة من حرية تبادل هذه المعلومات التي تنشرها المعاهد والمراكز والهيئات الرسمية والأهلية داخل الولايات المتحدة الأمريكية بل وفي كثير من الاحيان في الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية والدوريات ومحطات الاذاعة وشبكات التليفزيون المحلية.

ورغم كل ذلك الحرص من جانب المخابرات الاسرائيلية في زرع العملاء داخل الولايات المتحدة، كان جوناثان بولارد يعد حالة خاصة ونسيج وحده، دخل دائرة التجسس بطوعه واختياره ولم تسع اليه المخابرات الاسرائيلية بقدر سعيه هو نفسه اليها مدفوعاً بعقيدته اليهودية وتعصبه المبالغ فيه للدولة العبرية ومنذ ان كان صبياً. ولذا فقد ظلت المخابرات الاسرائيلية ورافي ايتان نفسه رئيس دائرة تكنولوجيا التجسس لاكام Lakam ينظر اليه بعين الحرص وخشية ان تتكرر مأساة زرع اسرائيل لعملائها في كل من مصر والعراق في الخمسينات والمصير التعس الذي انتهوا اليه بعد افتضاح امرهم. غير أنه بعد موافقة رئيس الاركان في جيش الدفاع الاسرائيلي وقائد القوات الجوية سمح لرافي ايتان بتكليف افاييم سيللا القيام بهذه المهمة التجسسية الحساسة داخل الاراضي الامريكية ودون اعطاء مزيد من التفاصيل للقائدين العسكريين الجنرال موشيه ليفي والجنرال آموس لابيدوث حول حقيقة هذه المهمة التي سيقوم بها ارفع الطيارين الاسرائيليين افاييم سيللا.

وعلى ضوء هذه الموافقة الضمنية أعطى ايتان تعليماته لسيللا بإبلاغ جوناثان بولارد المحلل في جهاز استطلاع المخابرات البحرية الأمريكية باستعداد اسرائيل منحه فرصة المحاولة. وعلى الفور قام سيللا بهذه الخطوة الأولى في عدة اتصالات هاتفية مع بولارد في نيويورك وواشنطن استعمل خلالها اجهزة الاتصال الهاتفية العامة حتى يقلل من مخاطر عمليات الاتصال من هواتف خاصة قد يتم التنصت عليها من قبل المباحث الفيدرالية FBI.

كما شرع بالقيام بعدة رحلات جوية مكوكية بين نيويورك وواشنطن خلال صيف عام 1984 يلتقي اثناءها مع بولارد حاملاً اليه تعليماته المختصرة ويتسلم منه صور الوثائق السرية والتي بدأ الوفاء بالوعد بها.

وكان سيللا في كل ذلك يقوم بمهماته بمعاونة كاملة من ممثلي جهاز لاكام (دائرة التجسس في وزارة الدفاع الاسرائيلية) والملحقين بسفارة وقنصلية اسرائيل في نيويورك وواشنطن. ولكنه وبخلافهما لم يكن متمتعاً بأي حصانة ديبلوماسية تحميه من الوقوع في قبضة فرق الأمن الامريكية اذا ما افتضح امر اتصاله بأحد العاملين في احد اجهزة المخابرات الامريكية وتسلمه منه لوثائق سرية. كما لم يكن مدرباً على كيفية ادارة عملية تجسس كبيرة وبهذا الحجم بقدر تدريبه العالي على قيادة الطائرات الحديثة وتسديد قذائفه الى الاهداف الصحيحة. ولكنه ومع ذلك كان اكثر تحمساً للمضي في مغامرته التي دفع اليها وبأي ثمن.

وكانت اولى الوثائق السرية التي سلمها بولارد لسيللا تتعلق بعدد من المشاريع

العسكرية العربية والتي قدر بولارد خطورتها على أمن اسرائيل. ولأن ما ضمته هذه الوثائق السرية من معلومات تفصيلية خطيرة فقد أذهلت المسئولين في اجهزة المخابرات الاسرائيلية بعد ان تم ارسالها اليهم في تل ابيب وعبر الحقيبة الديبلوماسية. وشعروا معها بأهمية جوناثان بولارد وامكانياته الكبيرة في فتح ابواب وثغرات كانت مغلقة عليهم داخل اجهزة المعلومات الامريكية. خاصة بعد ان كان قد تم نقل بولارد الى مركز الانذار المبكر في مكافحة الارهاب بسوتيلاند (ماري لاند).

ومن هناك بدأت وثائقه السرية تتدفق بين ايدي سيللا حول ترسانة الأسلحة الكيماوية السورية والاستعدادات العراقية والجهود المبذولة في اعادة احياء برامجها النووية، والتفاصيل الدقيقة لصفقات الاسلحة التي كانت قد بدأت تتدفق على كل من مصر والأردن والمملكة العربية السعودية. وهي الصفقات التي كانت تعقدها الولايات المتحدة مع هذه البلدان العربية وتحجب عن اسرائيل اهم تفاصيلها حرصاً على روابط الصداقة مع انظمة الحكم العربية المعتدلة في هذه البلدان. ولذا فقد كانت وثائق بولارد السرية حولها رغم عدم مجهوليتها من اسرائيل الا ان جانباً من المعلومات عنها كان يملأ الفجوات في المعرفة الاسرائيلية الكاملة بها.

وفي تلك الأثناء بدا لثعالب المخابرات الاسرائيلية في تل ابيب ان اشرعة سفينة التجسس التي دفعوا بها الى عباب الساحة الأمريكية تدار بأيدي وعقول ماهرة، خاصة بعد أن أصبح في امكان رجلهم بولارد الحصول على صور الاستطلاع التي تلتقطها اقمار التجسس الأمريكية على المنشآت العسكرية وحشود القوات العربية. وقد استخدم بولارد وسيلة استعارة هذه الصور بحجة الاطلاع عليها واعادتها، وخلال ذلك كان يقوم بطبع نسخ اخرى يقوم بتسليمها الى سيللا الذي كان يقدر كطيار وبصفة خاصة اهمية مثل هذه الصور وما تحويه من معلومات غزيرة عندما يتم تحليلها في معامل وزارة الدفاع الاسرائيلية.

على أن ما لم يحسب حسابه بولارد في تلك الفترة هو انتهاء افاييم سيللا من دراسته للكومبيوتر في جامعة نيويورك وعودته الى اسرائيل. وكان عليه ان ينتظر مجهول اسرائيلي جديد ليصل حلقة ارتباطه بالمخابرات الاسرائيلية مرة اخرى.

ولم يطل انتظار جوناثان بولارد. فقد اقتنع رافي ايتان رئيس دائرة تكنولوجيا التجسس في وزارة الدفاع الاسرائيلية بالأهمية البالغة لجوناثان بولارد، وقرر الانتقال به الى مرحلة متقدمة اخرى واساليب جديدة تحكم بها السيطرة عليه وتحوله الى عجينة طيعة في ايدي

اجهزته. فقام بإرسال دعوة اليه لباريس بصحبة خطيبته - آنذاك - آن هندرسون لقضاء عطلة سياحية في ربوع العاصمة الفرنسية وبالطبع على نفقة «لاكام» في شهر نوفمبر عام 1984.

في باريس كانت هناك مفاجأة صغيرة بانتظار بولارد وخطيبته. فقط ظهر صديقه القديم الكولونيل الطيار الاسرائيلي آفاييم سيللا في استقبالهما واسبغ عليهما من الحفاوة الكثير سواء بالمسكن الفاخر الذي انزلهما به او المطاعم والملاهي وعلب الليل الباريسية الباهظة النفقات.

وقد كان الجديد في تلك التظاهرة الاحتفائية التي اغرقت جوناثان بولارد وخطيبته آن تقديم شخصية يوسي ايجور Yossi Yagur المستشار العلمي في القنصلية الاسرائيلي بنيويورك ورجل جهاز «لاكام» هناك. والأهم البديل الذي حل محل سيللا في مهمته مع بولارد. وكان ايجور وبالحصانة الديبلوماسية التي يتمتع بها داخل الاراضي الامريكية يمنح لعملية بولارد التجسسيه ضمانات حماية كافية اثارت في نفسه مزيداً من الراحة والاطمئنان الى المرحلة الجديدة في ادارة نشاطه مع المخابرات الاسرائيلية في حالتما اذا وقع الأسوأ.

وكان يوسي ايجور يشغل منصب المستشار العلمي للقنصلية الاسرائيلي في نيويورك منذ عام 1980، وبهذا الحجم داخل البعثة الديبلوماسية لبلاده كان كثيراً ما يحضر المؤتمرات الأكاديمية ويقيم علاقات صداقة وطيدة مع العلماء الأمريكيين العاملين في المجالات الصناعية والعسكرية ويتابع بشغف ما ينشر في الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية والدوريات وبرامج محطات الاذاعة والتليفزيون المحلية، ويقوم بإرسال تقارير اسبوعية غزيرة بدءاً من قصاصات الصحف الى التحليلات التي يعدها مع العاملين في مكتبه الى دائرة المحللين في جهاز تكنولوجيا التجسس (لاكام) التابع لوزارة الدفاع الإسرائيلية.

والمفاجأة الثالثة التي وقعت «لبولارد وآن» خلال زيارتهما لباريس هي مقابلة رافي ايتان شخصياً، تلك الاسطورة التي الهبت خيال بولارد في صباه وعرف منها ذلك الرجل الذي نفذ عملية اختطاف «ايخمان» من الارجنتين وعاد به الى اسرائيل لمحاكمته على الجرائم التي ارتكبها بحق ملايين اليهود ابان الحقبة النازية.

وفي غمار تلك المفاجآت الثلاث التي تلاحقت على بولارد، القى صديقه الحميم افاييم سيللا بكلمة حيث شجع بولارد وآن على التجول في اسواق المجوهرات الباريسية وانتقاء ما يرون لهما كهدية من اسرائيل لزفافهما المقبل. وبالفعل قام بإرسالهما الى احد محلات المجوهرات حيث اختارا خاتماً ماسياً ثميناً قام سيللا بسداد ثمنه او هكذا تظاهر امامهما

وابلغهما ان يزعما بأنه هدية من «العم جو» اذا ما سؤلا عن الخاتم عند عودتهما الى واشنطن كما زودهما بايصال من محل المجوهرات يضم الاشارة الى انه هدية (رغم ان القيمة التي سددها سيللا نيابة عن المخابرات الاسرائيلية لخاتم زفاف جوناثان وآن بولارد كانت سبعة آلاف دولار».

وفي شهر اغسطس التالي تم زفاف جوناثان وآن في فينسيا ثم قاما برحلة شهر عسل استغرقت ثلاثة اسابيع تضمنت جولة سياحية اخرى في تل ابيب حيث التقيا مرة اخرى مع رافي ايتان مخطط العملية بأكملها وحيث قدم ايتان لبولارد وعروسه هدية زواج اخرى في مظروف ضم عشرة آلاف دولار بالاضافة الى فتح حساب باسمه في احد البنوك السويسرية سيتم تحويل مكافآته المالية عليه أولاً بأول (الامر الذي ظل معمول به طوال عشرة اعوام) وحتى يتم تأمينه وتأمين حياته في المستقبل.

وعندما عرف بولارد ذلك من ايتان أعرب عن رغبته في ان يعود للإقامة يوماً وبصفة نهائية في اسرائيل. ولم يتجاهل يوسي ايجور هذه الرغبة وقد كان حاضراً ذلك اللقاء فقام باحضار جواز سفر اسرائيلي ثم تجهيزة من قبل وبصورة لبولارد واسم مستعار اختاره له الخبراء في دائرة تكنولوجيا التجسس «لاكام» وهو «داني كوهين». وفسر ايجور لبولارد اختيار ذلك الاسم بانه استجابة لاعجابه بالجاسوس الاسرائيلي الذي قبض عليه في دمشق ايلي كوهين. وانه «أي بولارد - يفوقه في الاهمية والمكانه بالنسبة للدولة العبرية. وأنه مرحب به في اسرائيلي وفي اي وقت برغبه كأحد مواطني الصفوة فيها.

وما لم يقله رافي ايتان ولا يوسي ايجور او افاييم سيللا لجوناثان بولارد ان اغداق الاموال والهداية الثمينة وخواتم الزواج الماسية والرحلات السياحية الباهظة التكلفة لم تكن سوى تطبيق للأسلوب التقليدي في تجنيد العملاء والاحتفاظ بهم طوال فترات تجسسهم. وايا كانت مزاعم بولارد بالقيام بمهمته طوعياً ودون مسئوليات تجاه جهاز المخابرات الأجنبي الذي يعمل لحسابه واعتقاده بإمكانية انسحابه في اي وقت يشاء، فإن المرحلة الثانية التي اندفع اليها - وطوعياً ايضاً - كانت قد دفعته بالعمالة المدعومة الأجر والتي لا يستطيع معها الانسحاب حتى لو رغب وبغض النظر عن دوافعه الشخصية المزيج من الفكر الصهيوني والشغف بعمليات الاثارة واعتقاده الراسخ بأنه يقوم بمهمة تساهم في دفاع اسرائيل عن نفسها.

وحالما عاد جوناثان بولارد وعروسه من جولتهما لشهر العسل في اوروبا واسرائيل بدأ

نشاطه السري وعلى الفور حيث احضر في لقائه الاول مع يوسي ايجور بإحدى الشقق في مريلاند حقيبة ضخمة مليئة بالوثائق السرية ونسخ من صور اقمار التجسس على المنشآت والمشاريع العسكرية في منطقة الشرق الأوسط. واتخذ اسلوب العميل الجديد الذي طرحه ايجور على بولارد صيغة الفصول الدراسية وبهدف تلقينه بعض الاساليب الجديدة في التجسس، واعطائه رموزاً شفرية تساعده عند استعمالها في الاتصالات معه او الغاء المقابلات المقررة سلفاً في حالات الطوارئ والتعرض للمفاجآت التي لم يحسب حسابها. وتحديد ايام الجمعة من كل اسبوع لعقد لقائهما في تلك الشقة المملوكة حقيقة لاحد رجال الأعمال اليهود في واشنطن وتقيم بها فتاة تدعى «ايريت ايرب» Irit Erb تعمل في نفس الوقت سكرتيرة لأحد رجال جهاز تكنولوجيا التجسس (لاكام) داخل السفارة الاسرائيلية في العاصمة الامريكية. وقد كانت هذه الشقة مجهزة بأحدث اجهزة التصوير ومعدات نظم الحماية الاليكترونية التي تحول دون تشويش الموجات الاليكترومغناطيسية على اجهزة الاستقبال التليفزيونية من مساكن الجيران.

كما استخدم يوسي ايجور مع عميله المدرب جوناثان بولارد احدث اساليب علم النفس في تغذية شخصيته وتضخيمها بعوامل الأهمية والايحاء اليه بأن المعلومات التي يواصل تقديمها والتحليلات التي يعكف على كتابتها تشكل العديد من الفوائد الكبرى لأكثر من جهاز من اجهزة المخابرات الاسرائيلية وانها تسهم في مساعدة صناع القرار من السياسيين والعسكريين الاسرائيليين على اتخاذ قراراتهم الصائبة في الكثير من الازمات التي يواجهونها مع جيرانهم العرب والعديد من الحكومات الأجنبية على الساحة الدولية.

في الوقت الذي بدأ فيه رؤساء اجهزة المخابرات الاسرائيلي يتساءلون عن هوية الجاسوس الذي بدأت تقاريره تتدفق اليهم عبر رافي ايتان ومن واشنطن وبهذا الحجم والدقة من المعلومات وصور اقمار التجسس الامريكية. ولم يجرؤ ايا من رؤساء هذه الاجهزة على الجزم بهويته الحقيقية، وهل هو رجل عسكري في ارفع مواقع القيادة، ام يهودي امريكي زرعته اجهزة تكنولوجيا التجسس الاسرائيلية وسط غابات المعلومات الامريكية. فقد كانت تقارير بولارد تثير شهية عضموني Admoni رئيس جهاز الموساد (آنذاك) بنفس القدر التي أثاره ايهود باراك Ehud Barak رئيس جهاز مخابرات «امان» وتصعد مشاعر القلق في نفسيهما خشية المخاطر التي تحدق بذلك الرجل في واشنطن والذي يواليهم بتقاريره التحليلية والوثائق السرية وصور اقمار التجسس الامريكية.

لكن بولارد وفي تلك المرحلة التي انطلق فيها يعمل بنشاط خارق للعادة كان يواصل

تسليم الوثائق السرية والصور الفوتوغرافية التي يختارها، ويواصل في نفس الوقت تسلم مكافآته المالية والتدقيق في تواريخ تحويلها الى حسابه السري في احد البنوك السويسرية كل خمسة عشر يوماً. ولم يطل اسلوب اختياره لما يقدم من وثائق طويلاً فقد اصبح بوسي ايجور المستشار العلمي للقنصلية الاسرائيلية في نيويورك وحلقة الاتصال المسئول عن نشاطه يفرض عليه احضار قوائم المعلومات والوثائق ليختار منها ما يشاء ويأمره باحضار المطلوب بأسرع ما يمكنه خاصة من الوثائق الغاية في السرية والتي يتم تصنيفها في وزارة الدفاع الامريكية، من قبل وكالة مخابراتها الخاصة "Pentagon Defence Intelligence Agency" "DIA" . اما كيف كانت قوائم هذه الوثائق المحظور وقوعها سوى في ايدي محدودة من كبار العاملين في هذه الوكالة فسوف يظل سراً غامضاً يؤرق كافة وكالات المخابرات الأمريكية زمناً طويلاً حتى بعد سقوط جوناثان بولارد والقاء القبض عليه والزج به خلف الأسوار!

والواقع الذي اكتشفته مؤخراً معظم وكالات المخابرات الأمريكية هو ان جوناثان بولارد كان يستخدم بطاقته الخاصة في الاطلاع على محتويات المكتبات التابعة لهذه الوكالات بسهولة ودون ان يواجه باعتراض احد او الشك فيه. ومن خلال ذلك أمكنه الحصول على ادق اسرار الوسائل والمعدات الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط وكذلك صفقات السلاح السوفيتي التي يتم شحنها الى الموانئ والمطارات السورية وغيرها من العواصم العربية بالاضافة الى الكم الهائل من الصور الفوتوغرافية التي تبثها اقمار التجسس الامريكية السابحة في المنطقة، مستكملاً كل ذلك بفيض من تقارير التحليلات التي تعدها الوكالة المركزية للمخابرات CIA وهيئة الأمن القومي وبقية الوكالات والمنظمات العاملة وفي الساحة الأمريكية فضلاً عن ما يمكن لإسرائيل ان تحصل عليه من حلفائها في منظمة الحلف الأطلسي (ناتو NATO).

ولعل اخطر ما سلمه بولارد من وثائق فوتوغرافية في الفترة التي تجسس فيها لحساب المخابرات الاسرائيلية هي تلك الصور التي التقطتها اقمار التجسس الامريكيه للهوائيات المثبتة اعلى مقر القيادة العامة لمنظمة التحرير الفلسطينية في تونس بالاضافة الى منشآت ونظم الدفاع الجوي في جميع بلدان شمال افريقيا وبما فيها ليبيا والتي مكنت اسرائيل من القيام بغارتها الجوية على مقر منظمة التحرير الفلسطينية في تونس في 1 اكتوبر عام 1985 ودمرت منشآتها وحولتها الى حطام وشظايا.

وكانت هذه العملية محصلة لآلاف الصفحات التي سلمها جوناثان بولارد للمخابرات الاسرائيلية بما في ذلك تقارير مكافحة الارهاب وعناصره العربية والاجنبية، وصفقات السلاح السوفيتي للدول العربية ووسائل اختراق الاتصالات الاليكترونية في المنطقة وغيرها من

الاسرار التي كانت في حوزة وكالات واجهزة المخابرات الامريكية. في هذه الاثناء كان جوناثان بولارد يتصرف لا كعميل يتلقى توجيهاته من رؤسائه الاسرائيليين بقدر ما اصبح مملوء بالثقة، والمعلم الذي يساهم في صنع اخطر القرارات لصالح الدولة العبرية خاصة بعد أن تأكد ان الغارة الجوية الاسرائيلية على مقر منظمة التحرير الفلسطينية لم تكن سوى محصلة للمعلومات والوثائق الدقيقة التي سلمها للاسرائيليين بنفسه.

غير ان الشعور بالشك بدأ ينتاب أوساط المخابرات الامركية حول وجود عميل داخلها يزود الاسرائيليين بما لم يكن مسموحاً بتبادله معهم من معلومات ووثائق سرية، وبدأت اجهزة الكشف عن العملاء ومكافحة التجسس تتابع في سرية تامة مسلك الآلاف من العاملين في دوائر جمع المعلومات وتعرضهم لأجهزة كشف الكذب وعمليات الاستجواب المطولة.

وعندما شملت هذه العمليات جوناثان بولارد لاحظ رئيسه في جهاز الاستطلاع البحري الكوماندور جيري آجي Commander Jerry Agee ارتكابه خطأ الكذب مرتين في بعض التفاصيل الثانوية التي سؤل عنها. ورغم ان مثل هذا الخطأ كان من الممكن علاجه وغض النظر عنه، الا ان آجي وضع بولارد نصب عينيه سواء داخل العمل او خارجه. ومن بين الملاحظات التي جمعها ولم تخطؤها عيناه تلك الوثائق السرية الهائلة الحجم الموضوعة على مكتبه، وإبلاغ احد زملائه عنه مساء 25 اكتوبر من نفس العام بأنه قد حصل على كمية كبيرة من الوثائق ومن دائرة الكومبيوتر المركزي تتناول جميع المراسلات الخاصة بالأوضاع في منطقة الشرق الاوسط وآخر تحليلات الـ CIA.

وبعد اسبوعين عاد الكوماندور جيري آجي مرة اخرى مساء اول نوفمبر ليكشف اختزان بولارد في جهاز الكومبيتر الموضوع على مكتبه مجموعة اخرى من البرامج التي تضم اسرار جديدة حول نفس الموضوع الأمر الذي استغرق معه ساعات طويلة من الليل الى ان تحقق من خطورةتوصل بولارد الى ما تضم تلك البرامج من معلومات وتحول الشك لديه الى يقين وبأنه قد وضع يده على اخطر جاسوس داخل اجهزة المخابرات الامريكية. فأمر بزرع غرفة عمل جوناثان بولارد بعدد من عدسات كاميرات التليفزيون الدقيقة التي تمكنه من متابعته طوال الوقت.

ولم يطل الوقت حتى القي القبض على بولارد في 18 نوفمبر وبدأت عمليات استجوابه لمدة ثلاثة ايام اظهر بولارد خلالها مقدرة خارقة على تضليل المحققين والتأكيد لهم بأن كل ما تصل اليه يداه من معلومات انما توظف في التحليلات التي يقدمها لرؤسائه في جهاز الاستطلاع البحري. وعقب جلسة الاستجواب الأولى سمح له الاتصال بزوجته تليفونياً

لابلاغها انه سيتأخر عن العودة الى المنزل واضاف رغبته في ان يكلفها بحمل أصص الصبار وبعض النباتات المنزلية التي يهتم بها وتركها لدى الجيران الى ان يعود (take the cactus to friends).

ولم ينتبه المحققون لما ذكره بولارد لزوجته آن في تلك الأثناء. رغم أنه كان يستخدم رمز «اصص الصبار» كنايةعن الاوراق والوثائق السرية في منزله والتخلص منها وابلاغ «الاصدقاء أو الجيران - الاسرائيليين بالطبع - انه في مأزق وبدأ يواجه المتاعب.

والواقع ان جاي وآن بولارد في تلك الليلة كانا على موعد للعشاء مع الميجور أفاييم سيللا الذي تواجد بالصدفة في واشنطن ووجه لهما دعوة على العشاء بمناسبة ترقيته الى رتبة بريجادير جنرال في القوات الجوية الاسرائيلية المنصب الذي سيتسلمه عقب عودته الى اسرائيل.

وعقب ان تسلمت آن المكالمة التليفونية التي حملت اليها الانباء السيئة عن مأزق زوجها قررت الذهاب الى دعوة العشاء مع سيللا وابلاغه بما حدث. ولكنها قبل مغادرة مسكنها جمعت كافة الوثائق السرية التي يحتفظ بها زوجها في المسكن ووضعتها في احدى حقائب اليد الضخمة وقامت بالاتصال بجارتها وصديقتها كريستين اسفندياري وطلبت منها الحضور لمساعدتها في حمل حقيبة هامة تحوي بعض الأوراق الخاصة بزوجها وتوصيلها الى فندق «فورسيزون» في وسط واشنطن Four Season Hotel وتركها في مكتب الاستعلامات هناك.

ولاحظت كريستين اسفندياري (كما جاء في اقوالها فيما بعد) ان صديقتها آن واثناء اتصالها التليفوني بها كانت في حالة عصبية وهي تطلب منها مساعدتها التي كانت أشبه بالتوسل اليها. ولأن العلاقات بين عائلة بوولارد واسفندياري كانت اكثر من وثيقة، وكثيراً ما قاما بإعارتهما سيارتهما في العطلات الأسبوعية والحرص على تبادل الهدايا في المناسبات، فقد وافقت كريستين على القيام بما طلبته منها آن بولارد وان لم تستطع ازالة الشك من نفسها حول تلك الحقيبة المليئة بالوثائق والخاصة بجاي بولارد وحكاية تسليمها الى مكتب الاستعلامات في «فندق فورسيزون».

ومضى سيناريو الأحداث في تلك الليلة اشبه بالمشاهد السينمائية، فقد غادرت كريستين مسكن صديقتها آن بولارد حاملة الحقيبة، ولكنها بدلاً من ان تتوجه بها الى الفندق، اصطحبتها الى منزلها. ولما كانت كريستين ابنة لاحد ضباط البحرية الأمريكية فقد قامت بالاتصال بمركز الاستطلاع البحري وابلغت عن الحقيبة وأدّت بذلك دورها كمواطنة امريكية

صالحة حريصة على عدم ارتكاب اي مخالفة قد تورطها فيما لا يحمد عقباه. ووعدت بتسليم الحقيبة في اليوم التالي لمندوب وكالة الاستطلاع البحري الذي سيتصل بها ويتسلمها.

في نفس الوقت توجهت آن بولارد الى احد المطاعم الفاخرة في احدى ضواحي واشنطن لموعد العشاء مع سيللا الذي فوجئ بحضورها وحدها دون زوجها جاي بولارد. ولم تنتظر آن طويلاً قبل أن تبلغ سيللا بالمتاعب التي حاصرت زوجها وخشيتها من المخاطر التي قد تترتب عليها. وهنا لم يخفي افاييم سيللا عصبيته وطلب منها عقب الانتهاء من العشاء التوجه سريعاً الى مسكنها وعدم الكشف عن لقائها به لأي احد على الاطلاق، او الاعتراف بمعرفته اذا ما تطورت الحوادث الى الأسوأ.

والمثير أن «آن هندرسون بولارد» عندما عادت الى مسكنها في تلك الليلة فوجئت بعودة زوجها «جاي» من جلسة الاستجوب الاولى التي بدأت معه. وكان كلاهما عصبياً، يسيطر عليهما الرعب بعد ان بدأ الخطر الداهم يحدق بهما. وقرر جاي بولارد القيام بالاتصال بمسئوله «ايجور» رئيس جهاز «لاكام» في السفارة الاسرائيلية لإبلاغه وطلب المساعدة.

ولأن تليفون مسكن جاي بولارد كان مراقبا بالطبع، فقد غادر المسكن على الفور وقام بالاتصال مع ايجور من احد التليفونات العامة، وابلغه في عجالة بما حدث معه وطلب منه المساعدة في لجوئه الى السفارة الاسرائيلية قبل ان يلقى القبض عليه وتفتضح عملية التجسس بأكملها.

ورغم النبأ الذي سقط اشبه بالصاعقة على رأس «ايجور» إلا أنه حاول تهدئة جاي بولارد ومواصلة وعده بعدم تخليه عنه وتقديم كافة المساعدة اليه لتخليصه من تلك الورطة.

على ان الحقيقة كانت غير ذلك بالمرة. فقد كان ايجور اتخذ قراره بالتعجيل بمغادرة الاراضي الامريكية وبأسرع وقت ممكن. وترك بولارد وزوجته يواجهان مصيرهما. الأمر الذي حدث بالفعل حيث طار ايجور وسيللا في اليوم التالي من نيويورك الى تل ابيب والاختفاء تماماً من مسرح عملية التجسس بأكملها. كما غادرت ايريت ارب Irit Erb ورئيسها نائب رئيس جهاز لاكام والملحق في السفارة الاسرائيلية في واشنطن العاصمة الأمريكية عائدان الى بلادهما قبل ان تنفجر الفضيحة وتمتلئ الصفحات الأولى في الصحف ونشرات الأنباء في محطات الإذاعة والتليفزيون الأمريكية بأنباء القاء القبض على امريكي وزوجته بتهمة التجسس لحساب دولة اجنبية.

في اسرائيل ادركت اجهزة المخابرات والزعماء السياسيين ان واحدة من اخطر عمليات التجسس التي قام بها جهاز «لاكام» (والذي لم يكن معروفاً من قبل) قد منيت بالفشل وان آثارها سوف تنعكس على مجمل العلاقات الاسرائيلية الأمريكية بنتائج اكثر سوءاً.

اما في الولايات المتحدة فقد ابلغ نبأ القبض على بولارد وزوجته الى الرئيس الاسبق رونالد ريجان اثناء عودته من مؤتمر قمة جنيف مع الرئيس السوفيتي السابق ميخائيل جورباشوف. وكان رد الفعل الفوري على ريجان تعليقه المليء بالدهشة و«لماذا يرتكب الاسرائيليون هذه الحماقة وقد منحناهم اكثر مما يتوقعون».

في 4 مارس عام 1987 وعقب مضي تسعة اشهر على اعتراف جاي بولارد وزوجته آن هندرسون بالتجسس لحساب اسرائيل وبيعه مجموعة ضخمة من الوثائق السرية وصور الأقمار الصناعية لأحد اجهزة مخابراتها صدر الحكم بالسجن مدى الحياة ضد جاي جوناثان بولارد (الذي كان قد بلغ الثانية والثلاثين من عمره) وعقوبة السجن خمسة اعوام ضد زوجته آن هندرسون بولارد.

وعقب ان انتهت المحاكمة وصدرت الأحكام طارت مجموعة من المحققين الامريكيين الى تل ابيب لمواصلة التحقيق في حجم عملية التجسس وتأثيرها على مجمل العلاقات الاسرائيلية الامريكية. وفيما زعم الساسة ورؤساء اجهزة المخابرات الاسرائيليون بعدم علمهم أي شيء عن عملية التجسس، اعربوا عن حسن نواياهم بالاسراع بتشكيل لجنة اتصال مشتركة برئاسة افراهام شالوم مدير جهاز مخابرات «شين بيت» وباعتباره اكثر الشخصيات قبولاً من الادارة الامريكية والقدرة على لملمة الفضيحة والقاء ستائر من التعتيم عليها. الامري الذي قام به بمهارة وحرص شديدين والى الحد الذي لم يرد في تقريره عن العملية اي ذكر لأفاييم سيللا او يوسي ايجوّر او السكرتيرة الاسرائيلية الغامضة ايريت ارب وبالتالي لكشف المزيد عن جهاز المخابرات «لاكام».

وبالاضافة الى ذلك اعلنت اسرائيل ان جميع الوثائق السرية وصور اقمار التجسس التي سلمها جوناثان بولارد سيتم اعادتها الى الولايات المتحدة الأمريكية غير انه وعندما اعيدت هذه الوثائق لم تتسلم الادارة الامريكية سوى 163 وثيقة من آلاف الوثائق التي حصل عليها بولارد وواصل تسليمها لاسرائيل طوال عدة سنوات.

الدريتش ايمز وزوجته الكولومبية روزارية

آخر جواسيس الحرب الباردة داخل وكالة المخابرات المركزية الأمريكية

في اللحظة التي بدأ فيها العالم يلتقط انفاسه والاقتناع بنهاية الحرب الباردة سقط آخر جواسيس هذه الحقبة «الدريتش ايمز» وزوجته داخل اروقة وأعين اجهزة المخابرات العالمية واكثرها شهرة الوكالة المركزية الأمريكية للمخابرات سي آي ايه CIA موصوماً بعمالته لحساب الروس. وبيعهم أسرار بلاده مقابل 2.5 مليون دولار.

وبين العمالة وقبض الثمن أسهم «الدريتش ايمز» وزوجته خلال سنوات طويلة من القضاء على اكثر من 10 عملاء داخل جهازي المخابرات الامريكية والسوفيتية KGB. وليتحول عقب اكتشافه والقاء القبض عليه الى اخطر جاسوس في تاريخ المخابرات الأمريكية ومنذ انشائها وحتى الآن.

ووصف ابرز جاسوس مزدوج سابق لحساب المخابرات السوفيتية KGB والمخابرات البريطانية اوليج جوردبفسكي اكتشاف الجاسوس الامريكي الدريتش ايمز بأنه يمثل حلقة غامضة حتى الآن، اذ انه من غير المعروف ما إذا كان هو الذي قام بإنذار المخابرات السوفيتية حول عمالته لحساب المخابرات البريطانية قبل هروبه المثير ولجوئه الى الغرب في عام 1985، أم أن هناك عملاء آخرين داخل الوكالة المركزية للمخابرات الأمريكية يواصلون عملهم لحساب السوفييت حتى الآن.

ومثل هذا التساؤل الغامض الذي طرحه الكولونيل السوفيتي السابق اوليج جورديفسكي وهو نفسه العميل المزدوج للمخابرات البريطانية ورئيس محطة الـ KGB في لندن حتى هروبه ولجوئه في عام 1985 يثير الكثير من علامات الاستفهام. ؟ وان محققو المباحث الفيدرالية ووكالة المخابرات المركزية الأمريكية وبعد انتهاء التحقيق مع الجاسوس الامريكي الدريتش ايمز والذي استغرق اسابيع عديدة لازالوا أكثر قناعة بأن «ايمز» لم يكن وحده هو الذي انذر رؤسائه في المخابرات السوفيتية بأمر عمالة اوليج جورديفسكي لحساب المخابرات البريطانية. فقد ظل ايمز وطوال مراحل التحقيق معه يزعم عدم تذكر الكيفية التي لفت بها انظار الـ KGB الى العمالة المزدوجة لجورديفسكي او الفترة التي قام فيها بابلاغهم، من القاء ستائر من الشك لدى

محققيه وعدم قناعتهم بإجاباته خلال الاستجواب. وان كانوا على قناعة بأن هذه الفترة تراوحت بين 17 مايو و13 يونيو عام 1985 وهي الأسابيع السابقة على استدعاء الـ KGB لجورديفسكي الى موسكو للتحقيق معه واتهامه بالعمالة لحساب المخابرات البريطانية و... الاستعداد لتقديمه الى المحاكمة قبل هروبه المثير ولجوئه الى لندن.

على أن التواريخ التي حددتها المباحث الفيدرالية الأمريكية واكدها جورديفسكي لتسريب نبأ عمالته الأخير المزدوجة مع المخابرات البريطانية وعدم تطابقها مع التواريخ التي زعم جاسوس السوفييت داخل الـ CIA كشفت فجوة في المعلومات الدقيقة لدى الوكالة الأمريكية، وطرحت الشكوك حول وجود عملاء آخرين غير «الدريش ايمز» هم الذين وشوا بأوليج جورديفسكي وكادوا يسلمونه لرصاصات الإعدام في موسكو لولا نجاح خطة هروبه ولجوئه الى بريطانيا في النهاية.

ويقول أوليج جورديفسكي المقيم حالياً في بريطانيا ان المخابرات السوفيتية فيما لو كانت قد علمت بنبأ عمالته لأجهزة المخابرات البريطانية في شهر يونيو عام 1985 لكانت قد القت القبض عليه واجهزت على حياته بسرعة وسرية ودون ان يعلم احد. ولكنها اكتفت باستدعائه الى موسكو ووضعه تحت الرقابة المكثفة وزرع اجهزة التصنت في مسكنه والقيام باستجوابه وبطريقة غير مباشرة في لقاءات سريعة مع مدير جهاز الـ KGB ثم نائبه ثم تركه حراً طليقاً الى ان نفّذ خطة هروبه من الاتحاد السوفيتي الى هلسنكي ومنها الى لندن. واياً كانت مزاعم الجاسوس الدريتش ايمز ومناقضات جورديفسكي والتقارير المستفيضة التي دونت فيها المباحث الفيدرالية الأمريكية محاضر استجوابها وجلسات التحقيق مع ايمز بأن سقوطه في النهاية وتأكيد عمالته لأجهزة المخابرات السوفيتية طوال تسعة اعوام تكشف حجم الدمار الذي الحقه بأكبر اجهزة المخابرات الغربية. وتحول الوكالة المركزية الأمريكية الى مادة خصبة لسخرية اجهزة الاعلام ورسامو الكاريكاتير في الصحف الشعبية. ومنذ ان بدأت المباحث الفيدرالية تولي مسئولية فرض الرقابة الدقيقة على الدريتش ايمز وزوجته روزاريو الكولومبية المولد احكمت زرع اجهزة التصنت داخل مسكنهما وفي مكتبه وداخل سيارته وتحول كل ما يتم الى ايمز وروزاريو الى هاجس لعشرات الفنيين والخبراء من الـ FBI طوال عدة اشهر.

والثابت ان رجال الـ FBI القوا القبض على الدريتش ايمز (الشهير بـ ريك) وزوجته روزاريو في الفترة التي كان يستعد فيها للهرب الى موسكو وعلى اجنحة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية وقرار من المسئولين فيها، وبعد ان اعد حقائب السفر وتهيأ للرحيل صباح 21 فبراير عام 1994.

وكان قرار الـ CIA والمعد على ضوء برنامج عمل سابق قد كلف الدريتش ايمز بالسفر الى موسكو وعبر عدة محطات يتوقف فيها في العاصمة التركية انقرة، ومنها يتجه الى بوخارست ثم الى فرانكفورت حيث سيلتقي هناك مع رئيسه في الوكالة الامريكية ديفيد ادجار David Edger نائب مدير دائرة مكافحة المخدرات الذي سيصطحبه ويطيران معاً الى موسكو.

وهناك سيجري ايمز وتحت اشراف رئيسه محادثات حول تهريب المخدرات مع نظرائه من كبار العاملين في دوائر المكافحة في وكالة المخابرات الروسية الأجنبية «سلوزبا فينشني رازفيدكي "Sluzba Venshnei Razvedki" التي تشكلت في اعقاب انهيار الامبراطورية السوفيتية وحل اجهزة امنها ووكالتها الشهيرة كي جي بي ـ KGB.

ولكن المسؤولين في وكالة المخابرات المركزية الأمريكية CIA ما كان لهم ان يسمحوا لايمز بالحصول على فرصته الذهبية بالرحيل الى موسكو فقد كانت تقارير المتابعة، والمعلومات الدقيقة التي جمعوها وعبر اجهزة التصنت التي زرعتها المباحث الفيدرالية منذ عدة اشهر في مسكنه ومكتبه وسيارته قد وضعت امامهم الصورة الكاملة لأنشطة اخطر عميل لأجهزة المخابرات الروسية ومن داخل الوكالة الأمريكية ولم يعد هناك مناص من القبض على الصيد الثمين وبأسرع وقت ممكن.

غير أن أي تحرك مضاد من رجال الـ CIA، أو اتخاذ قرار بإلغاء زيارة العمل المقررة سلفاً لايمز الى موسكو وإجراء محادثات والقاء محاضرت مع نظرائه في وكالة المخابرات الأجنبية الروسية كان سيلفت نظره وينبه ذئاب الوكالة الروسية الى امر اكتشاف رجلهم. كما كان قرار باستبداله وارسال ضابط آخر مسئول ليقوم بنفس مهمة العمل المحددة سلفاً سيؤكد شكوك الروس ويعجل بتغيير خططهم مع عميلهم ايمز ويهدد عملية اصطياده وتقديمه الى المحاكمة.

وازاء هذا المأزق الذي بدأ يواجهه المسؤولون في وكالة المخابرات المركزية الأمريكية واحتمالات المخاطرة بإرسال الدريتش ايمز الى موسكو وكغطاء لإبعاد شكوكه وانتباه رؤسائه في المخابرات الروسية، ولد الاصرار لدى مدير الوكالة الأمريكية جيمس وولسي R.James Woolsey ـ آنذاك ـ وكذلك رؤساء الدوائر الأخرى من منع الدريتش ايمز من السفر الى موسكو وبأي ثمن وحتى لا تعود الى الاذهان مرة اخرى تجسيد لصورة ولنسخة مكررة جديدة من كيم فيلبي العميل السوفيتي داخل اروقة المخابرات البريطانية والذي تمكن من الهرب الى

موسكو في عام 1963 وعاش فيها بقية سنوات حياته الى ان مات في عام 1988.

كما كانت هناك صورة اخرى ماثلة في اذهان المسئولين عن اجهزة المخابرات الأمريكية سبق ان وقعت قبل تسعة اعوام عندما اخفقت المباحث الفيدرالية في منع ادوارد لي هيوارد Edward Lee Howard الضابط السابق المفصول من الوكالة المركزية CIA بالتسلل من الولايات المتحدة والاختفاء في صحراء نيومكسيكو، والعودة بعد عام من اختفائه للظهور في موسكو حيث يحيا بها وحتى الآن محاطاً بالرعاية والتكريم والحماية المكثفة في احد المنازل التابعة لوكالة المخابرات الروسية مكافأة له على بيعه كميات هائلة من الوثائق السرية المتعلقة بمكافحة الأنشطة الروسية داخل الولايات المتحدة.

ومع استعراض المسئولين في المخابرات المركزية والمباحث الفيدرالية الأمريكية لحالتي كيم فيلبي، وادوارد لي هيوارد وخشية تكرار الاخفاق في منع الصيد الثمين من الوقوع في ايديلهم ملطخاً بعار الخيانة والعمالة لحساب المخابرات الروسية، كانت الصورة واضحة تماما والأدلة اكثر من دامغة ولم يكن هناك غير اختيار الوقت المناسب لالقاء القبض على الدريتش ايمز (53 عاماً) وزوجته الكولومبية روزاريو (41 عاماً) وكشف آخر عملاء نهاية الحرب الباردة للرأي العام الأمريكي والعالمي.

وكان اهم تقرير سيتحول الى بيان مدوي امام رؤساء الوكالة المركزية الأمريكية يسجل وبوضوح ابرز ملامح آخر العملاء ويشير الى ان الدريتش ايمز قد قضى داخل الوكالة الأمريكية 31 عاماً ويمتلك مسكناً في فيرجينيا قدرت قيمته بـ 540 الف دولار سددها نقداً عند الشراء، وينفق 50 الف دولار سنوياً على الطعام والشراب، كما يمتلك شقة فاخرة في العاصمة الكولومبية بوجوتا، وأخرى في مصيف كارتاجنا، وثالثة على ساحل لاجويجيرا المطل على مياه البحر الكاريبي شمال كولومبيا. وكل ذلك الثراء والبذخ لا يقابله سوى دخله من عمله في دائرة مكافحة المخدرات بوكالة المخابرات المركزية والذي لا يتجاوز 69,843 دولار سنوياً.

ولكن مثل هذا الدخل الهزيل وبمقاييس الثراء الذي احاط بألدريتش ايمز كان يخفي حقيقة ملايين الدولارات التي بدأت تهبط عليه طوال تسعة اعوام من المخابرات الروسية لقاء بيعه لأدق واغلى الاسرار، وكشفه لها هويات العملاء الأمريكيين داخل روسيا وبقية بلدان شرق أوروبا (الذين قدرتهم الـ CIA بنحو 10 عملاء تم اعدامهم بالرصاص في روسيا وبوشايات من ايمز نفسه).

كما امتلك اخطر جاسوس امريكي لحساب الروس في تاريخ الوكالة المركزية ثلاثة حسابات في بنوك سويسرية، وحساب آخر في احد البنوك الايطالية، وثمانية حسابات مشتركة في البنوك الامريكية. بخلاف حسابات اخرى لم تتمكن المباحث الفيدرالية من اكتشافها في عدة بنوك اجنبية وقدرت ودائعه بها بحوالي مليون دولار اخرى.

ورغم هذه المعلومات، وسقوط آخر عملاء الحرب الباردة في الساحة الأمريكية ظلت هناك عدة حلقات مفقودة، وعشرات التساؤلات التي لم تجد لها وكالات المخابرات الأمريكية ولا لجانها في الكونجرس الأمريكي ردوداً واجابات حاسمة حتى بعد التحقيق مع الدريتش ايمز ومساومته على الاعتراف بعمالته لحساب الروس في مقابل تخفيف الأحكام عليه وعلى زوجته.

وظلت التساؤلات حول متى وكيف بدأ ايمز التجسس لحساب الروس؟ وما هي حجم الوثائق والأسرار التي قام ببيعها اليهم؟ ولماذا انقضت تسعة أعوام قبل ان تكتشف المخابرات امر عمالته والقاء القبض عليه؟ خاصة وان المال وحده وعدم وجود اي مؤشرات في خلفيات حياته تدفعه الى الخيانة والسقوط في بؤر العمالة. بالاضافة الى حجم الدور الذي لعبته زوجته روزاريو. ولماذا لم يحرص على اخفاء الثروات المفاجئة التي هبطت عليه، وكذلك عدم حرصه على اخفاء عمالته بتركه كميات هائلة من الوثائق السرية المصنفة في منزله بالاضافة الى العشرات من اسطوانات الكومبيوتر التي اختزن فيها ادق المعلومات وبصورة علنية في منزله ومكتبه. وكذلك ايضاً الشرائط التي تسجل جميع مراسلاته مع رئاسات ومحطات المخابرات السوفيتية ثم الروسية ودون محاولة اخفائها. وهل كان يعني كل هذا نوعاً من الإهمال القاتل ام عدم اللامبالاة والاطمئنان والثقة الشديدة في وجود عملاء آخرين غيره داخل اروقة المخابرات الأمريكية؟؟

هذه التساؤلات وغيرها والتي لازالت معلقة دون اجابات رغم القاء القبض على ايمز وزوجته روزاريو ومحاكمتهما لم تجد في خلفيات الأعوام القريبة من حياة الجاسوس اي ثغرات يستشف منها لكيفية التي تم بها تجنيده ولا الفترة التي بدأ منها السقوط في بؤرة العمالة.

فما أن حل مطلع شهر أغسطس عام 1985 حتى كان الدريتش ايمز يتربع على اعلى قمة من قمم النجاح في منصبه داخل الوكالة المركزية الأمريكية للمخابرات. وكرئيس لفرع مكافحة التجسس السوفيتي في الوكالة الأمريكية ومكافحة عملاء اوروبا الشرقية.

في هذه الفترة لم يكن قد انقضى على حصوله على الطلاق من زوجته الأولى نانسي سيجبارث ايمز Nancy Segebarth Ames سوى ثلاثة ايام، تسلم خلالها أوراق الطلاق

من احدى محاكم نيويورك. ولم ينتظر طويلاً اكثر من تسعة ايام اخرى حتى كان يعقد قرانه على المرأة التي يحبها ماريا ديل روزاريو كاساس دوبوي "Maria del Rosario Casas - Dupuy" والذي كان قد التقى معها اثناء شغله لمنصب مدير محطة المخابرات الأمريكية في نيومكسيكو وعندما كانت تشغل منصب الملحقة الثقافية لسفارة كولومبيا. في تلك الاثناء امتزج العشق الملتهب للمرأة ذات الدماء الامريكية اللاتينية الحارة مع رغبته لتجنيدها لحساب المخابرات الأمريكية. ونجح ايمز في تحقيق هدفيه واصبحت عمليته الجديدة زوجته تشاركه الفراش وتطلعات المستقبل.

ومع النجاح في الحياتين الشخصية والعملية بدأت الاف الدولارات تتدفق داخل جيوبه وحساباته في البنوك فقد كانت المخابرات السوفيتية ومن جانبها قد نجحت هي الاخرى في تجنيده والعمل لحسابها قبل ذلك بأربعة اشهر.

في تلك الاثناء لم يعد ايمز يستمتع طويلاً بتلك الحرية العريضة التي منحته وضعاً متميزاً داخل مسكنه وفي العمل، اذ فوجئ في احد ايام تلك الفترة باستدعاء مدير دائرته بيرتون لي جربر Burton Lee Gerber، وكان احد الشباب اللامعين المزاجيي الشخصية، واطلعه على برقية من السفارة الأمريكية في روما تتضمن نبأ لجوء فيتالي يورشينكو Vitaly Yurchenko مدير القطاع السوفيتي وشرق افريقيا في محطة الـ KGB بالولايات المتحدة الأمريكية وكندا الى السفارة الأمريكية في روما.

ووقع النبأ على رأس الدريتش ايمز وقع الصاعقة، فقد كان ـ ولايزال ـ مجرد لجوء احد رؤوس جهاز المخابرات السوفيتية سابقاً والروسية حالياً الى الغرب يثير المخاوف في صدور العملاء والجواسيس المحليين، ويشكل هاجساً يسيطر علىى حياتهم خشية المعلومات التي سيقوم بتقديمها الى دوائر المخابرات الغربية وخاصة الأمريكية. وشخصية في حجم «فيتالي يورشينكو» لا بد لها من ان تثير في نفس الجاسوس الدريتش ايمز العديد من العوامل المسببة للقلق والفزع في آن معاً. فهو فضلاً عن المعلومات التي سيقدمها للمخابرات الأمريكية يمتلك الدراية الدقيقة بالساحة التي لجأ اليها، ومعرفة جميع العملاء والجواسيس المرتبطين بجهاز المخابرات السوفيتية داخل الولايات المتحدة الامريكية.

والأدهى من وقوع النبأ كالصاعقة على رأس ايمز، كان تكليفه بالتوجه في اليوم التالي الى قاعدة اندروز الجوية ليكون على رأس وفد كبار ضباط المخابرات الأمريكية الذين سيكونون في استقباله. ويتذكر احد زملائه الضباط الذين حضروا ذلك الاستقبال ان ايمز كان

يبدو مضطرباً يسيطر عليه الفزع والعصبية والى الحد الذي كان يعتقد من لاحظ ملامحه في تلك اللحظات انه يقترب من لفظ انفاسه الاخيرة. والمعتقد انه كان يتصور لحظة هبوط المدير السابق لمحطة المخابرات السوفيتية في الولايات المتحدة الأمريكية من الطائرة يقطع خطواته على ارض المطار وحين رؤية ايمز انه سينطلق مشيراً اليه بانه هو العميل والجاسوس الذي يجب ان تلقي المخابرات الامريكية القبض عليه.

غير ان تلك الاعتقادات لم تتحقق، ومضى الاستقبال هادئاً وان كان مشحوناً بمشاعر التوجس والرهبة لدى مستقبليه خاصة ادوارد لي هيوارد، وروناالد بيلتون Roland Pelton المسئول السابق في وكالة الأمن القومي (والذي يقضي الآن عقوبة السجن مدى الحياة بتهمة الجاسوسية ايضاً). ولم يشير فيتالي يورشينكو الى ايمز من قريب او بعيد بل تجاهله تماماً. الأمر الذي زاد من مخاوف ايمز وسبب له معايشة هواجس الرعب من اكتشافه في لحظة مجهولة مقبلة طوال الأعوام التي مرت الى ان القي القبض عليه مع زوجته روزاريو.

...

ولعل الدريتش ايمز عادت به الذاكرة خلال اعوام عمالته للسوفييت الى حقبة صباه التي علم فيها قبل ان يتجاوز الثانية عشرة من عمره بحقيقة عمل ابيه الذي ورثه عنه.في ذلك السن المبكر واثناء احدى الرحلات المدرسية استمع من شقيقته لسرد الملامح العامة للوظيفة التي يشغلها كارلتون سيسيل ايمز كأحد حاملي درجة الدكتوراه في التاريخ من جامعة ويسكينسون وتجنيده للعمل في وكالة المخابرات المركزية الأمريكية. وكان أول مهمة كلف بها هي القيام بالتجسس لحساب الـ CIA وتحت غطاء اعداد كتاب عن بورما استقر من اجله في رانجون خلال الفترة من عام 1953 وحتى عام 1955. حيث كان كثيراً ما يبلغ زوجته راشيل باعتزامه القيام برحلات قصيرة الى مناطق الشمال ما يلبث ان يعود منها مهموماً، ميال الى الانطواء على نفسه، مستغرقاً في الكتابة ساعات طويلة خلال الفترات الاولى من الصباح الباكر ثم يخلد بعد ذلك الى النوم حتى المساء عندما كان يقوم باصطحاب اطفاله الثلاثة الدريتش، ونانسي واليسون للتريض في حدائق وسط العاصمة البورمية رانجون.

...

ولد الدريش هازن ايمز Aldrich Hazen Ames في 26 مايو عام 1941 بمقاطعة ريفر فولز على اطراف ويسكونسن التي تبعد مسافة 20 ميلاً شرق مدينة سان بول بولاية مينسوتا. وعرف في طفولته باسم ريكي Ricky، والذي ما لبث ان اصبح ريك Rick عندما

التحق بالمدرسة الثانوية، وظل معروفاً بذلك الاسم المختصر حتى بعد التحاقه بالعمل في المخابرات الأمريكية حيث كان من النادر ان يناديه احد باسمه الحقيقي الدريتش Aldrich.

كما كان ميالاً ومنذ طفولته المبكرة - كما تقول شقيقته نانسي - الى البعد عن ممارسة الانشطة الرياضية والعزوف عن عقد الصداقات مع قرنائه ونمى في نفسه هواية لعب الشطرنج، والاستغراق في القراءة والاطلاع على امهات الكتب التي كانت موضوعاتها اكبر من قدرته على استيعابها. الأمر الذي اصابه بقصر النظر مبكراً، واضطر الى استعمال النظارات الطبية قبل ان يبلغ العاشرة من عمره.

وكان ابوه كارلتون جيمس ايمز يعمل استاذاً للتاريخ في كلية المعلمين بمدينة ريفر فولز التي حملت فيما بعد اسم مركز ايمز للمعلمين بعد ان الحق بجامعة ويسكونسن.

في هذه المرحلة كانت راشيل (20 عاماً آنذاك) تتلقى تعليمها في تلك الكلية وتطور اعجاب كارلتون ايمز بها الى حب وطلبها للزواج رغم انها تصغره بثلاثة عشر عاماً. حيث عقد قرانهما في عام 1938 وانجبا طفلهما الأول ريك (الدريتش ايمز) بعد ثلاثة اعوام من زواجهما.

وعقب ميلاد الطفل الأول بفترة قصيرة بدأ الأب (كارلتون) يدمن الشراب الى ان اصبح مشكلة الزوجين الصامتة التي لا يصرحان بها امام اطفالهما فيما بعد. وداخل الاسرة وبين الجيران كان كارلتون يكنى باسم «الملك» أما زوجته فكانت معروفة باسم «ريا»، ولكنهما وبأطفالهما الثلاثة الذين انجبوهم على التوالي كانوا واحدة من الأسر النموذجية التي تتسم بالهدوء والوداعة وعلاقتهم الطيبة بالأهل والمعارف.

وفي عام 1952 وكان كارلتون ايمز قد حصل على درجة الدكتوراه في تاريخ منطقة الشرق الأقصى التقطته اعين الخبراء في وكالة المخابرات المركزية الامريكية وتم تجنيده وارساله في العام التالي الى رانجون بعد أن تم التمويه على بعثته وتحت ستار الحصو ل على منحة علمية لوضع كتاب عن تاريخ بورما والدول المجاورة.

وهناك تم زرع اسرة ايمز وسط الطبقة العليا الارستقراطية في رانجون وحيث بدأ الأبناء «ريك» و«نانسي» و«اليسون» يتلقون تعليماً في المدارس الخاصة والانضمام الى عضوية احد النوادي الارستقراطية التي نمت في شخصية الصبي «ريك» (الدريتش ايمز) الروح الرياضية وممارسة العديد من العابها مثل السباحة والتنس والاستمرار في ممارسة هواية لعبة الشطرنج

والتجديف.

واستمرت اسرة ايمز الاقامة في رانجون الى ان عادوا جميعاً الى واشنطن في عام 1955 حيث كان الابن الاكبر ريك على ابواب الالتحاق بمدرسة جاكلين الثانوية بإحدى ضواحي الشمال في فيرجينيا والتي كانت امه تعمل بها مدرسة للغة الانجليزية. والى ان تخرج منها في عام 1959 حائزاً على أعلى درجات التقدم في اللغات والدراما والتاريخ الحديث.

وعلى الفور شجع الأب كارلتون ولده ريك على الالتحاق بالمخابرات المركزية، وعمل على اغرائه بالمزايا التي يمكن ان يحصل عليها فيما لو بدأ حياته العملية مبكراً وفي هذا المجال الذي يحكم رجاله واشنطن والعالم اجمع. وبعد أن اقتنع ريك بنصيحة ابوه التحق باحدى دوائر الشئون الادارية في وظيفة كاتب بالوكالة المركزية غير انه ما لبث ان تركها بعد ثلاثة اعوام انتسب بعدها الى جامعة جورج واشنطن حيث حصل منها على درجته العلمية وعاد مرة اخرى ولينضم من جديد الى اسراب الخريجين الشباب والصفوة التي بدأت اولى خطواتها العملية داخل اجهزة المخابرات الامريكية.

واصبح اسم الدريتش ايمز مدوناً في الملفات الرسمية للوكالة باسم آخر مجهول هو وينفيلد ليجيت Winfield Leggate. ومع حلول منتصف الستينات بدأ يتطلع الى الزواج ووقع اختياره على نانسي جين سيجبارث Nancy Jane Segebarth زميلته بالوكالة المركزية للمخابرات وسليلة احدى العائلات الثرية في نيويورك حيث كان ابوها يمتلك مصرفاً تجارياً. وفي مثل هذه الزيجات التي تتم بين العاملين في أجهزة المخابرات الغربية لم يستغرق الامر زمناً طويلاً. وتم الزواج بين الدريتش ايمز (وينفيلد ليجيت) ونانسي سيجبارت وبدأ في تأسيس مسكنهما باحدى ضواحي فرجينيا.

في الوقت الذي كانت فيه عائلة ايمز تشهد تفككاً بعد اصابة الابنة الصغرى اليسون بمرض عصبي ادخلت على اثره احدى المستشفيات للعلاج، وقررت الأم قبول عقد للتدريس في جامعة كراتشي بالباكستان وتركت مسئولية رعاية الابنة المريضة لزوجها كارلتون ايمز. ولم يمض وقت طويل حتى شفيت اليسون من المرض العصبي ولكنها بدأت تواجه معضلة الاصابة بسرطان الثدي الامر الذي انتهى بوفاتها المأساوية قبل ان تستكمل عامها الاربعين.

وفي عام 1967 احيل كارلتون ايمز للتقاعد من الوكالة المركزية للمخابرات، وعادت زوجته راشيل (ريا) من باكستان ورحلا للإقامة في مسكن بمدينة هيكوري Hickroy بولاية نورث كارولينا.

في نفس العام تم ارسال ريك (الدريش) وزوجته في مهمة عمل بمحطة الـ CIA في انقرة بتركيا استغرقت ثلاث اعوام قضتها نانسي ايمز في العمل كمحللة بمكتب الوكالة المركزية، بينما واصل «ريك» محاولاته لتجنيد عملاء سوفييت الأمر الذي اخفق فيه طوال الاعوام التي شغل فيها منصبه بالعاصمة التركية والى ان عادا لواشنطن مرة اخرى.

في تلك الاثناء مات كارلتون ايمز (الاب ـ عام 1972) في مدينة هيكوري، وانتقل الدريتش وزوجته نانسي للإقامة في مسكن جديد في فيرجينيا، وكانت قد بدأت نانسي تشعر بعدم الرغبة الاستمرار في العمل بالوكالة المركزية للمخابرات. حيث قدمت استقالتها، وبدأت تكثف نشاطها السياسي داخل الحزب الديمقراطي في الوقت الذي بدأ فيه ريك (الدريتش) يصعد درجات اعلى داخل الوكالة واسناد مهمة متابعة انشطة الوفود السوفيتية داخل هيئة الأمم المتحدة الامر الذي انتقل من اجله ومع زوجته للاقامة في احدى الشقق الفاخرة المطلة على شواطئ جزيرة مانهاتن بنيويورك وكمسئول عن اجنحة المصادر الأجنبية المعروف باسمها المختصر F.R (Foreign Resources) ومن مسكنه في الشارع رقم 54 وتحت غطاء رجل اعمال يمتلك الدخل الوفير الذي يمكنه من الحياة وسط ارقى شرائح البعثات الاجنبية، واقامة الحفلات الباذخة التي يدعو اليها معارفه الجدد من رجال الأعمال والدبلوماسيين الأجانب ويهدف التقاط النماذج المرشحة للتجنيد لحساب المخابرات المركزية.

واستغرق ريك (الدريتش ايمز) اداؤه لهذه المهمة خمسة اعوام، استمتع خلالها بمختلف مظاهر البذخ من اقامة الحفلات والتردد على المسارح وعلب الليل وقضاء عطلات نهاية الاسبوع في الفنادق الفاخرة والمطاعم الشهيرة والأهم تنمية قدراته العملية ومهاراته في اداء شخصية صياد الجواسيس Head Hunter الأمر الذي عزز مكانته داخل اجهزة وكالة المخابرات المركزية التي عملت على ترقيعه ونقله الى ساحة اخرى تعتبر اكبر معقل لأنشطة الجاسوسية الروسية هي مدينة مكسيكو سيتي Mexico City.

ومع قرار النقل الذي كان عليه ان ينفذه بسعادة، اعلنت زوجته نانسي قرارها برفض اصطحابه والتحول الى زوجة تابعة تدور في ظلال زوجها بالعواصم الاجنبية. ولم يعبئ ريك (الدريتش) بعصيان وتمرد زوجته فحمل حقائبه ورحل الى مكسيكو ستي وحده. وبدأ هناك يستشعر طعم الحياة منفرداً بعيداً عن قيود الأسرة والعلاقة الزوجية بعد أن راح يروج لانفصاله عن زوجته والمشاكل التي اصبحت عوائق مستحيل اجتيازها في طريق استمرارها.

مع تلك البدايات الأولى في مدينة مكسيكو سيتي اقبل على التردد على حفلات

الاستقبال والتعرف الى وجوه جديدة ايضاً في الاوساط الدبلوماسية ودوائر البعثات الأجنبية وعبرها التقى مع روزاريو الملحقة الثقافية بالسفارة الكولومبية سليلة احدى العائلات الكبيرة في بوجوتا. وبسرعة سحرته تلك المرأة الساخنة الدماء المصبوغة البشرة بسمار مشوب بالحمرة وشعرها الأسود الداكن وعيناها التي تتفوق بلغة خاصة على اللغات الخمسة التي تتحدث بها.

وأصبحت زياراته لمسكنها المجاور للسفارة الامريكية والمطل على مكتبه بصفة خاصة شاغله منذ ان التقى بها واصبح اسير هواها.

وسيطر هاجس الارتباط بها على ريك (الدريتش) اكثر من تفكيره في تجنيدها، ولسبب بسيط تبينه فيما بعد هو انها بالفعل كانت قد جندت كعميلة للمخابرات الامريكية عقب وصولها لمكسيكو سيتي في ربيع عام 1982 بأشهر قليلة وعلى يدي احد زملائه في الوكالة. وأصبحت مصنفة في ملفات محطة المخابرات الأمريكية بالعاصمة المكسيكية «كمصدر مأجور Paid Source» تنشط في مساعدة الوكالة بتقديم المعلومات عن الدبلوماسيين الكوبيين والسوفييت العاملين في بعثتيهما بمكسيكو سيتي يعزز من نشاطها في هذا المجال عملها كمستشارة ثقافية لبلادها فضلاً عن استغلالها لسحرها كأنثى متحررة وخلفياتها العائلية في بوجوتا التي فتحت لها جميع الابواب.

كانت روزاريو وفي مقابلة اجريت معها بعد اعتقالها قد اعترفت بأنها سمحت بتأجير مسكنها لضباط وكالة المخابرات المركزية كي يعقدوا فيه لقاءاتهم ودون ان تتورط فيما يحدث او الارتباط بأي علاقة مع اي منهم. ولكن ذلك التفسير لم يكن ليتفق مع المعلومات التفصيلية الدقيقة التي جمعها العملاء عنها، وعرضت اثناء المحاكمة وثبت منها انها كانت طرفاً فاعلاً في جميع اللقاءات التي تتم داخل مسكنها وفي مقابل 200 دولار شهرياً فضلاً عن العلاقة السرية التي جمعتها مع ضابط المخابرات الأمريكي المسئول عنها Case Officer. والذي لم يكن سوى ريك (الدريتش) ايمز نفسه.

ورغم التعليمات المشددة لجميع ضباط المخابرات وعملائهم بعدم التورط في اي علاقات مع الاطراف النسائية التي يتعاملون معها ويتخذونها مصدراً للحصول على معلوماتهم الا ان ريك (الدريتش) ايمز ضرب بجميع هذه التعليمات عرض الحائط ووقع في سحر عميلته الانثى روزاريو واصبح مسكنها، وجميع المساكن الآمنة التي تتخذها الوكالة المركزية للمخابرات اوكار لادارة انشطتها، ومسارح لمشاهد غرامية وجنسية ساخنة بين ريك وروزاريو الامر الذي لم يكن خافياً عن اعين رجال المحطة في مدينة مكسيكو سيتي.

وفي شهر اكتوبر عام 1983 تم استدعاء ريك (الدريتش) ايز الى واشنطن، والعودة الى العمل بمقر القيادة العامة للمخابرات المركزية في لانجلي. وكأي ضابط مخابرات مدرب نفذ الدريتش القرار على الفور، وانتقل للاقامة مع شقيقته نانسي لحين العثور على مسكن مناسب. وخلال الاسابيع الاربعة التي أقام فيها مع شقيقته اعترف لها بعلاقته مع روزاريو، وكيف امتلكت مشاعره واصبح لا يطيق البعاد عنها. وانه كذلك سيطلب الطلاق من زوجته مهما كلفه ذلك من متاعب ونفقات كي يضع حداً لعلاقتهما المنفصلة منذ ان غادر نيويورك الى مكسيكو سيتي.

وبالفعل توجه ريك (الدريتش) الى لقاء زوجته التي كانت لازالت تقيم بمسكنهما السابق في مانهاتن، والقى على اسماعها نبأ عزمه على طلب الطلاق بأسرع وقت ممكن، واستعداده لمنحها تعويضاً مجز، حددته الزوجه بعدم التخلي عن المسكن ومحتوياته من المفروشات والسيارةالخاصة وكذلك التنازل عن رصيدهما المشترك في احد البنوك بحي مانهاتن.

ورغم ان المسكن المستأجر في احدى البنايات الفاخرة بحي مانهاتن كانت المخابرات المركزية تسدد معظم نفقاته وكذلك الاثاث والسيارة، الا ان ريك وافق على تحمل تلك النفقات من اجل انهاء اجراءات الطلاق.

وخلال الاشهر العشرة التالية كانت روزاريو قد رحلت من مكسيكو سيتي الى واشنطن واقامت مع ريك في احد المساكن في منطقة تشيرش فولز بضاحية فيرجينيا.

وفي مطلع عام 1984 كان ريك قد حصل على الطلاق من زوجته الأولى من احدى محاكم مدينة نيويورك، في نفسا الوقت الذي بعثت به الوكالة المركزية ليكون على مقربة من مقر هيئة الأمم المتحدة ومع افتتاح جمعيتها العامة لمتابعة انشطة وفود البعثات الدبلوماسية الأجنبية والسعي الى تجنيد اكبر عدد من العملاء من بين اعضائها وخاصة في اوساط الوفد السوفيتي ووفود بلدان اوروبا الشرقية. ومن اجل هذه المهمة خصصت محطة الوكالة المركزية للمخابرات في نيويورك مسكناً آمناً لريك ايز واثنان من ضباطها. ولكن ريك وبدلاً من ان يذعن لإجراءات الاقامة في المساكن الآمنة التي تخصصها الـ CIA لرجالها اسرع باحضار روزاريو للإقامة معه، الامر الذي استفز مشاعر زملائه الذين قاموا بإبلاغ مدير المحطة.

وفي محاولة لتسهيل ذلك المأزق والمخالفة التي ارتكبها ريك ايمز قام مدير المحطة باقناعه بمغادرة المسكن واصطحاب صديقته معه وحتى لا ينتهك الاجراءات المرعية للمساكن الآمنة واستفزاز مشاعر زملائه. وبعد أن اذعن ريك لقرار مدير المحطة انتقل للاقامة مع روزاريو

في احد المساكن بحي مانهاتن واصبح عليه تحمل نفقات المسكن بالاضافة الى المسكن الذي تقيم به زوجته السابقة، وبدأت الأعباء المالية تثقل كاهله.

في تلك الاثناء وعقب انتهاء مهمته في نيويورك عاد ريك وروزاريو الى واشنطن ليفاجأ بقرار ترفيعه واسناد رئاسة فرع دائرة مكافحة الانشطة السوفيتية والاوروبية الشرقية في الوكالة المركزية للمخابرات. ومع هذا المنصب الجديد بدأ ريك (الدريتش) يحتل مكانة رفيعة في الـ CIA ويصبح محطاً لعيون الحسد من زملائه.

ولفت انتباه الزملاء في تلك الفترة من عمل ريك انه بدأ يتقمص ملامح الشخصية المتعالية ويستغرق في الاطلاع على كافة الملفات السرية القديمة من ارشيف الوكالة ويقضي الساعات الطويلة داخل مكتبه في الطابق الرابع من مبنى دائرة مكافحة الجاسوسية السوفيتية في مجمع المخابرات المركزية بلانجلي. كما بدأ يدمن الشراب وفي محاولة للهرب من متاعبه المالية.

في تلك الفترة حاول القسم الطبي للوكالة المركزية مساعدته وتقديم العلاج الناجح ولتخليصه من عادة ادمان الشراب، وفي نفس الوقت لم تكن المزايا المالية التي حصل عليه من جراء ترفيعه في الوكالة تغطي النفقات الكبيرة التي يتحملها لمطلقته، وكذلك عشيقته الكولومبية روزاريو. وكانت حالته التي وضع فيها، والمنصب الكبير الذي يشغله في رئاسة فرع دائرة مكافحة الأنشطة السوفيتية وجواسيس اوروبا الشرقية اشبه برجل الدين الذي ترسله الكنيسة في مهمات تبشيرية في احدى دور الدعارة.

على انه وعندما اصدر الكونجرس الامريكي قرار بانشاء الوكالة المركزية للمخابرات في عام 1947 لم تمنح العاملين فيها سلطات الضبطية القضائية وعلى ضوء انهم يمارسون انشطتهم من مكاتبهم في نيويورك والعديد من المدن الامريكية الداخلية الكبرى، وتحت اشراف مكتب المباحث الفيدرالية. غير ان هذا الامر لم يستمر طويلاً اذا اصبح على المخابرات المركزية وعندما تمارس انشطتها في مكافحة الجاسوسية ان تحصل على موافقة مكتب المباحث الفيدرالية واخضاع تصرفات العاملين فيها لاشراف رجال المكتب في ادق التفاصيل.

وفي عام 1980 انشئت لجنة عمليات مشتركة بين المخابرات المركزية والمباحث الفيدرالية حملت اسم كورت شب Courtship (المشاركة) وتستهدف بعملها تجنيد العناصر السوفيتية

في محطة الـ KGB بواشنطن، والعمل في مجالات الجاسوسية لصالح المخابرات المركزية. وبدأت اللجنة ومنذ هذا التاريخ العمل من مقرها في احدى البنايات الواقعة بضاحية سبرنجفيلد Springfield بفرجينيا والى ان تمكن رجالها في عام 1982 من تجنيد الليفتانت كولونيل فاليري مارتينوف ـ Valery Martinov والذي كان يعمل بالسفارة السوفيتية في واشنطن تحت ستار الملحق العلمي لتغطية نشاطه الفعلي في جمع المعلومات العلمية والفنية لهيئة المخابرات السوفيتية KGB وعقب تجنيد مارتينوف بفترة قصيرة لاحظ رجال احدى فرق مكافحة الجاسوسية في اللجنة المشتركة قيام الميجور السوفيتي في المخابرات KGB سيرجي موتوريون Sergi Motorion باستبدال ▬ من زجاجات الفودكا وصناديق السيجار الكوبي الفاخر بجهاز استريو حديث في احد المجمعات الاستهلاكية. ولم يخطئ رجال المباحث الفيدرالية المعنى واسرعوا بالاتصال بموتوريون والضغط عليه واشباع حاجته من اجهزة الاستماع الحديثة في مقابل التعاون معهم وتحويل ولائه بالكامل للمخابرات المركزية الامريكية.

في نفس الوقت كان الدريتش ايمز (ريك) يصعد من نشاطه المستهدف تجنيد العديد من العناصر السوفيتية دون جدوى. وكان من الضروري مع كل محاولة يقوم باعداد تقارير خاصة يستعرض فيها ادق تفاصيل تلك المحاولات. غير أنه وفي كثير من الاحيان لم يكن يهتم بالابلاغ او اعداد التقارير وتقديمها كما كان يتوقع منه. وبدأت في تلك الآونة تتغير نظرته تجاه العملاء المستهدف تجنيدهم، وما ينتظرهم من اغداق المال والهدايا وبقية المميزات الشخصية عندما يقبلوا التعاون مع المخابرات المركزية. وهنا اصبح ميال الى تغيير موازين اللعبة وبمقدار 360 درجة واستثمار حجمه ومعلوماته الشخصية لصالح المخابرات السوفيتية. فبدأ متطوعاً يعرض ما لديه من أسرار حول العملاء السوفييت الذين حولوا ولاءهم للمخابرات المركزية وتقديم قوائم باسمائهم الى الـ KGB وفي مقابل 50 الف دولار. وكما كان متوقعاً وجد عرضه صدى كبير في نفوس المسئولين عن محطة المخابرات السوفيتية في واشنطن والأهم في موسكو. وبعد هذه الخطوة الأولى الناجحة والذي اعتقد انها قد تمت في الخفاء دون ان يلفت انتباه احد من عيون رجل المباحث الفيدرالية والـ CIA قدم عرضه الكبير الى المخابرات السوفيتية بتقديمه لكافة قوائم العاملين في مكافحة الجاسوسية في الـ CIA وكذا العملاء السوفييت وغيرهم من بلدان اوروبا الشرقية المتعاونين مع الوكالة المركزية بالاضافة الى عناوينهم وارقام تليفوناتهم ودوائر اقاربهم ومعارفهم وكان بذلك يقدم اكبر واخطر خدمة للمخابرات السوفيتية والتي كانت على استعداد لتقديم المقابل المطلوب مهما بلغت قيمته. وكان مع الدريتش ايمز ما يساوي 2 مليون دولار.

وقد سجلت له ملفات المباحث الفيدرالية خلال تلك الفترة القيام بعدة زيارات للسفارة السوفيتية في واشنطن وفي تقارير متابعتها العادية، غير أن «ايمز» لم يبلغ عن تلك الزيارات مكتفياً بإبلاغه فقط عن الزيارة الأولى.

ومع وصول اول دفعة من الملايين التي رصدتها هيئة المخابرات السوفيتية KGB لأيمز، أودع في حسابه ببنك الدومنيون Dominion Bank بفرجينيا في 18 مايو عام 1988 مبلغ 9 آلاف دولار مقابل تسليمه الدفعة الأولى ايضاً من الوثائق السرية التي وعد بها الى احدالعملاء خارج الولايات المتحدة. ثم بدأت الوثائق الاكثر خطورة تأخذ طريقها الى ايدي رجال الـ KGB وعبر صناديق البريد الخاصة او كما يطلق عليها صناديق البريد الصامتة ـ "Dead drops" أو شقوق جدران المنازل والمنشآت المهجورة واحياناً داخل اعشاش الطيور على اغصان اشجار الحدائق العامة. وحتى لا يتم تبادل الوثائق والاموال بصورة شخصية تحمل المخاطر الداهمة على ايمز وكذلك العملاء السوفييت.

وبدت في تلك الفترة أشبه بالصحوة في حياة الدريتش ايمز، تنحسر منها المتاعب الشخصية بصورة متلاحقة، وتتعزز فيها حالته المادية والعاطفية فضلاً عن صعوده الى تلك المكانة المميزة كرئيساً لدائرة مكافحة الجاسوسية داخل الوكالة المركزية للمخابرات CIA ويتحول الى طاووس مدلل في دوائر كبار المسئولين عن اكثر اجهزة الأمن الأمريكية حساسية.

فبعد ان حصل الدريتش ايمز على الطلاق من زوجته الاولى نانسي سيجلبارت في 29 يوليو لم يحتمل الانتظار اكثر من 12 يوماً حتى عقد قرانه على زوجته الثانية وشريكة مغامرته الكبرى روزاريو الكولومبية في احدى كنائس منطقة ارلنجتون بفرجينيا. في تلك الفترة استدعاه رئيس القسم السوفيتي في المخابرات المركزية ليدلي بمعلوماته امام كبار المسئولين في الوكالة عن المنشق السوفيتي الهارب الى الولايات المتحدة وصيد الـ KGB الثمين «فيتالي يورشينكو» ـ Vitaly Yurchenko ـ مع تخصيص احد ضباط الوكالة المهرة (بول ريدموند ـ Paul Redmond) العاملين في القسم السوفيتي بالوكالة المركزية لمعاونته. (ريدموند يعمل حالياً نائباً لرئيس قطاع مكافحة الجاسوسية في الـ CIA). غير ان ريدمون هذا اعترف بعد القاء القبض على الدريش ايمز بانه كان كثيراً ما يختلف معه في تحليلاته وتقييمه للعملاء السوفييت وعناصر الـ KGB العاملين على الاراضي الامريكية، وانه لم يستطيع ان يقاوم الشك في ايمز وانتهاجه لأساليب تبدو مقنعة في ظاهرها وان كان ستار يلقيها للتمويه على انشطتهم او الاقلال من قيمتها. بل الأكثر اثارة هو ان ايمز نفسه كان يعمل بالتنسيق مع المنشق الهارب ضابط الـ KGB فيتالي يورشينكو وقبل تظاهره باللجوء

الى الولايات المتحدة وكثيراً ما جمعتهما المقابلات السرية في العاصمة السوفيتية موسكو والعديد من العواصم الأوروبية.

وان يورشينكو يعلم بما فيه الكفاية حقيقة الدريتش ايمز وعمالته التي تعود الى قبل اربعة اعوام (1984) وحجم الوثائق السرية التي هربها والمبالغ النقدية التي حولت الى حساباته الخاصة داخل وخارج الولايات المتحدة الامريكية.

ولكن يورشينكو مع ذلك لم يشير من قريب او بعيد الى اسم الدريتش ايمز في مجمل اعترافاته التي ادلى بها امام رجال المخابرات المركزية الامريكية بعد هبوطه الى امريكا وطلب اللجوء السياسي الأمر الذي يضع العديد من علامات الاستفهام حول يورشينكو نفسه خاصة وانه وبعد فترة من هروبه الى امريكا عاد متسللاً على احدى طائرات ايروفلوت Aeroflot السوفيتية ومن مطار دالاس الى موسكو بصحبة فاليري مارتينوف Valery Marty-novاحد ابرز مصادر المعلومات داخل السفارة السوفيتية في واشنطن. ولم يسمع عنهما اي شيء بالمرة منذ ذلك الحين.

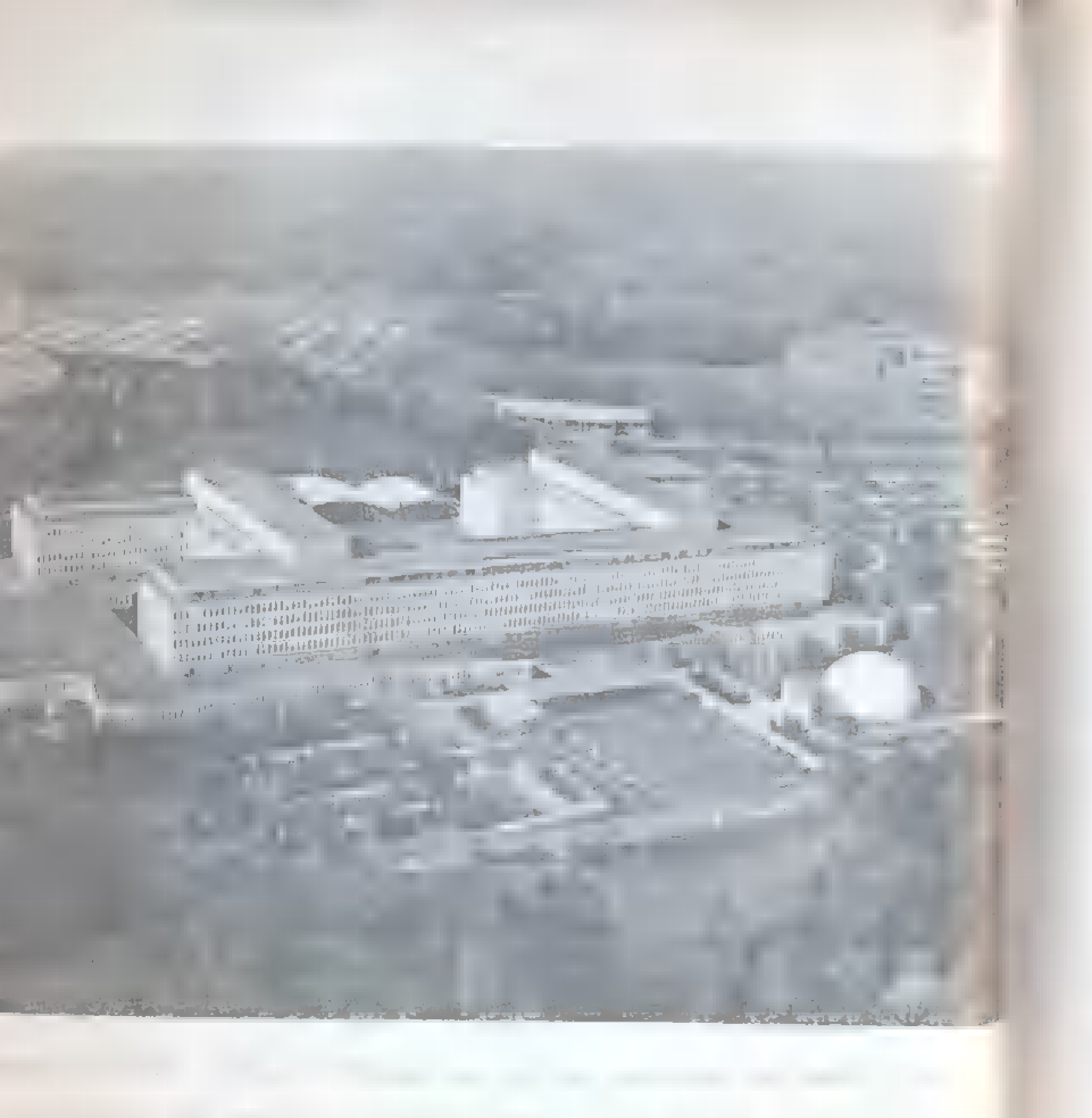
في صباح عيد العمل في واشنطن (اول مايو عام 1985) حمل الدريتش ايمز معه ملفات قضية يورشينكو معه على الطائرة التي استقلها بصحبة زوجته روزاريو الى روما ليبدأ مهمة عمل من محطة المخابرات الامريكية في العاصمة الايطالية وتحت ستار السكرتير الاول بالسفارة في بلازو مارجريتا Plazzo Margherita المطل على شارع فيا فينتو الشهير Via Vento . وحيث استغرقت مهمته عدة اشهر اقام خلالها مع زوجته في منطقة فيلابرو Velabro احد ارقى الاحياء في العاصمة الايطالية.

اما الوجه الآخر المختفي الذي كان يمارس به ايمز نشاطه كأكبر جاسوس امريكي لصالح المخابرات السوفيتية فقد وجد في روما مساحة واسعة من حرية اجراء الاتصالات مع رؤسائه في الـ KGB مستفيداً من بعده عن أعين رجال المباحث الفيدرالية ولكنه وحتى يواصل احكام الغطاء على عمالته امام رؤسائه في المخابرات الامريكية واصل كتابة تقاريره المزيفة عن نجاحه في تجنيد رئيس محطة المخابرات السوفيتية في روما والذي كان يعرف باسم سام "Sam" في نفس الوقت الذي كان يسابق الزمن في صياغة التقارير وإعداد القوائم بالعاملين داخل وكالة المخابرات المركزية والعملاء السوفييت المتعاونين معهم ويسلمها اولاً بأول الى رؤسائه في الـ KGB.

وفي شهر نوفمبر عام 1988 رزق الدريتش وزوجته الكولومبية روزاريو بمولودهما بول

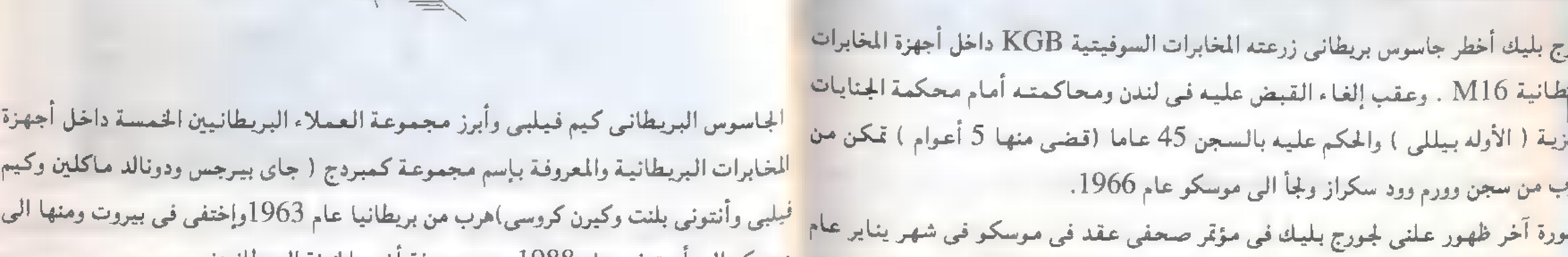
وقبل ان ينتهي العام عاد الجميع الى واشنطن بعد انتهاء مهمة الدريتش في روما. حيث اشترى مسكنهما الفاخر في فرجينيا بمبلغ 540 الف دولار نقداً.

قد تكون التفاصيل التي تلاحقت احداثها بعد ذلك وخلال السنوات الخمس التالية ذروة النشاط الذي اسهم به الدريتش ايمز وزوجته روزاريو في خدمة هيئة المخابرات السوفيتية ولكن الأكثر من تلك الأحداث اهمية هي الاتفاقية السرية التي عقدتها المخابرات المركزية الامريكية CIA مع المباحث الفيدرالية دون علم من «ايمز» وفي اطار اكبر حملة شنها الجهازين لمكافحة الجاسوسية السوفيتية على الاراضي الامريكية وتدفقت معها قوائم العملاء، وكان الدريتش ايمز وزوجته روزاريو يحتلون اسطرها الاولى والى ان القي القبض عليهما وتقديمهما للمحاكمة والحكم عليهما بالسجن مدى الحياة وسحق الحلم الاخير الذي رغب ايمز وروزاريو في تحقيقه بالتقاعد المبكر والرحيل الى موسكو والاقامة في احد المساكن الريفية المحاطة بالغابات كما كشفتها مجموعة من الصور التي تسلمها قبل القاء القبض عليه من موسكو وتجسد ملامح حلم خائن امريكي اعاد الى الاذهان صور اشهر فريق الجواسيس والخونة البريطانيين في مطلع الستينات. كيم فيلبي وجاي بيرجس ودونالد ماكلين وانتوني بلنت وكيرن كروس.

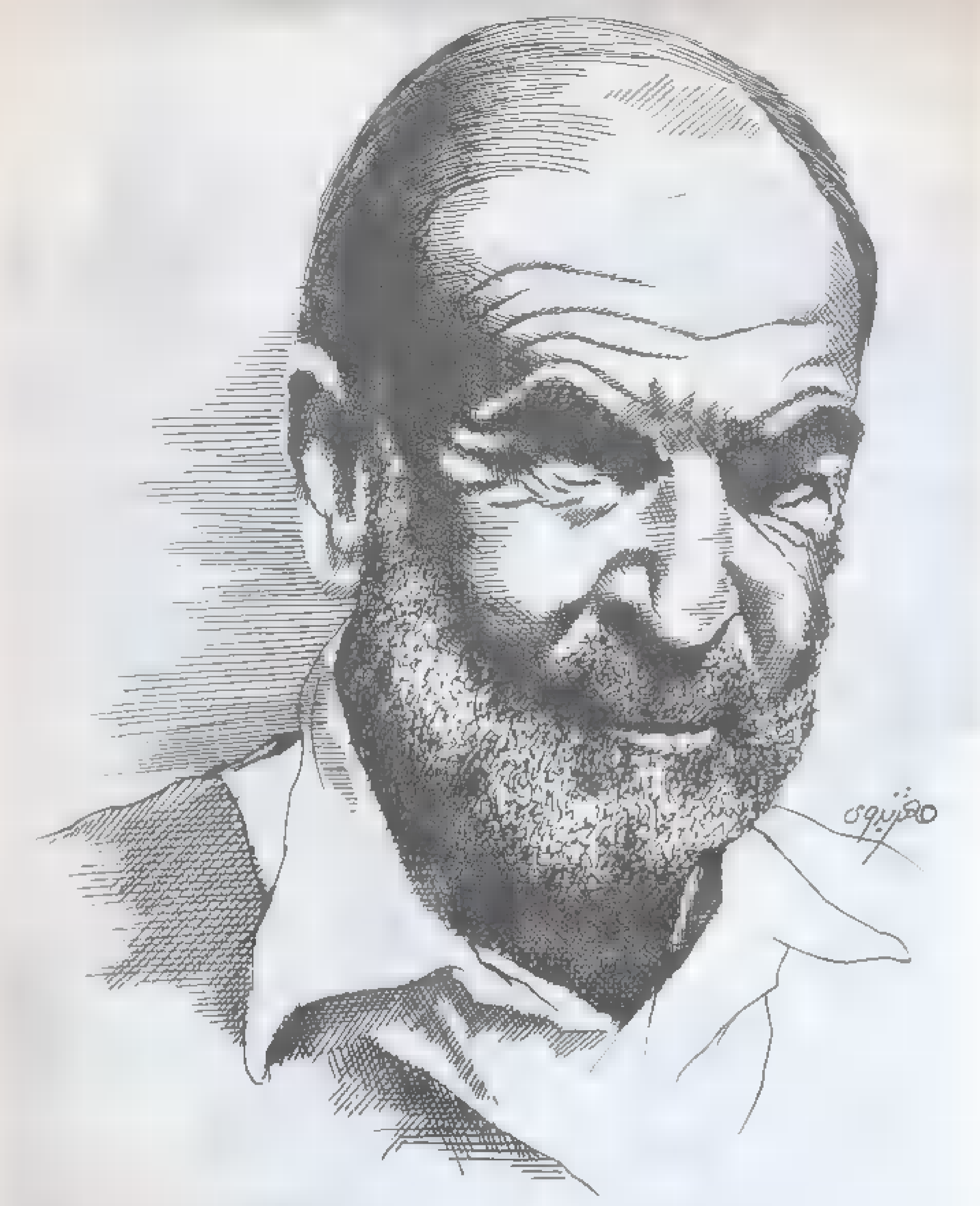


مشهد عام لمنشآت الوكالة المركزية للمخابرات الأمريكية فى لانجلى بواشنط

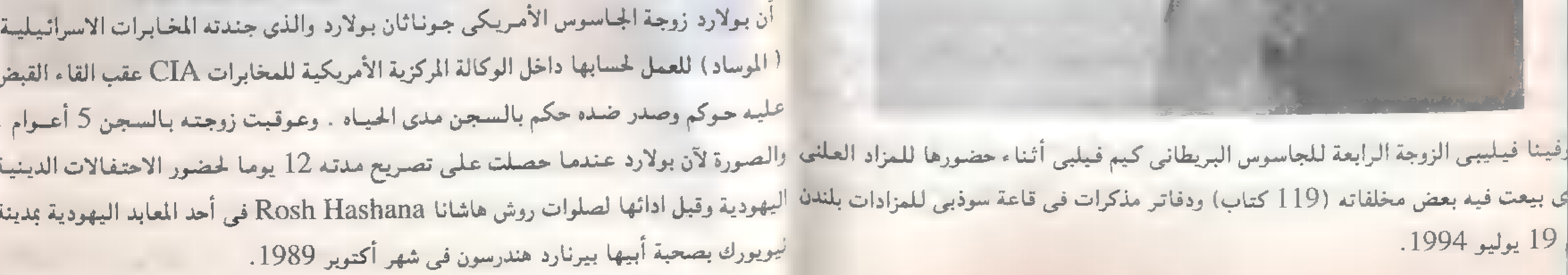




ج بليك أخطر جاسوس بريطانى زرعته المخابرات السوفيتية KGB داخل أجهزة المخابرات
طانية M16 . وعقب إلغاء القبض عليه فى لندن ومحاكمته أمام محكمة الجنايات
زية (الأوله بيللى) والحكم عليه بالسجن 45 عاما (قضى منها 5 أعوام) تمكن من
ب من سجن وورم وود سكراز ولجأ الى موسكو عام 1966.
ورة آخر ظهور علنى لجورج بليك فى مؤتمر صحفى عقد فى موسكو فى شهر يناير عام
19 أكد فيه اصراره على التمسك باعتناقه الشيوعية رغم انهيار الامبراطورية السوفيتية
أجهزة ل KGB .



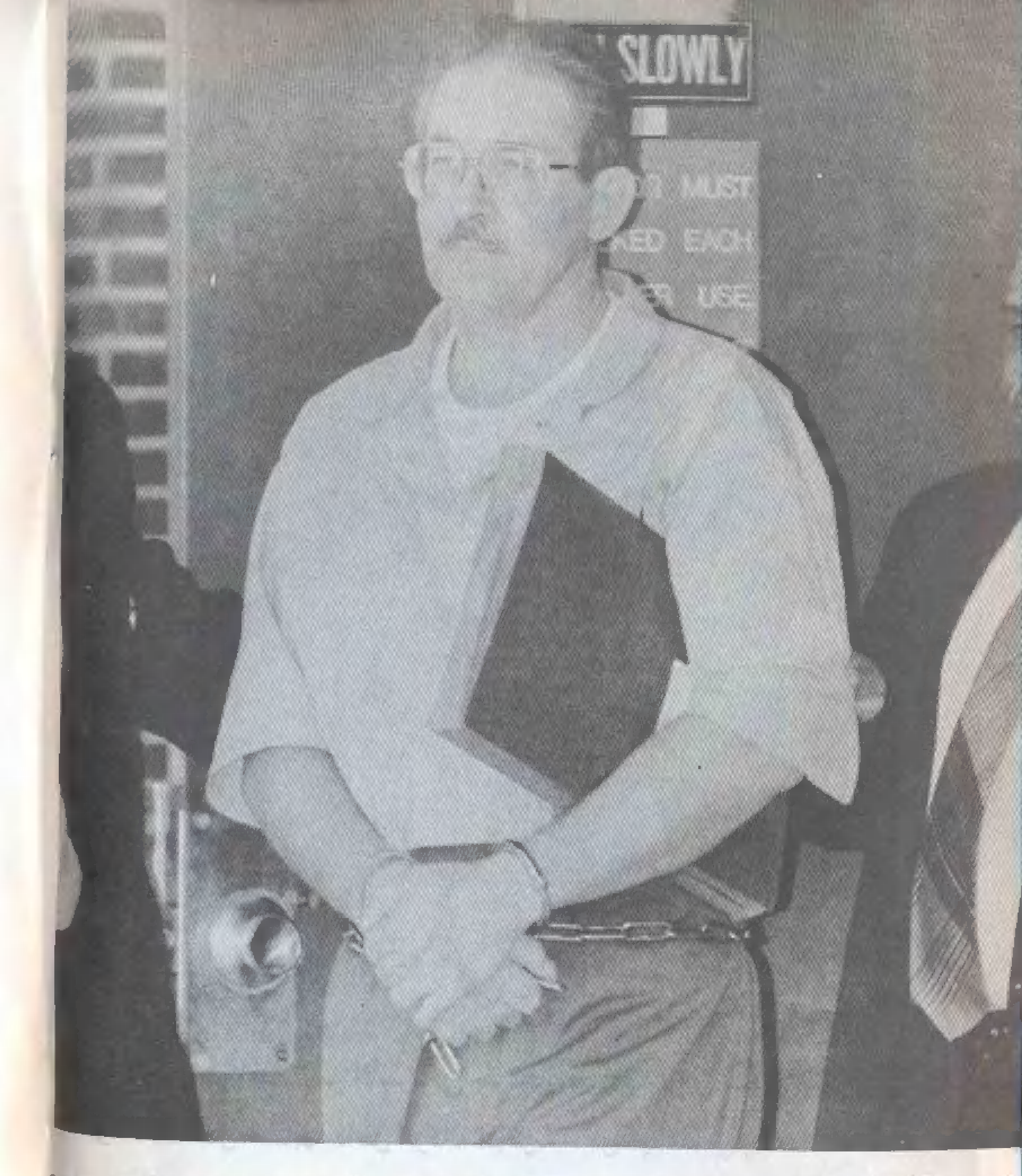
الجاسوس البريطانى كيم فيلبى وأبرز مجموعة العملاء البريطانيين الخمسة داخل أجهزة المخابرات البريطانية والمعروفة بإسم مجموعة كمبردج (جاى بيرجس ودونالد ماكلين وكيم فيلبى وأنتونى بلنت وكيرن كروسى)هرب من بريطانيا عام 1963وإختفى فى بيروت ومنها الى موسكو الى أن توفى عام 1988 ووصم بصفة أشهر الخونة البريطانيين .



رفينا فيليبى الزوجة الرابعة للجاسوس البريطانى كيم فيلبى أثناء حضورها للمزاد العلنى ى بيعت فيه بعض مخلفاته (119 كتاب) ودفاتر مذكرات فى قاعة سوذبى للمزادات بلندن 19 يوليو 1994.



آن بولارد زوجة الجاسوس الأمريكى جوناثان بولارد والذى جندته المخابرات الاسرائيلية (الموساد) للعمل لحسابها داخل الوكالة المركزية الأمريكية للمخابرات CIA عقب القاء القبض عليه حوكم وصدر ضده حكم بالسجن مدى الحياه . وعوقبت زوجته بالسجن 5 أعوام والصورة لآن بولارد عندما حصلت على تصريح مدته 12 يوما لحضور الاحتفالات الدينية اليهودية وقبل ادائها لصلوات روش هاشانا Rosh Hashana فى أحد المعابد اليهودية بمدينة نيويورك بصحبة أبيها بيرنارد هندرسون فى شهر أكتوبر 1989.



اسوس الأمريكى الدريتش ايمز عقب مغادرته للمحكمة الفيدرالية العليا بمدينة الاسكندرية
لاية فيرجينيا صباح 28 ابريل عام 1994 وصدور الحكم بسجنه مدى الحياة عقوبة على
انته والتجسس لحساب الاتحاد السوفيتى داخل الوكالة المركزية الأمريكية للمخابرات CIA
لذى كان يتولى فيها منصب رئيس هيئة مكافحة الجاسوسية .

المصادر

The Spy from Israel by Ben Dan
Vallentine, Mitchell. 1969

Our Man in Damascus by Eli Ben-Hanan
Crown. 1964

Hand Book of Intelligence and Guerilla Warfare by Alexander Orlow
University of Michigan Press - 1963

Inside the KGB: Myth and Reality by Vladimir Kuzichkin
André Deutsch, 1990

KGB: The Inside Story by Christopher Andrew & Oleg Gordievsky
(Hodder & Stoughton, 1990)

The Blake Escape by Micheal Randle & Pat Pottle
(Harrap, 1989)

The Springing of George Blake by Sean Bourke
(Cassell, 1970)

CIA Clandstine Service History Series by The Berlin Tunnel Operation
25 August, 1967

Living By The Sword: America and Israel in the Middle East, 1968-1987 by Stephen Green
London, Faber and Faber, 1988

Two Minutes Over Baghdad by Amus Perlmuttes & Micheal Handel and Uri Bar-Joseph
Vallentine Mitchell, 1982

Israel under Cover: Secret Warfare and Hidden Diplomacy in the Middle East by Steve Posnes
Syracuse, New York: Syracuse University Press 1987

Traitors: Labyrinth of Treason by Chapman Pincher
London, Sidgwick and Jackson, 1987

The Agency: The Rise and Decline of the CIA by John Ranelagh
Weiden Field and Nicolson, 1986

For lust of Knowing: Memoirs of an Intelligence Officer by Archie Roosevelt
London. Weidenfield and Nicolson. 1987

Games of Intelligence by Nigel West
London. Weidenfield and Nicolson. 1989

Seven Spies who Changed the World by Nigel West
Secter & Wasbury - London
The Illegals: The Double Lines of the Cold War's Most Secret Agents by Nigel West
London. Hodders & Stoghton

The New Spies: Exploring The Frontiers of Espionage by James Adams
London. Hutchinson. 1994

Enemies of the State: A Sensational Exposé the Security Service by A Former MI5 Undercover Agent by Gary Murray
London. Simon and Schuster

Cold Warrior: James Jesus Angleton by Tom Mangold
London. Simon and Schuster

Every Spy A Prince: The Complete History of Israel's Intelligence Community by Dan Rairv and Yossi Melman
Houglton Miffin Company: Boston, Massachusetts

رقم الايداع
H.S.B.N
٩٧٧-٥٥٨٩-٠٣-٧

الناشر
الشركة المتحدة للطباعة والنشر والتوزيع
٣٩٣٥٧١٥- ٣٩٢٨٨١٥

الفهرس

الكتاب

يتناول هذا الكتاب وبطريقة غير مباشرة آفاق الهزة العنيفة التى اصابت أجهزة المخابرات العالمية ومنذ سلسلة المتغيرات التى المت بالساحة الدولية فى عام ١٩٨٩ وسقوط الامبراطورية السوفيتية ومابدا على السطح من تفكك اشرس اجهزتها جهاز الامن السوفيتي وضباطه الشهير مخابرات ال K G B كى جى بى . وحلفائه في معسكر اوربا الشرقية والاهم انعكاسات ذلك على الوكالة المركزية الامريكية سى اى ايه C I A واجهزة المخابرات البريطانية M15 و M16 .

وقد كان الماضى وما شهدته سنواته من شراسة الحرب الباردة التى دارت رحاها داخل ساحات الصحف ، ومن اختراق لمعظم اجهزتها ووكالاتها ارضية خصبة مهدها العملاء والجواسيس لمرحلة الانهيار الكامل لامبراطورية سوفيتيه امتدت حتى نهاية العقد الثانى من القرن الحالى وحتى عام ١٩٩١ وهزات اخرى اكثر عنفا عرفتها اجهزة المخابرات البريطانية فى مطلع الستينات وانتهاء بالوكالة المركزية للمخابرات C I A التى اصابها الجاسوس الدريتش ايمز فى عام ١٩٩٣ علامات اخرى بازرة تكشف عن ملامح الحقبة المقبلة للمهتمين بعالم يسوده السلام ، ونظام عالمى جديد لازالت خيوط نسيجه تتشكل فى مناطق الشرق الاوسط ووسط اوربا واخرى تمتد من هايتى الى سفرح جنوب شرقى اسيا مرورا بقلب افريقيا .



المؤلف

طلعت المرصفى ، ولد فى طنطا بجمهورية مصر العربية وتلقى تعليمه الابتدائى والثانوى بمدرستى التوفيقية ، والاحمدية ثم التحق بجامعة القاهرة التى حصل منها على ليسانس الاداب فى الفلسفة وعلم النفس ودبلومى علم النفس التطبيقى وفلسفة الاديان .

عمل فى اكثر من موقع باجهزة الاعلام المصرية محررا بصحف الاخبار والمساء وروزاليوسف ، ومعدا ومقدما للبرامج والمسلسلات الاذاعية والتليفزيونية ، وعضوا باجهزة العلاقات الثقافية الخارجية ومع رحيله من مصر فى بداية السبعينات عمل فى عدة مواقع اعلامية فى اليونان وفرنسا الى ان استقر فى بريطانيا مسجلا أولى دراساته عن شرائح المغتربين المصريين فى المهاجر الغربية والتى صدرت فى كتاب " ثلاثية الغربة " عن دار نشر مدبولى بالقاهرة . ثم كلف بعمل البحث والتاريخ لانشطة اجهزة المخابرات العالمية ومن خلال حركة النشر الهائلة التى تموج بها اسواقها فى لندن وباريس وواشنطن ودور ومراكز البحث البريطانية وليقدم منها دراسة لاحدث كتبه " اوراق مجهولة فى ملفات المخابرات العالمية " وعن دار نشر مدبولى فى القاهرة .

وكتابه هذا " سقوط عصر الجواسيس " جزء من سلسلة كتب اخرى يتناول فيها بقلمه انشطة ابرز العملاء الذين اخترقوا اجهزة الوكالات الاجنبية العالمية . ومقدمة لدراسات اخرى تعقدها عدة دور نشر عربية ومصرية عن الاجهزة البريطانية والامريكية والروسية .

يعمل حاليا باحثا وصحفيا متخذا من لندن والقاهرة مقرا لاقامته مع طفليه سارة وبسام .

الناشـــر